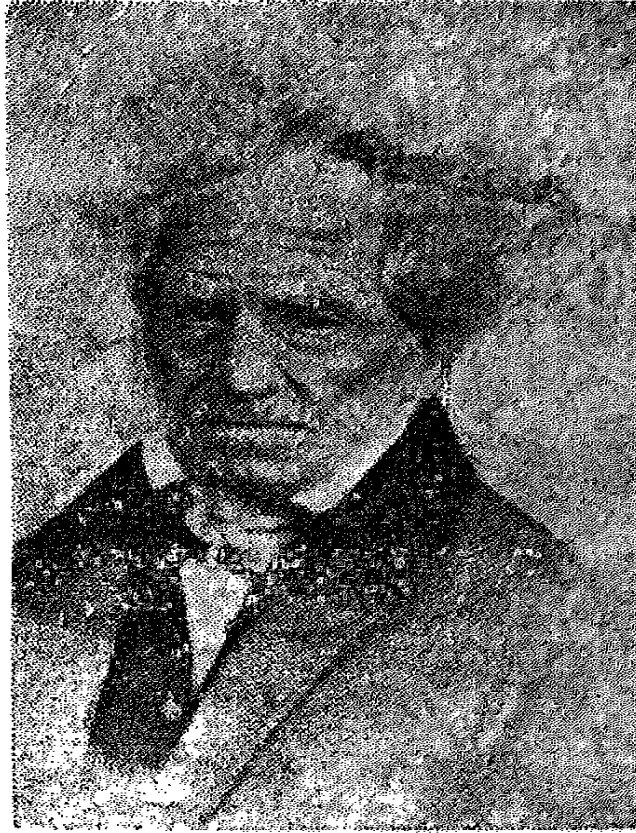


أرتور شوپنهور



آرتور شوینہور

خِلاصَةُ الْفِكْرِ الْأَوْزَنِيِّ

سلسلة الفلاسفة

عبد الرحمن بدوي

بيروت
بيروت
بيروت

دار القلم
بيروت - لبنان

وكالة المطبوعات
الكويت

مؤلفات

الركنور عبد الرحمن بدوي

(أ) مبتكرات

- ٤ — الزمان الوجودي
٤ — الحور والنور
٣ — هموم الشباب
٥ — نشيد الغريب (شعر)
٣ — مرآة نفسى [ديوان شعر]
٦ — هل يمكن قيام أخلاق وجودية؟

(ب) دراسات

- ١ — الموت والبعقرية
٤ — النقد التاريخي
٢ — دراسات فى الفلسفة الوجودية
٥ — مناهج البحث العلمى
٣ — المنطق الصورى والرياضى
٦ — فى الشعر الأوروبى المعاصر

خلاصة الفكر الأوروبى

- ١ — نيتشه
٥ — أرسطو
٢ — اشبنجار
٦ — ربيع الفكر اليونانى
٣ — شوبنهاور
٧ — خريف الفكر اليونانى
٤ — أفلاطون
٨ — فلسفة العصور الوسطى
٩ — المثالية الألمانية (فى ثلاثة أجزاء: فشته — هيغل — شلنج)

(ب)

(ج) دراسات إسلامية

- ١ — التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية .
- ٢ — من تاريخ الإلحاد فى الإسلام .
- ٣ — شخصيات قلقة فى الإسلام
- ٤ — الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى
- ٥ — أرسطو عند العرب
- ٦ — المثل العقلية الأفلاطونية
- ٧ — منطق أرسطو (٣ أجزاء)
- ٨ — شهيدة العشق الإلهى (رابعة العدوية)
- ٩ — شطحات الصوفية (أبو يزيد البسطامى)
- ١٠ — روح الحضارة العربية
- ١١ — الإنسان الكامل فى الإسلام
- ١٢ — التوحيدى : الإشارات الإلهية
- ١٣ — مسكويه : الحكمة الخالدة
- ١٤ — فن الشعر لأرسطو طاليس وشروحه العربية
- ١٥ — الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الإسلام
- ١٦ — أرسطو طاليس : فى النفس (مع « الآراء الطبيعية » لفلوطرخس
وكتاب « النبات » ، ثم « الحس والمحسوس » لابن رشد)
- ١٧ — ابن سينا : عيون الحكمة
- ١٨ — ابن سينا : البرهان (من « الشفا »)
- ١٩ — الأفلاطونية المحدثة عند العرب

(ج)

- ٢٠ — أفلوطين عند العرب
٢١ — المبشر بن فاتك : مختار الحكم
٢٢ — فلهوزن : الخوارج والشيعه
٢٣ — أرسطو طاليس : الخطابه
٢٤ — ابن رشد : تلخيص الخطابه
٢٥ — مخطوطات أرسطو في العربية
٢٦ — مؤلفات الغزالي
٢٧ — مؤلفات ابن خلدون
٢٨ — أرسطو طاليس : في السماء والآثار السلوية
٢٩ — حازم القرطاجني وأرسطو طاليس
٣٠ — رسائل ابن سبئين
٣١ — دور العرب في تكوين الفكر الأوربي
٣٢ — أرسطو طاليس : الطبيعة (بشروحه العربية القديمة)
٣٣ — ابن سينا : فن الشعر (من « الشفا »)
٣٤ — الغزالي : فضائح الباطنية
٣٥ — رسائل الإسكندر الأفروديسي
٣٦ — أسين بلايوس : ابن عربي

(د) ترجحات

الروائع المائة

- ١ — أيشندورف : من حياة حائر باثر

(٤)

- ٢ - فوكيه : أندين
- ٣ - جيته : الديوان الشرقى
- ٤ - بيرن : أنشيلد هارولد
- ٥ - جيته : الأنساب المختارة
- ٦ - برشت : دائرة الطبشير القوقازية
- ٧ - ثربنتس : دون كىخوته (في ٤ أجزاء)
- ٨ - دورنمات : علماء الطبيعة
- ٩ - مسرحيات لوركا : ١ . يرما - عرس الدم - الاسكافية العجيبة .
- ١٠ - مسرحيات برشت : ٢ . الأم شجاعة وأولادها - الإنسان الطيب فى متسوان
- ١١ - ايونسكو:الدرس - فتاة للزواج

* * *

اشميتسر : فلسفة الحضارة
بنروبي : مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة فى فرنسا
ج . ب . سارتر : الوجود والعدم
رينيه ويغ : الفن والنور وقراءة اللوحات

فهرس الكتاب

صفحة	
٤١ — ١	تصدير عام
٤١ — ١	الألم الناصح
	المشكلة النفسانية في تشاؤم شوبنهور (٢ — ٤) — الفيلسوف
	والسياسة (٥ — ١٥) — جيته وشوبنهور (١٥ — ٢١) —
	شوبنهور وأمه (٢١ — ٢٣) — شوبنهور والمرأة (٢٤ — ٢٥) —
	المخطأ في وضع المشكلة (٢٦ — ٣٠) — الفكريون والوجوديون
	(٣٠ — ٣٥) — حل المشكلة (٣٥ — ٤١) .

العالم امثال

١١٤ — ٤٣	ثقب الوهم
	مشكلة الذات والموضوع من ديكارت حتى كنت ^٣ (٤٤ — ٥٢) —
	مذهب كنت النقدي (٥٢ — ٥٥) — « الشيء في ذاته »
	عند كنت ، وتقد هذه الفكرة عند أتباعه (٥٦ — ٦١) نقد
	شوبنهور لها (٦١ — ٦٤) — شوبنهور وأفلاطون
	(٦٤ — ٦٦) — وضع مشكلة المعرفة من جديد (٦٦ وما
	يلها) — « العالم من امثال » ومعاني هذه العبارة (٧١ وما يلها) —
	مبدأ العلة الكافية (٨٢ وما يلها) — المادة (٨٤ — ٩٠) —
	مبدأ المعرفة (٩١ — ٩٤) — مبدأ الوجود (٩٤ — ٩٥) —
	مبدأ الفعل (٩٥ — ٩٧) — الحساسة والذهن (٩٨ —
	١٠١) — التصور والعيان (١٠٢ — ١٠٥) — مصادر مذهب
	شوبنهور (١٠٥ — ١١٤) .

— و —

الخلاص بالفن ١١٥ - ١٧٩

الصور الأفلاطونية (١١٥ وما يليها) — تأمل الصور
والعرفة التزيية (١١٧ — ١٣٠) — الصيفية (عند شوبنهور :
(١٣٠ — ١٣٨ ، عند من تقدموه : ١٣٩ — ١٤٨) —
نظرية الفن (١٤٩ وما يليها) — ماهية الجمال (١٤٩ — ١٥٦)
والجمال (١٥٦ — ١٥٨) — الجميل والجليل عند كنت
(١٥٧ — ١٥٨) — التبريد عن الجميل والجليل في الفنون :
فن انعام (١٥٩ — ١٦٢) ، فن البساتين (١٦٢ — ١٦٣) —
فنون التجسيم (١٦٣ — ١٦٧) — الشعر والمسرح (١٦٧ —
١٧٤) — الموسيقى (١٧٤ — ١٧٦)

العالم إرادة

إرادة الحياة ١٨٢ - ٢١٩

الذاتية والموضوعية (١٨٢ — ١٨٥) — البدن تعبير عن
الإرادة (١٨٥ — ١٨٦) — الإرادة هي « الشيء في ذاته »
(١٨٦ — ١٩٠) — الإرادة والعقل (١٥١ — ١٩٤) —
المذهب الارادى (١٩٤ — ٢١٣) — النزعة إلى اللامعقول
(٢١٣ — ٢١٧) — وحدة الوجود (٢١٧ — ٢٢٠) —
التحقق الموضوعى للأداة (٢٢١ — ٢٢٦) — مشاققة الإرادة
لنفسها (٢٢٧ — ٢٣١) — إرادة الحياة (٢٣١ — ٢٣٦) —
مشكلة الموت (٢٣٦ — ٢٤٥) — نظرية الحب (٢٤٥ — ٢٥٦) .

الوجود خطيئة ٢٥٧ - ٢١٩

التمرد على الوجود عند بيرون وأبي العلاء والحيام ودثني (٢٥٧ —
٢٦٦) ، عناصر التشاؤم عندهم (٢٦٦ — ٢٧١) — التشاؤم
الفسانى عند ليوردي (٢٧١ — ٢٧٣) — تشاؤم شوبنهور

— ز —

(٢٧٣ — ٢٧٥) عناصر هنا التشاؤم (الزمان أصل الفناء :
٢٧٦ — ٢٧٧ ؛ اللذة سلبية : ٢٧٨ — ٢٧٩ ، فساد
الإنسان : ٢٨٠ — ٢٨٢ ؛ لا أمل في صلاح الإنسان : ٢٧٩ —
٢١٩) — علة الشر لإرادة الحياة (٢٨٢ — ٢٨٤) —
سبيل الخلاص (حرية الإرادة : ٢٨٥ — ٢٨٧ ؛ الخلاص
بالحب وإنكار الذات : ٢٨٨ — ٢٩٠ ؛ في العدم
الخلاص ٢٩١)

تصدير عام

إلى من أرهقهم القلق الخصب وهم يتلمسون معنى للحياة؛ فأبوا
منها حائرين بعد أن أقبلوا عليها أول الأمر مؤمنين؛

إلى من توّسموا الشر في أصل الكون، ففزعوا إلى عقولهم
متسائلين؛ لكنهم رُدُّوا عن باب السر خائبين متلهفين؛

إلى من ينشدون الخلاص، بعد أن برّح بهم اليأس، فلم
يَهِنُوا ولم يولوا إلى الأوهام هاربين، بل أمعنوا في التنقيب عن
أسرار الوجود دائبين مُطاردين؛

إلى من آمنوا بأن القداسة والسمو إنما ينبعان من فيض الآلام
وَيُبَسِّغَانِ ارتقاءً لَسُلَّمِ الأحزان ويزكوان بالسُّقْيَا من غيث
الدموع؛

إلى هؤلاء جميعاً أقدم هذه الصورة الثالثة من صور الفكر
الأوربي. فإنهم فيها واجدون روحاً ناصعة سامية استطاعت تأمل
العالم من وراء الستار بعمق وهدوء؛ فكشفت عمداً يتضمن من
سرِّ سرطان ما أذاعته في صراحة ما أقساها على نفوس الحالمين

(٥)

الواهمين . وإذا بالعالم الخارجى بأسره قد بدا أمام عينها المرهفة
ُحلمًا ، قد يكون رائعا ، ولكنه حلم على كل حال ، حلم أبدعته
الذات فى امتثالها ، ولا وجود له خارج هذا الامتثال . ثم لم تسكن
إليه ، بل راحت تتلمس جوهر الوجود الحقيقى ، فوضعت يدها
عليه ، وكان إرادة الحياة . وما لبثت أن جعلت منها مركز الإشعاع
فى نظرتها إلى الوجود ؛ فبدا كل شىء تحت ضوءها ناصعا كالمرآة .
إنها إذن مفتاح لغز الوجود ؛ ولكنها عمياء هوجاء منساقه فى
اندفاع شديد إلى غير ما هدف ولا مقصود ؛ تقف بالحرمان
ومن الحرمان ميلاد الآلام . فالوجود إذن معناه الألم .

فهل من سبيل إلى الخلاص ؟

أجل ! بالفن خلاص من الأوهام ، وفى الزهد تحرير من نير
الإرادة . فهللوا إلى عالم الصور نستروح فيه الحرية من قيود
الأوهام ، ونخلق لأنفسنا فيه عالما يرفل فى فيض من الجلال والجمال
ينسينا لحظة عالم الامتثال . ولكنها لحظة عابرة ، وياحسرتاه ! ،
سرعان ماتوقظنا من حلمها جلجلة نواقيس الواقع الجبار . فن لنا
إذا بهذا الخلاص ؟

(يا)

لا خلاص في الحياة إلا بالخلاص من الحياة : بأن تنكر فينا
الإرادة ، فنسمو إلى مقام اللطف والقداسة ، هناك حيث تختفي
الذات المريدة وينقضى الشعور بالثنائية وتتجلى سُبُحات الفناء ،
فنجيا حينئذ في عدم البقاء ؛ فما البقاء إلا في الفناء ، الذي يصعد إليه
للمرء على جناح الرحمة للمفضية إلى الوحدة ، والحنان المنتظم أنحاء
الكون والمكان .

صورة تلك مروعة ، ولكنها رائعة معاً : تعلوها الظلمة ، لأنها
صادرة من الأعماق ؛ وتسرى فيها الرعدة ، لأنها قشعريرة قلب
ينبض وجوهر الوجود ؛ وفيها مرارة قاسية ، لأنها سُتِّيت من
صاب العبرات المسفوحة من عين الحياة .

وهي من أجل هذا خصبة حتى التناقض . تستطيع العين أن
تلمح فيها لون اليأس الصامت الملمح المنتهي عادة بالالتحار ، فتهتف
النفس مع جوقة « أوديب » : طوبى لمن لم يولد ؛ ثم طوبى لمن
يسرع في الرحيل ، إن ولد . وتستطيع أيضاً أن تعود منها بالإقبال
على اللذات والمعكوف على الشهوات ، نشداناً للسلوى في فردوس
الكروم ، فتقول مع الخيام : اسكب الصهباء على نار الهموم قبل
أن تذهب إلى القبر صفر اليدين ؛ فإنك لا تدري من أين أتيت ،

(ب)

ولا تعلم إلى أين تذهب . وقد ترى فيها قوة دافعة إلى انضال
وتوكيد الذات والعلاء بالحياة ، فتصيح بأعلى صوتها : أهذه هي
الحياة ؟ إذن هاتها مرة أخرى ! إن العالم عميق في ألمه ولكن
سروره أشد عمقا من ألمه ، كما نادى نيتشه . وقد تجد فيها ما يهيب
بها أن تعلق إلى جناب القداسة حيث تحيا حياة الفناء على قمة النرّافانا ،
قمة العدم الأعلى ، التي يلوذ بها بوذا في صمته الرائع .

ولسلك أن يفهمها كما يريد ، وأن يستخلص من النتائج منها
ما يشاء . أما أنا فأريدها لشيء واحد : هو أن أحيا الوجود
روحياً بعمق .

مايو سنة ١٩٤٢

عبدالرحمن برقي

الألم الناصع

« إذا كان الألم يسلب الإنسان
القدرة على الكلام ، فقد وهبني الله
ملكة التعبير عما أشعر به من ألم »

بينه

في عينيه السافذتين حزن لم تفصح عنه الدموع ؛ وفي فمه المنطلق
 ألم لم يذعه الصراخ ؛ وفي أسارير وجهه المتوترة أسقام لم يكشف
 عنها الشحوب ؛ وفي ثُنَيَات جسمه البارزة عذاب لم تنشر عنه
 القشورية . إنما هو الحزن تعالى وتسامى ، فصار هدوءاً ورزاقاً ؛
 والألم عميق وتغور ، فاستحال وضوحاً ونصاعة ؛ والسقم استقر
 وتركز ، فأضحى طبيعياً مغروراً ؛ والعذاب قسا وتجلد ، فكان
 تجلياً وحلوا

تلك هي الصورة الرائعة التي يتقدمها لنا الفنان اليوناني الذي
 عمل تمثال لاؤكوز ، وقد التف حول جسمه القوي الغض تينان
 هائلان عانقاه من أخمص القدم حتى أعلى الرأس ، وأشاعا السم حاراً
 يسرى في جميع الجسم ، وضغطا عليه بكل ما أوتيا من قسوة وقوة ،
 فلم يكن من شأن هذا كله أن يسلب الروح هدوءها ونصاعتها ، أو
 أن يشير في الوجدان غموضاً واضطراباً ، أو أن يدع العقل خارجاً
 عن طوره . بل ظلت الروح تتأمل عالمها الإلهي في عمق ووضوح ،
 واستمر الوجدان يكشف الأسرار في حدّة ونفوذ ، والعقل يميز
 تصوراته في دقة وثبات .

وعلى نحو من هذه الصورة تبدت أمامي شخصية شوينهور .
 فالنقاد مختلفون فيما بينهم أشد الاختلاف حول طبيعة هذه الشخصية
 ومدار اختلافهم على : أي الفريقين من العباقرة نضع شوينهور فيه :

فريق الوجوديين أو فريق الفكريين ، إن صح هذا التعبير؟ أهو
 ممن تصدر أفكارهم عن تجارب حيّوها ووجدانات عانوها ، أم
 من أولئك الذين أنتجوا أفكارهم فوق قمة العقل الباردة ؟

قال قوم هو إلى ثاني الفريقين ينتسب . فالرجل لم يحى شيئاً ،
 أو إن حى فعكس ما قال . وإنما كان ، على حد تعبير زعيم هؤلاء ،
 ونعني به كرونوفر ، كأحد النظارة في ملاعب التمثيل ينظر بمنظار
 المسرح ، وهو جالس مستريح على كرسية الوثير ، مأساة هذا العالم
 المملوء بالآلام والأحزان . أمهم ، أي النظارة ، فنسوا المأساة أو
 كادوا عند اللقصف ؛ أما هو فكان الوحيد من بينهم جميعاً الذي
 تتبع المأساة بعناية كبيرة وانتباه شديد ؛ وأخذها في شيء من
 الجد غير قليل ؛ ثم ذهب ؛ بعد أن فرغ التمثيل ، إلى داره واستعرض
 ما رآه في شيء من التأثر حقاً ، لكنه تأثر يمازجه الرضا والغبطة .
 قال بالتشاؤم وجعل منه محوراً لنظرة في الوجود ، وتغنى به ما شاء
 التغنى ، لكنه لم يحى التشاؤم ولم يعانه . إنما كان الشاعر الذي
 وضع المأساة أو الممثل الذي عرضها ، دون أن يكون الشخصية الأولى
 فيها وبطلها ؛ بل ولا أحد أفرادها البارزين ، فقد كان في حياته
 أبعد ما يكون عن البطل أو ما يشبهه السطل .

ولم لا ؟ يقول لنا أصحاب هذا الرأي . إن ابن الجمعة هذا . فقد
 ولد شوبنهاور في يوم الجمعة ٢٢ فبراير سنة ١٧٨٨) لم يعيش

ابن الجمعة حقاً (أى ابن الأحزان ، إشارة إلى الجمعة الحزينة) ، وإنما عاش ابن الأحد (يوم الحياة الناعمة) : عاش عيشة راضية ناعمة فيها من السعادة والمواهب واليسر الشئ الكثير ؛ منذ اللحظة الأولى التى أتى فيها إلى الوجود . فقد كان أبوه ثرياً كالحسن ما يكون الثراء ؛ لأنه كان صاحب مصرف كبير ؛ فأتاح للأسرة كلها أن تحيا طوال بقائها حياة رخية رافهة ؛ وهياً لابنه تربية ممتازة حقاً ؛ لم يكده تهباً مثلها لعبقري آخر من العباقرة الذين عرفهم التاريخ . ويكفى أن تعلم أنها كانت تربية لقنها إياه العالم الفسيح والطبيعة الحية ؛ فى حرية مطلقة و متعة مطلقة أيضاً ؛ وكان أستاذه الأكبر فيها اتصالاً حياً ؛ بأفكار حية ؛ فى صور متعددة تلقاها حية ؛ من أفواه الأوساط والبقاع العديدة التى قضى حياته الأولى متنقلاً بين أرجائها . وهل كالأرحلات أستاذ ؟ وعلى الرغم من أن أباه أراد منه أن يشتغل بالتجارة ؛ وسماه من أجل هذا باسم دولى لاتتغير كتابته باختلاف الدول ، هو « أرتور » فإن شوبنهاور قد استطاع أن يتابع الدراسة التى كان يشعر بالميل إليها ، ونعنى بها الدراسة النظرية ؛ ولم يتحول عن رسالته هذه إلا لمدة قصيرة جداً ، إرضاء لهذه الرغبة الأبوية ؛ لأنه كان يجلب هذا الأب كل الإجلال . وهكذا استطاع أن يدرس حراً من كل قيد . فتابع دراسة الطب والعلوم الطبية ثم الفلسفة فى

جامعتي جيتنجن ثم برلين ، وقد جذبته إلى هذه الجامعة الأخيرة فشته ، الذي ظل يشعر مع ذلك نحوه طوال حياته بكرهية شديدة . وكان هذا الرضاء المادى سبباً أيضاً في الحياة التي חיها بعد أن حصل على إجازة الدكتوراه الأولى : فلم يكن مضطراً إلى البحث عن عمل يهيئ له سبل الرزق والعيش ؛ بل ظل حراً من قيود العمل ، مكرساً نفسه تمام التكريس لتحقيق الغاية التي شعر بأن وجوده موجه نحو أداؤها . وإذا كان قد قام بالتدريس حيناً من الزمان قصيراً ، فقد كان ذلك بدافع الرغبة في إذاعة مذهبه وتلقين مبادئه للشباب ؛ حتى إذا ما فرغ من إذاعة هذا المذهب ، شعر بأن مهمته في التدريس قد انتهت عندهذا الحد ، فعدل عنها إلى العيش عيشة خالية ، حتى اللحظة الأخيرة .

وكان من شأن هذه الحرية أيضاً أن يترتب في الإنتاج ، فلا يدفعه دافع خارجي مهما كان شأنه ، سواء أكان الدولة أم الكنيسة أم المادة ، إلى الإسراع في التأليف ووضع الكتب حسب الطلب . بل وضع لنفسه مبدأ لم يحد عنه مرة واحدة ، هو أن لا يقول شيئاً إلا إذا كان لديه ما يقوله وعلى النحو الذي يود أن يقوله . فاستطاع عن هذا الطريق أن يحرر البدن أيضاً لا الروح فحسب ، كما لا حظ نيتشه .

فلا أول مرة في تاريخ الفكر الألماني تحرر البدن ، إلى جانب

الروح ، من كل قيد . فليبتس لم يكن حرّاً في بدنه ، وأخشى أن أقول أيضاً في روحه ، لأنه كان خاضعاً للدولة وخاضعاً للكنيسة معا : زج بنفسه في السياسة الأوربية فاكتوى بنارها ، شأن من يفعل فعلة من المفكرين دائماً ، ونصب نفسه بوقاً من أبواق الكنيسة فكان عبداً لها غير حر التفكير . وكنت ، وإن لم يخضع لواحد من هذين التينين الخيفين ، فإنه خضع لشيء آخر صار من بعد ، خصوصاً في أيام هيغل وعنى يده ، تيناً لا يقل خطراً كثيراً عن التينين السابقين وتعنى به الجامعة . فقد كانت هي الأخرى في طريقها ، في ألمانيا ، إلى أن تصبح كجامعة السوربون في فرنسا في أواخر العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث ، أي مصدراً لسلطة من أشد السلطات قسوة في مصادرة حرية الفكر . وهيغل جمع في صدره كل هذه القيود : قيود الدولة والكنيسة والجامعة ، فاختنق أو كاد تحت نيرها الشديد الذي لا يرحم . وكان صوت حرية الفكر خافتاً ، إن لم يكن معدوماً ، وسط هذه الأصوات الصاخبة الجوفاء التي أقدمت على حنجرة هيغل إقحاماً . ولعل هذا أن يكون أحد الأسباب المهمة التي دفعت شوبنهاور إلى الثورة على هيغل ، وبغضه كأعنف ما يكون البغض الأزرق ، أو هذا ما يقوله شوبنهاور نفسه على كل حال .

أما شوبنهاور فقد كان حرّاً كأوسع ما تكون الحرية بإزاء

هذه السلطات الثلاث : فلم يحفل بالسياسة على وجه الإطلاق ؛ بل ظل دائماً نصير النظام ؛ ولهذا أبغض الثورة التي قامت في ألمانيا سنة ١٨٤٨ لأن فيها إخلالاً بالنظام ؛ وبلغ من كراهيته للثأرين أن ساعد الجنود النمساويين على إخماد الثورة ؛ وجعل الجزء الأكبر من ثروته التي تركها من نصيب جرحى هؤلاء الجنود . ولم يكن ذلك منه حباً في الدولة ، وراحة بالها ، فهو لم يكن يعنيه من راحة الدولة شيء ؛ وإنما كان بدافع حبه للنظام ، أو بعبارة أصرح حبه لراحته الخاصة وبغضه لكل ما يخرج عن عدم اكترائه المطلق للسياسة ومسائلها . وضرب بالنعرة الوطنية عرض الحائط ، لأنه جعل من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وطناً آخر إلى جانب وطنه الأصلي ، ألمانيا . وهو في هذا كان يمثل النزعة العالمية التي سادت الفكر الألماني في نهاية القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، والتي كانت إحدى المميزات الرئيسية لنزعة التنوير التي اعتنقها هذا الفكر طوال هذه الفترة . فكل ما يجب على المفكر أن يطلبه من الدولة هو أن يقول لها : « لا تسيني » ؛ وكل ما يجب على الدولة أن تطلبه من للمفكر أن تقول له : دعني أسلك سبيلي كما أريد . وسبيل الدولة الوحيد أن أن تحمي من فيها في الداخل والخارج ، داخلياً وخارجياً ، وأن تحميهم أيضاً من حماها هي ؛ وإلا أخطأت غايتها وكان في هذا الخطأ خطر عليها هي نفسها وعلى الآخرين . وهذا الرأي في السياسة ، كما يلاحظ

نيتشه ، رأى ممتاز يؤذن بسموع على عند للمفكر لأن المفكر الذى يكرس نفسه للإلهام الفكرى الفلسفى لا يبقى مجالاً فيها لأى إلهام سياسى ؛ فخلق به إذن أن يدع السياسة والحزبية ، لأن كل تدخل فى السياسة من جانب غير الموهوبين سياسياً فيه للدولة إفساد شديد ؛ وماجر الويل على الدول إلا اشتغال الهواة بالسياسة واعتقاد كل فرد أن له الحق فى الاشتغال بها والزج بنفسه فى تيارها . ولكن هذا معناه أيضاً أن المفكر يجب ألا يتردد لحظة واحدة فى أن يأخذ مكانه وسط الصفوف فى الجبهة ، حين يرى وطنه فى خطر حقيقى : فهذا واجب أولى لاصلة له بالسياسة

وإذا كان هذا واجب المفكر نحو الدولة ، فواجبها هى أن تدعه وشأنه ، فلا تحفل بأى أمر من أموره . فى اهتمام الدولة بالفلسفة خطر عليها ، أى الفلسفة ، ما بعده خطر . وما يسمونه « حماية الدولة » للفلسفة هو فى الواقع حكم على الفلسفة بالإعدام : لأن الفيلسوف سيصير حينئذ عبداً من عبيد الدولة يأتمر بأمرها ، وينتكر لحسابها وعلى النجوى الذى تهواه ، فيجعل الدولة فوق الحق ، أى يقضى على كل فلسفة . كما أن الدولة مصدر ثبات ؛ وأبغض شىء لديها التغيير والصرورة ، فستكون إذن عدوة عنيدة لكل جدة فى الفكر وكل خلق وإبداع ، أى أنها ستكون خصماً لطبيعة الفلسفة نفسها وجوهرها الحقيقى ، وهو الخلق المستمر والجدة الدائمة فى النظر إلى الوجود ،

إن كانت فلسفة حياة حقاً. هذا إلى أن الدولة لا تحمي من الفلسفة إلا القليلة
الخطر ، المسألة ، أي أنها لا تحمي إلا أخطاها وأدناها وأجدرها بأن
لا تسمى باسم الفلسفة ، لأن الفلسفة الحقة هي الفلسفة الخطرة ،
هي تلك التي « تؤذي » وتجرح ، ومعنى هذا أنها تحمي الفلسفة
الوضيعة وتعمل على القضاء على الفلسفة الممتازة . وهذا أشد خطر
يمكن أن نتعرض له . والعلّة في هذا أن الدولة لا يمكن أن تعيش
إلا على طائفة من المبادئ السهلة العامة الشعبية ، ولا تسمح بالخروج
عليها أو تعمقها والبحث فيما وراءها . ولهذا يقول نيتشه : إن
الفيلسوف الذي يرضى لنفسه أن يكون فيلسوف الدولة يجب أن
يرضى لنفسه أيضاً أن ينظر إليه باعتبار أنه أنكر على نفسه
حق البحث في الحقيقة كلها وبكل ما تحتوى عليه من أسرار . كما أن
الدولة إذا جعلت لنفسها فلسفة رسمية ، فسيكون لها وحدها الحق
في اختيارها ، أي أن الدولة ستضع نفسها موضع الحاكم الذي
يستطيع أن يميز بين الفلسفة الجيدة والفلسفة الرديئة . ومتى كانت
الدولة قادرة على شيء من هذا ! إنها لا يمكن أن تختار ، حتى
لو سلمنا بأن في مقدورها التمييز ، إلا تلك التي تلائمها وتتفق مع
الأغراض التي تتوخاها ، سواء أكانت هي الجيدة أم كانت الرديئة ،
فلا يعنيه من هذا شيء . بل لعل الأصح أن يقال إن الذي
يعنيها دائماً أن تختار أرواً أنواع الفلسفة ، لأن في هذا النوع

ما يرضى حاجتها غالباً إن لم يكن دائماً . يضاف إلى هذا كله أن
الدولة تخصص فلاسفتها المختارين بمراكز معينة ، عليهم فيها أن يؤدوا
عملاً نحو طائفة من الناس ، بأن يكونوا أساتذة في الجامعة مثلاً .
فقل لي بربك من هو هذا الفيلسوف الذي يستطيع أن يقول لطلابه
شيئاً جديداً كل يوم ؟ أو لآتراه مضطراً في مثل هذه الأحوال
أن يتحدث عما لا يعرف ، أو أن يقول أشياء من الخطر أن يتحدث عنها
أمام جمهور من المستمعين ؟ وهذا عينه أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت
ش. بنهور إلى الحملة على الفلسفة الجامعية ، وأساتذة الفلسفة في الجامعة
في ز. الجامعة منشأة الدولة ، فتضطر إذاً إلى الخضوع لما تفرضه
عليها الدولة ، ولما هو سند رسمي فيها . فعلى فيلسوف الجامعة أن
يؤمن بالمعتقدات السائدة ، وأن يحاول تبعاً لهذا أن يوفق بين
هذه المعتقدات وبين ما يؤدي إليه تفكيره الحر من نتائج . وسيرى
نفسه مضطراً حينئذ إلى أن يختار واحداً من اثنين : بين الأخذ بما يفرض
عليه من معتقدات فيبقي في الجامعة ، أو بين أن يفكر تفكيراً حراً مطلقاً
من كل قيد فيكون حينئذ بالخروج منها فإن أخذ بالأول فلن يكون بعد
فيلسوفاً . ذل لا قيمة لمن لا يفكر فلسفية لمن لا يفكر إلا حسب الأوضاع
والتقاليد . وإن أخذ بالثاني كان ذلك مشروطاً بعدم البقاء بالجامعة
وأياماً كذا ، فالبدء الذي يستخلص من كلتا الحالتين هو أنه لا يمكن

للرء أن يجعم فى نفسه بين الفلسفة الحققة وبين التدريس بالجامعة . وإن فىما حدث لفشته لعبرة ، وأى عبرة ! فقد غص النظر عن معتقدات الدولة وهو يضع مذهبه الفلسفى الخاص ، فكان جزاؤه الطرد من الجامعة ونقمة الشعب عليه . ولكى يتمكن من العود إلى الجامعة اضطر إلى تعديل مذهبه بما يتلاءم مع هذه المعتقدات : فوضع مكان « الأنا المطلق » « الله للعشوق » ، وصبغ مذهبه كله بصبغة مسيحية ظهرت على وجه التخصيص فى كتابه : « التنبيه على الحياة السعيدة » .

وئمة حالة أخرى أو ضح من حالة فشته ، لأن الخضوع فىما كان لهذه السلطات الثلاث كلها ، فكانت نتيجتها أسوأ النتائج . فهما اتهم المرء شوبنهور بالغلو والتحيز وعدم النزاهة فى التقدير بإزاء هيكل ، فإنه لن يستطيع أن ينكر مطلقا باجره عليه خضوعه لهذه السلطات من نتائج شنيعة . فمذهبه فى الدولة ، وهو أنها الغاية العليا من الحياة الإنسانية كلها ؛ وما يستلزم ذلك من خضوع مطلق لها وفناء تام فىها ، بوصفها « الكائن العضوى الأخلاقى للمطلق الكمال » — مذهب لعل الأرجح أن يقال إن هيكل قد اضطر إلى القول به اضطراراً إرضاء لرغبات الدولة وتعلقاً لسلطانها . ومثل هذا يقال كذلك عن موقفه بإزاء الكنيسة . فالمرء لا يستطيع هنا إلا أن يشعر بالأسف الشديد على تورط هيكل هذا التورط الشنيع .

وليس هذا مقصوراً على ألمانيا وحدها . ففي نفس الوقت الذي كان فيه هيجل يعاني هذه المهانة كان يعاني مثلها فكتور كوزان في فرنسا . ومن منا لا يذكر هذه النعمات المؤثرة التي بكي بهارينان على حظ فكتور كوزان وكوفييه في مقدمة كتابه « ذكريات الطفولة والشباب » ؟ لقد أفسدت الدولة عبقرية كوفييه ، وخنقت روح كوزان المتوثبة الحادة بمساومات حقيرة وتوفيقات وضيعة ؛ وفرضت الفلسفة الجامعية على الفكر الفرنسي ، فسلبته كل حرية وكل إبداع وأخرت تقدمه عشرات السنين .

وهنا قد يعترض علينا بمثال كنت : فقد كان الرجل أستاذاً في الجامعة ، وكان كذلك ممن حتمهم الدولة ، ومع ذلك لا يستطيعون أن تنكروا أنه كان فيلسوفاً من الطراز الأول ، بل ومن أعظم الفلاسفة النادرين الذين عرفتهم الإنسانية ، إن لم يكن أعظمهم جميعاً إلى جانب أفلاطون . والرد على هذا القول بين يسير فلو نقول لهم إنه من نوع الشواذ التي تؤيد القاعدة ، بل سنقول لهم إن حالة كنت تختلف عما نحن بصدد من حالات ، أولاً ؛ وثانياً ، قد كان هذا الوضع سبباً لإحداث شيء من الفساد غير قليل في مذهب كنت . فالرجل قد وجد في ظرف لم يتحقق إلا نادراً جداً في التاريخ ، وهو أن الذي حماه كان فيلسوفاً ، إذ كان كان على العرش آنذاك فريدرش الأكبر ، ولولا هذا لما استطاع كنت أن يخرج كتاباً مثل « نقد

العقل المجرد . « وأصدق شاهد على هذا أنه لم يكد هذا الملك .
 الفيلسوف يموت ، حتى شعر كنت بخرج مركزه ، ووقع في
 خصومة عنيفة مع الحكومة الروسية . ولما لم يكن متأهباً لهذا
 النضال وغير مستعد للاستمرار فيه ، نظرألتقدم سنه ، فقد اضطر
 إلى المهادنة والتسليم . فساوم ، لكن على حساب مذهبه . فأخرج
 للناس طبعة ثانية « لنقد العقل المجرد » شوه فيها مذهبه الأصلي
 وقص من أجنحته . فجاء متناقضاً مع فكره الحقيقي وأكثر من
 هذا : كان على الرغم من هذا التسليم الشائن في خطر من أن يفقد
 منصبه بالجامعة ؛ لدرجة أن أحد أصدقائه عرض عليه أن يدع الجامعة
 وينزل ضيفاً دائماً عنده . ومعنى هذا كله أن ظرف كنت كان في
 البدء نادراً شاذاً ؛ حتى إذا ما انقضى هذا الظرف ، اضطر إلى أن
 يتورط في شيء مما تورط فيه من يحرص على منصب الجامعة ويعمل
 على إرضاء السلطان . يضاف إلى هذا أيضاً أن كنت لم يكن في
 محاضراته يدرس مذهبه الخاص ، بل فصل تمام الفصل بين كنت
 الفيلسوف ، وكنت الأسناذ . وشتان ماها فإنه لن يفترق حينئذ
 في شيء عن أي محصل لمعلومات قديمة ميتة يلقها على المستمعين .
 جامدة ميتة كذلك . وأحسن ما يقال عنه حينئذ إنه عالم قدير :
 في الآثار القديمة أو الفيلولوجيا أو التاريخ ؛ لكنه لا يمكن أن
 ينعت بأنه فيلسوف ، كما لاحظ نيتشه .

فيجب أن يفرق إذاً بين رجلين : رجل يحيا « من أجل » الفلسفة ، ورجل يحيا « من » الفلسفة . الأول قد اتخذ الفلسفة غاية وكرس نفسه من أجل تحقيق هذه الغاية ، والآخر عدها وسيلة من وسائل الرزق ، لا تفرق في شيء عن أية وسيلة أخرى من وسائل العيش ، ولا شيء أضر على الفلسفة من هذا النوع الأخير . فهو النوع الذي عرف سقراط شره ، ونعته باسم السفسطائي ، وأثار عليه حملته الشعواء المعروفة حتى ملأ الدنيا سخطاً عليه وازدراء له ، وشره الأعظم صادر عن أنه يحيل الغايات إلى وسائل ، والغايات تطلب لذاتها ، أما الوسائل فتطلب لما تؤدي إليه . ولا مجال للتمييز بين الوسائل بعضها وبعض من الناحية الذاتية ، وإنما تميز على أساس كونها أسرع وأسهل في تحقيق الغاية ، أعنى أنه ليس لها وجود حقيقي على وجه الإطلاق ، بل وجودها وجود مستعار ، وليس أشنع من هذا نوعاً لكيفية الوجود .

كل هذه عيوب شنيعة يتصف بها كل من سلك «سبيل الفلسفة الجامعية وصار للفلسفة أستاذاً ، وهي عيوب استطاع شوينهور أن يبرأ منها كلها لأنه لم يسلك هذا السبيل ، ولم يضطر إلى سلوكه ، لأنه لم يكن في ظروف حياته المسادية ما يحمله على شيء من هذا الاضطرار . فلم لا يهنأ بالاً إذاً ، وقد هياً له القدر هذا كله ؟ ثم هياً له في تربيته أيضاً عاملاً آخر لا يقل أثراً عما أسلفناه من

عوامل فعلى الرغم مما اتصفت به أمه من حذقة فكرية وادماء
روحى ، وعلى الرغم من سوء المعاملة التى لقيها من جانبها حتى لم
يستطع الواحد أن يحتمل بقاء الآخر إلى جانبه إلا مدة قصيرة جداً ،
وعلى الرغم أيضاً من الإنكار المزرى الذى قابلت به الأم ، الأدبية
المتأزفة ، عبقرية الابن وسموه العقلى - ، على الرغم من هذا كله
نستطيع أن نقول إنه كان لهذه الأم الدعوية فضل فى تكوينه الروحى
غير قابل لأن يجحد أو يغمط . فقد كانت على جانب من سمو
العقلى ، حتى استطاعت أن تكون لنفسها مجداً أدبياً خالداً إلى حد
كبير فى تاريخ الأدب الألمانى بواسطة قصصها التى انتشرت فى ألمانيا
انتشاراً غريباً لا يتناسب مع قيمتها فى الواقع ، وكونت حول نفسها
حلقة روحية ضمت فى داخلها أعظم العباقرة الألمان فى ذلك الحين ،
ويكفى أن نذكر اسم جيته على رأسها لكن نعلم أى وسط ممتاز
استطاعت حنه شوبنهور أن تخلقه حولها فى مدينة فيمار التى انتقلت
إليها هى وابنتها آديل بعد وفاة رب الأسرة (فى ابريل سنة ١٨٠٥)
كى تحيا حياتها الفكرية الخاصة فى أعظم جو روحى وجد فى تاريخ
الحياة الروحية فى ألمانيا ، وهو جو دوقية فيمار فى أواخر القرن
الثامن عشر وأوائل التاسع عشر . وكانت لديها القدرة على أن تجمع
حول نفسها فى نديها الأدبى دائرة من الممتازين ، حتى أصبح مقصداً
للأعظم العباقرة فى فيمار . وبهذا المعنى كتبت إلى ابنها تقول له :

« إن الدائرة التي يلتزم شملها حولي في يومى الأحد والخميس لامثيل لها حقا في ألمانيا كلها » ، ولها الحق ، فقد ظل نديها الأدبي لمدة طويلة الندى الوحيد في فيمار ، وذاع صيته في ألمانيا كلها حتى إنه لم يأت زائر على شيء من الأهمية إلى فيمار دون أن يسعى لحضور مجلس هذا الندى ، وأكثر من هذا قد عد في كتب الرحلات من بين الأماكن الجديرة بالزيارة بالنسبة إلى كل زائر لمدينة فيمار .

في هذا الجو الروحى الممتاز استطاع شوبنهور أن يتنفس روحيا وإن لم يستطع أن يتنفس ماديا - كما سنرى بعد قليل - . فقد عرف في هذا الندى الأدبي جيته ، فامتلاً به إعجاباً ، ولم يشعر بمثل هذا الشعور نحو أحد من الذين يغشون الندى غيره ، بل كان على العكس من ذلك يبغضهم جميعاً عدا جيته . وقد لفت نظر جيته إليه لأول مرة بفضل رسالته التي قدمها للدكتوراه الأولى وهى : « الجذر الرباعى لمبدأ العلة الكافية » ، خصوصاً الفصول التي عرض فيها شوبنهور هندسة إقليدس ، وبين كيف تستخرج الهندسة من العيان ، أى تقوم براهينها على العيان ، وكيف أنها لا تستخلص بالبرهان والاستدلال بطريقة واضحة ، كما يشاهد في البراهين الإقليدية المعقدة .

وقد اغتبط جيته بهذا كل الاغتباط ، وأشرك الفتى الصغير في نظريته في اللون ، وأمانه على البحث في هذا السبيل حتى استطاع

شوبنهاور أن يقوم بأبحاث قيمة في هذا الباب « سجلها في كتاب خاص بعنوان : « الإبصار والألوان » ، وفيه أخذ جانب جيته ضد نيوتن فيما يتصل بتركيب الضوء أو اللون الأبيض : فقد كان نيوتن يقول إنه مركب من كل ألوان الطيف السبعة ، بينما قال جيته إنه لون واحد بسيط ، وإلا رأينا ألوان الطيف كلها حينما ننظر من خلال منشور نحو حائط أبيض ، ودافع شوبنهاور بكل حرارة عن نظرية جيته هذه الخاطئة ، حتى أصبح من أشد الناس تعصبا له في هذه المسألة . ولكنه لم يوافق جيته على نظرياته الأخرى في اللون بل نقده نقدا شديدا فيما يتعلق بتفسيره لكثير من الظواهر اللونية على أساس تأثير الوسط المختل في الأضواء للامارة به ، وأقام مقام هذا التفسير الفزيائي تفسيراً فسيولوجيا يقوم على أساس أن الشبكية في العين هي العلة في إحداث كل الألوان ، لأنه رأى أن الألوان في العين وليست في العالم الخارجي ، أي أنها شيء ذاتي وليس موضوعيا . وهذا ما لم يوافق عليه جيته ، لأنه كان هنا موضوعيا واقعيا لدرجة لا يحتمل معها أن يقول بأن اللون لا يوجد إلا بوجود العين . وعلى الرغم من هذا الاختلاف ، فقد ظل الإعجاب متبادلا بين الرجلين . فشوبنهاور رأى أنه لم يفعل في هذه النظرية أكثر من أنه رأى الهرم الكبير الذي بناه جيته في حاجة إلى قبة من الفسيولوجيا ، فأضاف هذه القبة كي يكمل بناؤه وجيته ازداد إعجاب به على الرغم من هذا الاختلاف ، وتابع نموه في غبطة متبناة (٢٢ - شوبنهاور)

بما سيكون عليه الشاب من قدر فى الفلسفة ممتاز . « فإن هذا الشاب ، كما قال ، ينمو ويتقدمنا جميعاً » . فكان موقف الواحد من الآخر موقفاً فريداً عبر عنه جيته أدق تعبير حين قال : « إن الدكتور شوبنهاور ناصرني كما يناصرني صديق مملوء نحوى بالتمنيات والآمال . وإن بينه وبينى لشيئاً كثيراً من الاتفاق ، لكن لم يكن بد من أن يكون بيننا نوع من الافتراق ، فكنا كصديقين سار الواحد بجوار الآخر ثم أصبحنا الآن يود أحدهما أن يتجه ناحية الشمال والآخر ناحية الجنوب - وسرمان ما يغيب كل منها عن نظر أخيه » .

ولكننا لانستطيع أن نتمتع هذه الصلة بين جيته وشوبنهاور بأنها صلة تتلمذ من جانب شوبنهاور لجيته . فعلى الرغم من عبارات الثناء الحار التى تنطق بالإعجاب الشديد الذى حمله شوبنهاور له ، كانت بين كلا الرجلين هوة عميقة ، قدرها جيته منذ البدء ، وإن كان شوبنهاور لم يستطع أن يتبينها بوضوح فى البداية . لأن حماسة الشباب والغرور الذى ملأه من مجرد معرفة جيته ، رب الحياة الروحية فى عصره ، قد حالاً بينه وبين هذا الإدراك . فقد شعر جيته منذ اللحظة الأولى بأن شوبنهاور « من الصعب أن يفهم » ولو أن الكثيرين قد أخطأوا الحكم عليه ، أو هم بالأحرى لم يستطيعوا أن يحكموا عليه جيداً لأن فهمه عسير ، حتى على جيته نفسه . فما

السر إذن في أن فهمه عسير ؟ قد يكون السبب ما أحس به جيته لدى شوبنهاور من ميل إلى تأمل كل شيء من جانبه للظلم العديم القيمة ، حتى إن شوبنهاور حين طلب إلى جيته أن يكتب له في مذكراته كلمة تذكارية كتب له جيته هذين البيتين : « إن شئت أن تنعم بقيمتك أنت ، فعليك أن تجعل للعالم قيمة ». وليس من شك في أن جيته قصد من هذا إلى نقد شوبنهاور في الطريقة التي ينظر بها إلى الأشياء وتنبيهه إلى طريقة أخرى عليه أن ينظر بها إلى العالم ، لكن ليس معنى هذا أن جيته ينكر عليه هذه النظرة . بجيته أيضاً ممن يقولون بوجوب النظر بها أحياناً ؛ وإنما ينكر عليه أن يجعلها نظره الوحيدة ، لأن الازدواج ضروري في كل حياة .

والعلة في أن الصلة لم تكن صلة تتلمذ هي في أغلب الظن أن شوبنهاور كان بطبيعته متمرداً كأعنف ما يكون التمرد ؛ عنيداً كأصلب ما يكون العناد . ومثل هذه الطبيعة لا تعرف التفاني في الأشخاص ، بالغة ما بلغت عظمتهم ، لأن التمرد عنده كان تمرداً على الناس أكثر من أن يكون تمرداً في داخل مملكة الفكر ، كما هي الحال بالنسبة إلى نيتشه مثلاً : تمرد شوبنهاور تمرد مر بارد شكوكي سلبي ؛ بينما تمرد نيتشه تمرد حار إيجابي ، والأول لا يتفق معه التفاني والتعلق بالأشخاص ؛ أما الثاني فيتفاني ويتعلق ، ولكن لينكر بعد قليل ويشور ؛ في الأول مرارة وغيظ ، وفي الثاني حدة

وعنف ، أحدها ، وهو الأول ، ثابت راتب ، والآخر متقلب
متناقض يعيل إلى التنوع والاختلاف . لهذا كان الأول أقرب
ما يكون إلى تمرد الشيخ للسن ، وكان الثانى قريب الشبه بتمرد
الشاب للتوثب .

إنما كانت الصلة صلة إعجاب بعبرى رآه حياً فأنخذ منه نموذجاً
موضوعياً للعبرية ، إعجاب أعوزته الحماسة الحارة فاستحال تأملاً
هادئاً ، وخلا من الحب للموحى والقشعريرة الخصبية فكان إدراكاً
ناصباً فيه شعور بالتقابل والتميز ، لا بالاتحاد والامتزاج ، فهو
أشبه ما يكون إذن بالإعجاب الذى يشعر به الفنان نحو تمثال رائع
من المرمر الناصع . لأن هذا الإعجاب قد خلا فى الواقع من الحياة ،
فلم يستطع أن ينفذ إلى الدم ويسرى فيه فيغذيه ويهب صاحبه قوة
دافعة إلى الإبداع والنمو والإنضاج . وإذا كنا نرى شوبنهاور يكثر
من اقتباس أقوال جيته ومعانيه ، فإنما كان ذلك من أجل التوشية
والتزويق ، لا من أجل التأييد والافتناع النفسى الذى تشاهد
ظاهرتة واضحة عند التلاميذ المتفانين . فلا نتخذ إذن بهذه
الكثرة فى الاقتباس فنمدها دليلاً على التلمذ الصحيح ، خصوصاً
فيا يتعلق بجيته . لأن جيته ، بنوع خاص ، يمتاز من العبارة جميعاً
بأن فى استطاعة كل اتجاه فكرى وكل ميل روحى أن يجد فيه
سنداً للناصره ووثيقة للتأييد ، لأن سعة أفقه وشدة خصبه

الروحي جعلتاه يجمع في داخله بين مختلف الاتجاهات والميول .
وكتبه من هذه الناحية أشبه ماتكون بالكتب المقدسة ،
التي يستطيع كل تيار ديني ، مهما غلا وتطرف ، وتأول وتصرف ،
أن يجد فيها تأييدا لما إليه يذهب وما به يدين .

فلا يدين شوبنهاور إذن لجيته بشيء مما نستطيع أن نسميه
باسم الاخصاب الروحي ، وإنما يدين له في أغلب الظن بهذا الوصف
الدقيق لطبيعة العبقرى الجسمانية والروحية . فقد آخذ من جيته
مثلا كيانيا ، أى متحققا أمامه في الخارج يراه بعينه ، وراح يطبق
صفاته على العبقرى بوجه عام ، حتى ما كان من هذه الصفات
متعلقا بالتركيب الجسمانى .

ثم كان جيته النور الوحيد الذى رآه شوبنهاور وسط الظلام
الذى أحاط بحياته في قمار . فقد كانت حياته في هذه للدينة حياة
حرمة مؤلمة ، بسبب أمه . لأن طبيعة الأم وطبيعة الابن هنا على طرفي
نقيض ، وتقصد بالطبيعة هنا المزاج الروحي العام . فالأم امرأة
متحذلقة كأغلب النسوة اللأئى شدون طرفا من الثقافة الروحية ،
فيها من الغرور الناشز والادعاء القآر الشيء الكثير ، ويعمر عينيها
الزرقاوين ويطفح على وجهها المجلل بشعرها الأسمر الفاتح تقاؤل
أرعن صبغ السطح ولم ينفذ إلى الأعماق ، وصفته هى ببيتين لجيته
« لقد رأيت العالم من خلال نظرات مليئة بالحب ، ففرقت والعالم

في فيض من النشوة والسحر . وكانت في حياتها مفتحة الأعين على ما في الحياة من نعم وملاذ، فأخذت بحظ منها في إقبال مشرق وثقة لا حرج فيها ولا تدقيق . فاستطاعت عن طريق هذه الصفات كلها أن تمثل الأنوثة الخالصة أصدق تمثيل فلا غرابة إذن في أن نرى رجلا مثل جيته يتعلق بها ، ففي مثلها يستطيع أن يجد ما يوازن به الحياة العقلية الخالصة التي يحياها في مملكة الفكر ، وإن كنا لانستطيع أن نفهم لماذا استمر على اتصال بها ، مع ما هي عليه من حذقة وادعاء . ولعل السبب في ذلك أن يكون ما أشرنا إليه من قبل من قدرتها على جمع الصحاب وربطهم برباط وثيق ، فقد كانت لديها ملكة إشاعة الحياة في الحفل الذي توجد فيه وعلى كل حال فقد كانت الصلة بينها وبين جيته صلة صداقة عادية لم يخالطها شيء من الحب ، بل ولا العاطفة الحارة .

وكل هذه الصفات تتعارض تمام التعارض مع صفات ابنها أرتور . فنظرتها إلى العالم على النقيض تماما من نظرتها ، لأنها متفائلة سمعنة في هذا التفاؤل ، وهو متشائم متطرف في هذا التشاؤم . وثقتها بالناس ثقة ساذجة كلها عطف عليهم وحب للاجتماع بهم ، بينما هو يحمل للناس كل بغض ، ويحذرهم أشد الحذر ، ولا يطمئن إلى شيء صادر عن إنسان ؛ وفي نظرتها إلى الأشياء سطحية فاضحة تتعلق بالفقايعع والبريق ، أما هو فلا يدع الشيء حتى يأتي على آخره في غير رحمة ولا هوادة . وبينما كان

مزاجها سا بجا في لمعان النهار ، كان مزاجه غارقاً في وجدان الليل وأسراره . فهي أشبه ما يكون بالعصفور الطروب في بواكير الربيع ، وهو أقرب ما يكون إلى البوم النائح في منتصف ليالي الشتاء .

أفليس من الطبيعي إذن أن لا يكون بين الاثنين شيء من المشاركة الوجدانية ، فضلا عن الحب ؟ والصفة المشتركة الوحيدة بينهما كانت أدعى إلى التنافر التام والشقاق المستمر ، ونعني بها صفة العناد . فعلى الرغم مما كانت تتصف به من لطف وحب للإرضاء ، كانت عنيدة ، أو على الأقل فيما يتعلق بصلتها بابنيها . أما البنت فكانت ذلولا ، فأذعنت ؛ أما الولد فكان أشد منها عنادا فنار وثار ، وكانت النتيجة الطبيعية الفراق ، خصوصا وقد أضيفت عوامل جديدة كان من شأنها أن تثير نائرة الابن العنيف على الأم التي عدها خائنة لشرفها نحو أبيه ، نظراً إلى صلتها بمن سمته « صديق الأسرة » ، ونعني به فون جرسنبرج ، وهي صلة نود أن نمر عليها عابرين لأنها محوطة بالشيء الكثير من الغموض والشكوك ، ولو أن النقاد كادوا يتفقون على أنها نقطة سوداء في تاريخ أسرة شوبنهاور . ومهما يكن من شيء ، فقد كانت من عوامل القطيعة النهائية التي تمت بين الابن وأمه ، ومنذ سنة ١٨١٤ لم ير أحدهما الآخر حتى النفس الأخير .

وقد عينا بالتعرض لهذه المسألة في شيء من التفصيل لأن بعضاً من النقاد ، على طريقتهم السطحية دائماً ، قد اتخذها الأساس لما هو معروف عن شوبنهور من بغض للمرأة شديد . ولا نريد أن نتصدى هنا للرد على مثل هذا النظر الساذج إلى الأمور ، حتى لا نخرج عن السياق الذي نسرى الآن فيه ، وإنما نتعرض للوجه الآخر من هذه المسألة ، وهو وجه يتعارض مع ما يقوله هؤلاء النقاد ، ونعني به ما يراه الفريق الأول من النقاد الذين أشرنا إليهم في أول هذا الفصل ممن يقولون بأن فلسفة شوبنهور ليست فلسفة وجودية فيما يتصل بهذه المسألة . فهم يقولون إن شوبنهور يعلن كراهيته للمرأة في عبارات رنانة صاخبة فاضحة ، ومع هذا نراه يتعلق بها .

وهم يشيرون هنا أولاً إلى اشتعال الحب بين شوبنهور الشاب وبين الممثلة للشهورة كارولين ياغن ، خلية دوق فيمار كارل أوجست حتى بلغ من قوة هذا الحب عنده أن صاح : « ولم لا آخذ هذه المرأة إلى منزلي ، حتى لو كنت رأيتها كسراً الأحجار في الطريق ! » ثم يشيرون ثانياً إلى ما كان له في إيطاليا من مغامرات غرامية مع فتاة اسمها تريزا ، عرفها في البندقية أثناء إقامته الأولى بها سنة ١٨١٨ وفي الوقت الذي كان فيه لورد بيرن ، الشاعر الإنجليزي المشهور ، يتنقل بين عشيقاته المتعددت في هذه المدينة نفسها . وهذا الحب الثاني أعنف من حبه الأول بكثير ، حتى وصل به الأمر حد التفكير في

الزواج بها ، وهو الذى رأى فى الزواج على العبقرية نقمة وأى نقمة. ثم لا ينسون أخيراً أن يشيروا إلى إعجاب الشيخ الذى نيف على السبعين بفتاة فنانة هى الزابيت نيه ، جاءت إليه كى نجعل له تمثالاً نصفياً . ويصل هذا الاعجاب فيما يزعمون حداً نسى معه الشيخ كل مقاله عن المرأة وما صبه على رأسها من لعنات ، وبدأ يكفر عما قاله ويعتذر ، حين يقول فى خطاب إلى أحد حواريينه: « لم أكن أتصور وجود فتاة خليقة بالحب كهذه الفتاة » . فالشيخ إذن قد سحره شعر الفتاة الذهبى ووجهها الغض وروحها الصوفية المفرقة فى الخيال فأنساه ذلك قوله من قبل عن للمرأة إنها إنسان ناقص ، أشبه ما يكون بالطفل ، أو هى وسط بين الطفل والرجل ، قد خلت من كل استعداد نحو السمو الروحى الخالص ، وروحها فوق هذا وضعية قصيرة النظر مستعبدة للحظة الحاضرة والشهوة العمياء ، كإها فقد وغيره وشهوة دنيئة .

أليس فى هذا تناقض شنيع إذن بين ما يقوله شوبنهاور الفيلسوف وما يفعله شوبنهاور الرجل ؟ وأكثر من هذا : هل يتفق هذا الإقبال على الملاذ والشهوات مع المثل الأعلى الذى وضعه الفيلسوف ، وهو مثل « القديس » ؟

لقد جعل شوبنهاور من حياة « القديس » المثل الأعلى للحياة التى يجب أن يحياها الإنسان ، والأولى به هو أن يحياها مادام يدعو إليها . ولكنه فى حياته لم يكن يمثل هذه الحياة فى شيء .

فهذا الذى طلب الخلاص عن طريق إنكار إرادة الحياة وقال مع سوفوكليس فى إحدى جوقات رواية «أوديب» : « الخير ألا يولد الإنسان ، وإن ولد فأن يموت بأسرع ما يمكن » ، كان يتمنى ، بعد أن وصل إلى الشهرة ، أن يعيش ، لاعلى النحو الذى قدره كتاب العهد القديم أى سبعين سنة ، بل على النحو الذى قدره كتاب الأوبانيشاد ، أى مائة سنة ، وظل يعمل نفسه بما ورد فى هذا الكتاب الهندى ، وبالتجارب التى كان يقوم بها بييرفلورانس العالم الفسيولوجى الفرنسى المشهور ، لإطالة الحياة .

وإذا كانت الصفة الأولى للقديس العزوف عن زخرف الدنيا وبهرجها ، فأين هذا من حرص شوبنهاور على الشهرة وامتلائه غيظاً وغماً لرؤيته الناس منصرفين عن مؤلفاته مدة طويلة جداً ، حتى إن كتابه الرئيسى وهو « العالم إرادة وامتثالا » لم يطبع منه إلا ٧٥٠ نسخة ، ولم يع منها شىء يذكر لمدة طويلة حتى اضطر الناشر إلى تحطيمها ، بل بقى منها بعد هذا التحطيم وبعد مرور عشر سنوات على ظهور الكتاب مائة وخمسون نسخة ! ثم امتلائه بعد ذلك بالسرور القياض حينما بدأ الناس يعترفون بعبقريته بعد هذا الجحود الطويل ، لكن بعد أن أشرف هو على الزوال ! وهل هناك حرص على متاع الدنيا أكثر مما ظهر فى سلوكه بإزاء إفلاس الشركة التجارية التى ساهم فيها بنصيب إلى جانب نصيب أمه وأخته ؟ فع أن نصيبه كان أضال من نصيب هاتين ، فانه لم يشأ مطلقاً أن

يتساهل مع مدير الشركة ولا في درهم واحد ، وحرص على أن يأخذ نصيبه كاملا ، مع أن الأم والأخت تساهلتا فتنازلنا عن ثلثي مالها من نصيب

ثم ألسنا نراه ينشد من القديس أن يجعل حياته سلسلة من الآلام الشديدة ، « لأنه من لهيب الآلام المطهر ينبثق في سرعة البرق إنكار إرادة الحياة ، أي الخلاص » الذي يسعى القديس إلى تحصيله ؟ فأين هذا من الحياة الهادئة الناعمة التي قضاها على الأرض تارة متنقلا في ربوع إيطاليا ، هذا البلد الجميل الذي فيه يشيع الغناء ، (كما يقول دانتة ؛ واقتبس قوله شوبنهاور في خطابه لجيته) ، وأخرى رخي البال ساجي الضمير في البيت القائم على الضفة اليمنى لنهر المين ، حيث الزصيف المسمى « بالمنظر الجميل » يطل بأبنيته المترصة وكنائسه القوطية ذات الأبراج العالية ومنازله ذات السقوف المثلثة ، هناك في مدينة فرنكفرت التي كانت أرضها لاتزال تعبق بمواطىء أقدام جيته ، وتتردد في أنحائها أصداء صوته الناعم في سن الطفولة ومطلع الشباب ، ويهب على جوها في الشتاء زفرات حبه الحارة فتبه لطفاً وانتعاشاً ؟

لقد كانت حياته في مجراها هادئة صافية لم تعرف من الموج اضطرابه ولا من الريح هياجها ، بل سرت كالنسيم الهاديء في أماسي الحريف على ضفاف النيل . وقد حاول الرجل فيها أن يتشبه ما استطاع بكنت : فكان دقيقاً في أوقاته دقة الساعة الجيدة ؛ منظماً

في أعماله انتظام الآلة الجديدة . وهو نفسه قد اعترف بأن حياته التي حياها ليست حياة قديس ، بل ولا شبه قديس : فإنهم يذكرون عنه حينما رأى صورة رئيس الدير رانسيه ، مصلح الطريقة الترابية ، وهي صورة تنطق عن الزهد المطلق والقداسة التامة ، أنه قال متنبهياً متحسراً : « هذا من فضل اللطف الإلهي ! » وفي هذا تعبير عما شعر به شوبنهاور من فرق هائل بين صورته هو وصورة رانسيه ، أى بين صورة الحياة التي يحياها ، والحياة التي يحياها القديس . على هذا النحو صور لنا أصحاب هذا الرأي الصلة بين حياة شوبنهاور وبين فكره : فهي عندهم صلة تقوم على التناهي التام بين المذهب والحياة .

وهم صادقون في هذا التصوير ما في ذلك من شك . لكن النتائج التي يستخلصونها من هذا التصوير باطلة بالقدر الذي به هذا التصوير صادق ، إن لم تكن أكثر من ذلك بطلاناً بكثير . فإذا كانت حياة شوبنهاور الخارجية لا تتفق في شيء مع ما ينادى به من مبادئ ويعرض له من وصف وتقدير ، فإن هذا ليس معناه مطلقاً أن شوبنهاور لم يحى ما قال ولم يعان ما أذاع وعلم . فشيء أن يعمل الإنسان في حياته الخارجية بما به يقول وإليه يدعو ، وشيء آخر أن يحيا الإنسان ما يقوله . فالأولى مسألة تتعلق بالتقويم الأخلاقي ، والأخرى تتعلق بالتقويم الفكري ، أو بعبارة أخرى تتعلق الأولى بالحياة الخارجية ، والأخرى بالحياة الباطنة . واللهم في تقدير

حياة المفكر هو هذه الحياة الأخيرة فحسب ، لأنها الحياة الخاصة التي يتميز بها ويمتاز على الآخرين ؛ أما الحياة الخارجية فحياة يتميز بها رجال الأفعال والأعمال ، ولا قيمة لها بالنسبة إلى المفكرين على وجه الإطلاق . وإلا أخطأنا المقياس الصحيح ، فعددنا المفكرين في أدنى مرتبة من مراتب الوجود الإنساني ، لأنهم أقل الناس أثراً في ميدان الحياة الخارجية وأضألهم حظاً من الظفر في الأفعال . وهذه حقيقة ليست في حاجة إلى الإيضاح ، لاحظها أفلاطون في المقالة السابعة من «الجمهورية» ، ووصفها جيته وصفاً رائعاً في رواية «تسو» ، وبينها في شيء من التفصيل شوينهور الشاب فقال : «إن الذين وهبوا العبقرية وسمو الروح ، وهؤلاء الذين برزت الناحية العقلية النظرية الروحية عندهم على الناحية الأخلاقية العملية الشخصية بمقدار هائل ، هم دائماً في الحياة العملية ليسوا فقط عاجزين مثيرون للسخرية .. بل وأيضاً أحياناً كثيرة من الناحية الأخلاقية هم ضعفاء يثيرون الشفقة ، وكدت أقول شبه أشرار (وروسو قد قدم لنا لهذا أمثلة واقعية حية) . ومع هذا فإن ينبوع كل فضيلة والشعور الجيد بها أقوى عندهم غالباً مما هو عند الذين يجيدون العمل منهم ويفكرون أقل بكثير ؛ أجل إن الأولين يعلمون الفضيلة تمام العلم وبدقة أكثر من الآخرين ، لكن هؤلاء يمارسونها خيراً من الأولين . أولئك يستطيعون أن يسموا إلى السماء في سرعة ودون التواء ، تعمّر نفوسهم الحماسة الحارة لكل ما هو خير وكل

ما هو جميل ؛ ولكن العنصر الأرضي الثقيل يعترض سبيلهم فيسطون . فهم أشبه ما يكونون بالفنانين بالفطرة ممن تعوزهم الصناعة الفنية أو يجدون للمرمر شديد الصلابة .. إنهم يلامون ، لأن كل حي قد وقع بحياته نفسها شروط الحياة : لكنهم أخرى من هذا جديرون بالثناء . وخلصهم لن يكون عن طريق فعل الفضيلة ، إنما عن طريق آخر خاص . فايست الأعمال ، إنما الإيمان ، هو الذي يجعلهم سعداء » . وإني أسائل هؤلاء الذين أخذوا هذا على شوبنهاور أن يدلونا على فيلسوف أو مفكر أيا كان : حقق ما حرصوا على لوم شوبنهاور وتعنيفه في سخرية شديدة بازائه . فإن عجزوا ، وهم قطعاً عاجزون ، لم يكن تقدم لشوبنهاور في هذه الناحية إلا تديداً لذلك النقد الساذج المتبدل الذي يوجه لعامة المفكرين بوجه عام ؛ وما أحسبهم قصدوا إلى شيء من هذا . فالنتيجة التي استخلصوها من تصويرهم لما هنالك من تعارض بين حياة شوبنهاور الخارجية ومذهبه نتيجة واضحة البطلان .

إنما يمتاز المفكرون بعضهم من بعض في داخل الحياة الروحية الباطنة نفسها : فهم من يصدر تفكيره عن تجارب حية يعانيتها وتكون أفكاره ممتزجة بدمه ، أو على حد تعبير نيتشه تكون الحقائق بالنسبة إليه حقائق دموية ؛ فإذا تحدثوا تحدثوا عن أشياء حيوها ، وسرت في كياناتهم كله ، فاهتز لها وتشبع بها وامتصها ، فامتزجت بأنسجته وخلاياه ؛ لآعن حوادث تمثلت في المنح على شكل

صورة مجردة لاحياة فيها ولا دماء، وإذا كتبوا كتبوا بكيانهم كله
لحماً ودماً ، وقلباً وعقلاً، وعاطفة وإحساساً . ومنهم من مجرد نفسه
عن نفسه لكي يجعل الأولى كالمرآة الصافية تراءى فيها أنواع من
الصور عديدة وسلاسل من الأحكام متصلة ، دون أن تتأثر في شئ
بطبيعة هذه المرآة ؛ ودون أن تتأثر المرآة نفسها بشيء من طبيعة
الصور والأحكام ، وتفكيرهم في هذه الحالة لا يتجاوز قمة العقل
الجافة الخالية من كل حياة ، وإنما يعمل عمله كالآلة في أشياء آلية
ميتة متحجرة . وبين هؤلاء وأولئك سلم طويل تتوالى فيه الدرجات
على شكل فروق دقيقة. بل أننا لانستطيع أن نجد مفكراً أو عبقرياً
قد اتصف بصفات إحدى الطائفتين خالصةً دون الأخرى، لأن طبيعة
التفكير نفسها تحول دون أن يتحقق شئ من هذا التمايز المطلق
على الوجه الكامل . فلا يمكن أن يكون تمت تفكير حتى دموى
خالص ، لأن الفكر يقتضى التصورات ، وهى صور متحجرة فى
قوالب لغوية ميتة ؛ بل لو أمكن أن يتم الفكر دون تصورات مجردة ،
لما استطاع مثل هذا الفكر أن يخرج من نطاق رأس المفكر
وينتقل إلى الناس إلا إذا اتخذ سبيل التصورات المتحجرة . أجل إن
هذا النوع من الفكر هو للمثل الأعلى ، لكن هذا شئ وواقع
الحياة شئ آخر . كما أنه لا يمكن الفكر أن يخرج مجرداً خالص
التجريد ، كما نزع إلى ذلك كثير من المفكرين ممن ينشدون
الموضوعية الخالصة ، لأن المفكر أولاً وآخرأ كائن حتى .
فسرعان ما ينقلب من ميت مفتوح العينين إلى حى مغلق العينين .

وهذا ما عبر عنه نيتشه أجمل تعبير فقال إن التفكير كالظهيرة الساجية بعد الصبح الهائج ، وصاحبه « لا يريد شيئاً: فقلبه ساكن هادىء ، وإنما عينه هى التى تحيا ، - فهو ميت ساهر العينين ، حينئذ يرى الإنسان ما لم يره من قبل . وأخيراً تهب الريح فى الأشجار ، وتذهب الظهيرة ، وتمترعه الحياة من جديد إلى نفسها، الحياة ذات العيون العمياء . »

ونستطيع أن نسمى النوع الأول من المفكرين باسم المفكرين الوجوديين ، والنوع الثانى باسم المفكرين الفكريين . والنماذج الأولى للمفكرين الوجوديين نيتشه وكنت . فإلى أى الطائفتين إذن ينتسب شوبنهاور ؟

لنحلل المميزات الرئيسية التى تمتاز بها الطائفة الأولى ، طائفة المفكرين الوجوديين ، ولننظر إن كانت تتفق مع صفات شوبنهاور أو لا تتفق .

وأولى ما تمتاز به هذه الطائفة ازدواج الشخصية . فطبيعتهم مكونة من عنصرين متعارضين : أحدهما خفيف ينزع ببصره إلى السماء والآخر كثيف يتجه نحو الأرض ؛ أولهما تواق إلى النور والجانب الإشراقى من الوجود، والثانى متعلق بالظلمة لاصق بالطين . يقول كل منهم كما قال فاوست : « إن فى صدرى تسكن ، وبالأأسف ! نفسان ، كل منهما تريد أن تنتزع نفسها من الأخرى : فأحدهما تُنشِبُ مخالفاً فى العالم بشهوة جامحة قاسية ؛ والأخرى ترتفع

من التراب بقوة إلى ساحة الأسلاف العالين . ومن هنا ينشأ نزاع مستمر بين كلتا النفسين مسرحه روح الفكر ، فهو في صراع مستمر مع نفسه ، قاس لا يرحم العنصر الأرضي ، وغير قادر على التوفيق بين كلا العنصرين ، لأن كلا العنصرين قوى وكليهما جامع عنيد . ولهذا فهو في شقاء مستمر وعذاب متصل في داخل روحه ، يحمل صليبه طوال مخياه .

وهذه الصفة ظاهرة كل الظهور في شوبنهاور . فالعنصر الأرضي في طبيعة شوبنهاور واضح خصوصاً في قوة الشهوة والغريزة الجنسية عنده . فنذ البدء ، شعر بقوة الشهوة إلى حد كبير . فعبّر عن هذا الشعور في قصيدة كتبها في عهد الشباب قال فيها : « أيتها الشهوة ، أيها الجحيم ! أيها الإحساس ، أيها الحب الذي لا يشبع ولا يقوى على قهره شيء ! » ، واستمر طوال حياته أسيراً لشيطانها ، يحاول ما استطاع أن يظفر به وينتصر عليه ، لكن الشيطان استمر يطارده كالجلاد الذي لا يرحم ، كما يقول بودلير ؛ ولم يكن يدعه ساعة وحده حراً من تعذيبه وقسوته طوال الشباب والرجولة ؛ حتى كان يصبو بكل نفسه إلى الشيخوخة ، لأن فيها وحدها يستطيع أن يتخلص من هذا الشيطان المريد . وتلك نعمتها الكبرى : « ففيها يبلغ المرء حالة الهدوء الصافي التي يعانيها من فُكّت عنه القيود بعد أن ظل مكبلاً بها طويلاً ، فصار الآن يتحرك حراً مطلقاً من كل قيد » . وقد حدثنا مؤرخو حياته عن (٣٢ - شوبنهاور)

الراحة الكبرى التي أحس بها والسرور الفياض الذي ملك عليه كل نفسه حينما استطاع أن يتحدث عن تحرره في النهاية من شيطان الشهوات . وإن المرء ليخيل إليه وهو يستمع إلى اللهجة العنيفة الصاخبة التي يتحدث بها شوبنهور عن تأجج الشهوة وقسوتها وسيطرتها المخيفة على كل الميول ، حتى ما كان منها نبيلًا - ، أنه إنما يسمع صوت شوبنهور وهو يجذبنا عن نفسه .

وعلى العكس من ذلك نجد العنصر العلوي يكافح ويشوركي يؤكد ذاته وينتصر على قرينه . فكان يصبو بكل قواه إلى الحياة السامية الخالية من كل شهوة ، حياة القديس الشهيد والبوذي الذي بلغ مقام النرفانا، أو حياة الفيلسوف الأفلاطوني وقد استقر بعالم الصور الأزلية الأبدية يتأملها في سكون مطلق وسُجُوٍّ ناصع متصل . وإن النبرة التي تحدث بها عن هذا النوع من الحياة ، تلك النبرة الممزوجة بالدموع المشتعلة بحرارة الشوق والحنين ، لتشهد بأنها إنما صدرت من أعماق روح تنزع ما استطاعت إلى بلوغها ، ولكنها ويا للأسف تصطدم بالعنصر الأرضي الثقيل فتزل من حيث صعدت ، فتساءل في جزع رقيق كما تساءلَ فاوست : « أو توجد إذن أرواحٌ نخلق حرة بين السماء والأرض؟ ألا فلتنزل أيتها الأرواح من وسط غيومك الموشاة بالعقيق ، تعالي كي تقودي معراجي إلى حياة جديدة مختلفة الألوان » . لكن وفي وسط هذه

النشوة القدسية ، ينبثق شيطان الشهوة لكي يقود أسيره البائس إلى جحيمه الملعون .

ألا ليت شوبنهور ترك لنا يوميات خاصة يسجل فيها هذه المأساة الرائعة كما فعل كيركجورد ونيتشه ! لكنه لم يفعل ، ولم يكن له أن يفعل لأن صفة أخرى تميز بها حالت بينه وبين النزعة الذاتية الخالصة ، وجعلت منه فيلسوفاً وجودياً في مرتبة أقل من هذين .

ذلك أن المفكر يحيا في داخل مملكة الفكر نوعين من الحياة : الحياة الذاتية والحياة الموضوعية ؛ والأولى حياة موضوعها الوجود الإمكانى المملوء بالإمكانيات الخصبية الرائعة التي لم تتحقق ولن يقدر لها كلها أن تتحقق يوماً ما ، وإنما تستظل مؤجلة إلى الأبد لا يتم وفاؤها لأنه لا يمكن أن يتيسر هذا الوفاء ؛ وحياة المرء في هذا الوجود حياة حنين مطلق وتشوق دائم ، يقترن به جزع أو سرور ؛ بحسب ما يراه من عدم إمكان التحقق للإمكانيات أو صيرورتها متحققة بالفعل على صورة الحياة الثانية ، الحياة الموضوعية . فهذه الحياة الأخيرة إذاً هي حياة الوجود العيني المتحققة فيه إمكانيات الحياة الذاتية على نحو ما قل ، أو أكثر . والتحقق هنا بالنسبة إلى المفكر تحقق في داخل مملكة الفكر ، أى أنه سيكون على شكل تصورات ثابتة متحجرة في ألفاظ ، فتنتقل الصورة الغامضة إلى

تصور واضح للعالم محدود الإطار . فبعد أن كانت المعاني والماهيات تضرب في جو الحياة الذاتية للبد بالضباب المملوء بالحركة والأضطراب ، في نشوة من القوة وسورة من الحياة ، تصح في سماء الحياة الموضوعية الصافية الأديم الخالية من الحركة والسكون والمائلة في سجوها مثل البوذا في محرابه . والمفكر الوجودي الكامل هو من جعل السيادة المطلقة للحياة الذاتية ، مفهومة على هذا النحو ، على الحياة الموضوعية ، فلم يعد في استطاعته أن يبين عن نفسه إلا في صورة لمحات ولمع أو ، كما بقول الصوفية عندنا ، على هيئة لوائح وطواع ولوامع يصوغها في عبارات مصقولة لا تستطيع الأنامل أن تلمسها عارية ، فتضطر من أجل إدراكها إلى لبس القفاز ؛ لأن فيها حرارة وعليها طهارة وقداسة . فتخشى من وراء اللمس المباشر أن تحترق بناها أو تدنس قداستها . والمثل الواقعي الأعلى على هذا نيتشه . أما المفكر الذي يدع للحياة الموضوعية سلطاناً بجانب الحياة الذاتية فلا يلبث أن يحيل الصور الحية إلى تصورات ميتة متحجرة ، وإن كنا لا نزال نرى في هذه التصورات المرمرية عروفاً تؤذن بأن نوعاً من الحياة لا يزال يردد أنفاسه ويمجى دماؤه في هذه التصورات . لهذا كان هذا النحو من التفكير عسيراً في التمييز ، حتى ليخطيء المرء بسهولة فيحسب أن صاحبه لم يحى شيئاً مما قال ولم يصدر في مذهبه عن تجارب حية

حاناها . والناقد إذن في حاجة إلى قدرة على الإحساس للرهف والشعور الحاد بالفروق الدقيقة للزجة . وإلا كانت النتيجة الخلط بينه وبين المفكر المفكرى . وهذا النوع من التفكير الوجودى يقتضى عند صاحبه قدرة ممتازة على أن يوازن بين الحياة الذاتية والحياة الموضوعية ويجعل بين الاثنين انسجاماً وازدواجاً . فيشارك فى الآن نفسه الوجوديين الخالص فى معاناة التجارب الحية بكل قوتها وشدتها والفكرين الخالص فى الصياغة الخالصة الواضحة والهدوء التام فى الإدراك والتعبير . فيبدو إنتاجه للناظر العابر كأنه تصور شفاف ليست تحته صور حية ، أو تمثال من المرمر الناصع لا ينبض له قلب ، ولا يسرى فيه دم ، ولا تتردد فيه حياة . لأن الحياة دفينة لم تشأ أن تملن عن نفسها فى صخب تستك منه الأسماع ، أو بهرجة تخطف الأبصار . ولكن الناظر النافذ الوجدان لا يلبث أن يميز فى غير مشقة ولا تحايل ما وراء التصور من صور حية ، وما داخل المرمر من حياة قوية عنيفة كأقوى وأعنف ماتكون الحياة . وتلك هى المعجزة حقاً فى طريقة تفكير هؤلاء ؛ وهى المعجزة التى حققها الفن فى تمثال لاؤكون الذى صدرنا بوصفه هذا الفصل . وشوبنهاور قد حقق هذا النحو من التفكير إلى أعلى درجة ، وشعر منذ البدء بأنه يمثله أحسن تمثيل . فكتب يقول وهو فى الخامسة والعشرين : « حينما تتمثل أفكارى أمامى غامضة تسبح

كالصور النحيلة ، تأخذني رغبة لا يبلغ مداها التعبير في اعتقالها وأسرها ، فأذكر كل شئ جانباً ، وأطاردُها خلال كل الأتويه كما يطارد الصائد فريسته ؛ وأضيق عليها الخناق من كل مكان ، وأقف دون طريقها حتى أقبض عليها بكل قواي وأجعلها واضحة متميزة ؛ ثم أقذف بها ميتة على الورق . ويقول مرة أخرى بعد أن جاوز الأربعين : « حيلتي هي أن أصب في الحال على الوجدان الحاد كل الحدة أو الأثر العميق كل العمق ، وفي اللحظة الملائمة التي فيها ينبثق الأثر أو يولد الوجدان ، التأمل المجرد البارد كل البرودة وأن ألاحظهما وهما على هذا النحو يتحجران » . ففي مسرح نفسه الباطن إذن صراع جبار بين الصور النورانية الطائفة في فيض من النشوة والسورة الحيوية ، وبين الإطارات الجامدة والقوالب الصماء التي تريد أن تضغط على الصور في داخلها وتسلبها كل حياة ، صراع فيه من للمعارك الرائعة والمناورات البارعة والدماء المسفوكة ما يكون ملحمة من أحفل الملاحم بمعاني البطولة والاستشهاد . خصوصاً وكل صورة من هذه الصور قد انبثقت من أعماق روحه وأنشبت أظفارها في كل كيانه الجسماني ، فانسقت في تيار حار من الإحساسات الملتهمة وموكب حافل بالعواطف النارية المؤججة اللهب ، وهي من ناحية أخرى صور مفترسة فتاكة تنهش روحه باستمرار وفي تجدد متصل كالنسر الذي ينهش كبده بروميثوس

المغلول . أو ليست صور مافى العالم من آلام وعذاب ؟ أجل ، لقد كانت حياته الذاتية ججيا هائلا من الصور المربعة التي حتى مافيا ومانى معانيها .

وتلك هى المأساة الحقيقية التى يعانىها للمفكرون الوجوديون . فلا نعيم الحياة الخارجية وهدوؤها ، ولا ماعسى أن يحظى به للمرء من تمجيد أو تشرىف ، قادر على أن يؤثر أدنى تأثير فى مجرى هذه للمأساة ، كما لا يستطيع ما يجرى على الضفاف أن يحدث أثراً فى مجرى النهر . والذى يريد أن يفهم طبيعة المفكر حقاً ، ليس له أن يفتش عنها فيما كانت عليه حياته الخارجية ، وما صادفه فيها من سعد أو نحس وعلى أى نحو مرت ، إنما عليه أن ينشدها صافية فى الحياة الباطنة التى لا تخضع فى سيرها لقانون مما ينطبق على الحياة الخارجية . فهذا النوع الأول من الفهم سطحى ، أستغفر الله ! بل باطل كل البطلان ، ولا يلجأ اليه إلا من أعوزتهم القدرة على الفهم الصحيح ، لانعدام ملكة التقدير لديهم ، وقصور وجدانهم عن أن ينفذ إلى شىء ، إن كان لديهم ثمت وجدان ، وعدم استطاعتهم أن يحيوا من جديد التجارب الحية التى عاناها العباقرة ، لما عليه نفوسهم من فقر وعقم وكشافة .

وهنا فى هذه الحياة الباطنة نجد شوبنهاور يحيا فى نفسه مأساة من أروع للمآسى التى حياها للمفكرون الوجوديون . إنما الفارق

بينهم وبينه هو أنه استطاع أن يحدث توازناً في داخل روحه بين الحياة الذاتية وبين الحياة الموضوعية ، فلم يدع إحداهما تطفئ على الأخرى . لهذا لم تنته روحه بما تنتهي إليه عادة عند هذا النوع من التفكيرين ، نعى أنها لم تنته إلى الجنون الملازم دائماً لهذا الاختلال في التوازن بين كلتا الحياتين - ، ولو أن كثيراً من رواة أخباره قد قدموا لنا شواهد وإشارات إلى أعراض الجنون عند شوبنهاور . فيذكرون مثلاً أنه كان يرى كثيراً وهو يحدث نفسه بصوت عال مع حركات وإشارات عصبية عنيفة ، ويقولون لنا إنه كان طوال حياته فريسة لكثير من المخاوف الشاذة التي تصل حد الفزع المرضى ، وفي سن السادسة في أثناء تريضه توقف مرة وشعر بالوحدة المخيفة وتخيل أن أبويه يريدان الخلاص منه ، وحينما كان طالباً في جامعة برلين كان يتصور أنه مصاب بالتدرن ، ولا يكاد يسمع ذنو الحرب من برلين حتى يولى هارباً مذعوراً ، وظل دائماً يحذر الناس ويعتقد أنهم جميعاً أعداء واقفون لإيذائه بالمرصاد ، وسرطان ما أدرك المتحذلقون من أطباء الأمراض العصبية ما هنا من فرصة سانحة لإظهار تهاويلهم ومخاريقهم المعجبية ، فراحوا يشخصون حالة هذا « المريض المجنون » . فقال أحدهم ، وهو كارل فون زيدلتس ، إن هذه الأعراض تدل على أنه مجنون مصاب أولاً بهذيان الاضطهاد ، وثانياً بجنون العظمة

ثم جاء زعيم الأطباء الدين انساقوا في هذا التيار ، تيار تفسير كل شيء بأن أصله الجنون حتى لم يدعوا في العالم عبقريا دون أن ينعتوه بأنه مجنون ، وهو لومبروزو ، فأخذ يحلل « جنون » شوبنهاور على طريقته المعهودة في كتاب « العبقرية والجنون » ، فنحجحه من شارات الجنون ما شاء له سخاؤه ، ولاتنس أنهم هنا أسخياء كل السخياء !

وطبيعي أننا لا نستطيع أن نقف عند هذا العبث ، الذي برع فيه لومبروزو وحواريوه من أمثال مكس نوردانو ، والذي أشرنا هنا إلى شيء منه آسفين مرغمين . فقد تكفل بعض أطباء الأمراض العصبية أنفسهم بالرد عليهم وفضح مخاريقهم هاتيك ، وإنما نريد من إشاراتنا إلى هذا أن نقول إنه على الرغم من تغلب الناحية الموضوعية في داخل روح شوبنهاور ، فإنه استطاع مع ذلك بوجه عام أن يوازن بين الناحيتين . فيحيل الصور الغامضة الحية إلى تصورات واضحة ثابتة ، ويسلط النظر الخالص على الوجدان كي يهبه سمحة التجريد ، ويظامن من شدة الانفعالات والتجارب الحية يصبها في قوالب من التأملات الهادئة المركزة ، وينسق هذا الخليط المضطرب من الشهوات والرغبات والعواطف والميول والتأثرات والأحداث الروحية في صورة منظمة رائعة تكون مذهبا من أعظم للمذاهب التي حاولت أن ترفع نقاب « المايا » عن سر الوجود.

العالم امثال

« العالم من امثالى »

نقاب الوهم

« إنها المايا ؛ لأنه نقاب الوهم هو
الذي يقشى على أبصار الفانين ميريهم عالماً
لاستطيع أن تقول عنه إنه موجود أو إنه
غير موجود »

« الذات »

أنا وحدي الموجودة ، ولا شيء يوجد عداي ؛ لأن العالم من
مثالي وتصوري .

المادة

وهم طائش ابل أنا وحدي الموجودة ، ولا شيء يوجد عداي ؛
لأن العالم هو صورتي الزائلة . أما أنت ، فليست إلا من نتاج جزء
من هذه الصورة ، وما وجودك إلا من قبيل الاتفاق الخالص .

الذات

يا لها من خيلاء هوجاء ! فلا أنت ولا صورتك قادرتان على
الوجود من دوني ؛ فإنكما تتوقفان عليّ . وكل من يضرب صفحاً
عني ، ويخيل إليه بعد أنه يستطيع إدراكك والتفكير فيك ، هو
غريسة وهم فاضح ؛ لأن وجودك ، خارج امتثالي ، تناقض صريح ؛

« وأنت موجودة » لا معنى له إلا أنتى « أمثالك » . فامثالى هو مكان وجودك ، ولهذا كنت أول شرط لهذا الوجود .

المادة

من حسن الحظ أنى سأ كسر من غلواء ادطاءاتك ، لا بالألفاظ ولكن بطريقة عملية . فبعد لحظات معدودات ستفارقين الوجود فتذهبين إلى غير رجعة أنت وأقوالك الجوفاء وتختفين كما ينسخ الظل ، وسيكون مصيرك كمصير صورى الزائلة العابرة . أما أنا ، فسأظل كما أنا طوال آلاف القرون وعلى مر الزمان اللانهائى ، لأن نقص شيئاً ، متأملة فى ثبات مستمر حركة صورى السرمدية .

الذات

إن هذا الزمان اللانهائى الذى تفخرين ببقائك خلاله ، لا وجود له هو والمكان اللانهائى الذى تملئينه ، إلا فى امثالى ؛ إنه صورة من صورته التى أحملها دائماً حاضرة لدى ، وفيها تعرضين نفسك ، وهى تتقبلك ؛ وبها كان وجودك . والفناء الذى تهددينى به لا يعنينى فى شيء وإلا فصيرى مصيرك : وإنما هو يتعلق بالفرد فحسب ، هذا الذى يحملنى برهة مامن الزمان والذى هو من خلق امثالى ككل شيء آخر .

المادة

ولو أنى سألته لك بهذا فاعتبرت وجودك شيئاً مستقلاً بذاته، وإن كان هو الآخر مرتبطاً أو ثِق ارتباط بوجود الفرد الزائل، فإن هذا الوجود لا يزال أيضاً خاضعاً لى . لأنك لست ذاتاً، إلا باعتبار أن لك موضوعاً فى مقابلك : وأنا هذا الموضوع . أنا أصله ومضمونه ؛ أنا الجوهر الثابت الكامن فيه والذى بدونه سيفقد كل تماسك، ويصير حارياً عن كل حقيقة واقعية، كالأحلام سواء بسواء، أحلام أفرادك وتصوراتهم التى تستمد هى الأخرى منى وجودها الوهمى .

الذات

أحسنت صنماً فى عدم إنكارك على الوجود، على أساس أنه مرتبط بالأفراد . لأنك أنت أيضاً مرتبطة كل الارتباط بأختك، أعنى بالصورة، بالقدر الذى أنا مرتبطة به بالأفراد . ولم يقدر لك الظهور بدونها، فلا عين رأتك، كما لم ترى عين، عارية أو مفارقة: فما نحن فى الواقع غير تجريدات . فالوجود هو فى جوهره ما يمثل ذاته وما تعانیه ذاته، ولكن وجوده فى ذاته ليس فى فعل الامتثال ولا فى كونه موضوع امتثال، لأن هذا وذاك مشترك بيننا .

المارة والذات معاً

نحن إذن متحددان كجزئين ضروريين في كلٍ يشملنا ولا يوجد إلا بنا . وسوء الفهم هو وحده الذي يستطيع أن يجعل الواحد منا في مقابل الآخر ، ويوهم بأن وجود الواحد في صراع مع وجود الآخر ، بينما الوجودان متفقان ولا يكونان غير شيء واحد .

كان هذا الحوار الرائع يدور بين الذات وبين الموضوع منذ اللحظة الأولى التي أعلن فيها ديكرت ثورته الفلسفية في صيغتها المشهورة : « أنا أفكر ، فأنا إذن موجود » .

فالحقيقة اليقينية الأولى - أو الحقيقة الوحيدة في الواقع ، هي وجود ذات تفكر ، تتصور وتشك وتتذكر ، وبالجملة تفعل وتنفعل . وما عدا هذه الذات ، أي كان مقداره ، ليست لدى عنه معرفة يقينية ، ولهذا فإن وجوده بالنسبة إلى "متخيل أو مظنون، وبالتالي يستمد ماله من وجود مزعوم من تلك الحقيقة الأولية اليقينية المباشرة ، أعني الذات المفكرة . ومن هنا قام التعارض بين الذات وبين الموضوع ، هذا التعارض الذي أدى إلى قيام مشكلة المعرفة وبالتالي مشكلة الوجود باعتبارها قائمة على أساس نظرية المعرفة .

فقد استقلت الذات بنفسها ووضعت نفسها بنفسها في مقابل

العالم الخارجى ، موضوع تفكيرها . فكان لا بد أن تثار حينئذ مشكلة الصلة بين الاثنين : هل الذات من نتاج الموضوع ، بمعنى أن الذات ليست شيئاً آخر سوى مختلف الآثار الصادرة عن العالم الخارجى والتي تجمعت فى الدماغ وتركزت فكونت كلاً قائماً بذاته على نحو ما ؛ وتبعاً لهذا ستكون منفعة دائماً ، وإذا فعلت فعلها فهو سلبى ، إن صح هذا التعبير ، لا يكاد يتجاوز التأليف والتنسيق ؟ أو الموضوع هو ، على العكس من هذا ، من نتاج الذات ، أعنى أن الحقيقة الخارجية لا وجود لها فى الواقع خارجاً عن الذات المدركة ، ولولا هذه الذات ما كان للعالم الخارجى وجود ، فهي الخالقة له ، المبدعة لكل وجود خارجى ؟ أو لا هذا ولا ذلك من نتاج الآخر ، وإنما كلٌ مستقل بذاته ، قد غلّق من دون نفسه الأبواب ، فلم يعد ثمة مجال للاتصال أو التأثير المتبادل ؟ إن كان الأمر على هذا النحو الأخير ، فما معنى هذه الإشارة المستمرة من جانب الذات إلى موضوع ، ومن جانب الموضوع إلى ذات ، وهذه الإحالة المتبادلة التى لا يمكن أن تقوم إلا إذا كان ثمة اتصال على نحو ما من الأنحاء ؟ وأكثر من هذا ، ما الذى يضمن لنا حينئذ اتفاق العالم الذى يمثله الموضوع والعالم الذى يمثله الذات ؟

أما ديكرت فلم يكن شاعراً بخطورة الثورة التى أحدثها ، وأهمية المشكلة التى أثارها ، وما لها من نتائج ذات مدى بعيد . فخل المشكلة

حلا عجيباً ، أو بالأحرى فر منها فراراً شائناً ، بأن تضرع إلى كمال الله كي يكون الضامن لهذا الاتفاق بين الفكر والوجود ، بين الذات وبين الموضوع . فإذا كنا بالنسبة إلى الله ننتقل مباشرة من الماهية إلى الوجود بل نقول إن الوجود لديه عين الماهية ، فلم لا نتخذ من هذا حالة مثالية لما يجري في الوجود غير الإلهي ؟ لكن ديكرت نسي بهذا ، أو بالأحرى تناسى ، أن الانتقال من الماهية إلى الوجود مباشرة ليس ممكناً إلا فيما يتصل بالله وحده ، لأن وجوده من ذاته ولأنه كمال مطلق ، وأكمل ما يمكن أن يتصور ، وتناسى أن هذا البرهان لا يصح إلا بالنسبة إلى الوجود الإلهي ، أعني البرهان القائم على أن الوجود متضمن في الماهية بالضرورة بالنسبة إلى الكائن الذي لا يمكن أن يتصوراً كمل منه ؛ ولا بد بالتالي ، لكي يصح ، من أن نميز تمييزاً دقيقاً واضحاً بين وجود الله ووجود غيره من الأشياء . فضلاً عن أن الالتجاء هنا إلى فضل الله التجاء إلى مبدأ خارج عن نطاق العقل ، أعني أن البرهان هنا يعتبره خلل منطقي شنيع .

لهذا بقيت الحال كما كانت عليه من قبل ديكرت ، لأن ديكرت كان في الواقع صاحب وعود أكثر جداً من أن يكون صاحب وفاء بتلك الوعود ؛ وكان ثأراً بلسانه ، لا بعقله ، بل ولا بقلبه . فهو أشبه ما يكون بالبوق في فم العرّاف . لكنه استطاع على كل حال
(م - ٤ - شبهور)

أن يضع هذه المشكلة للمرة الأولى ، مشكلة الصلة بين الذات وبين الموضوع ، على نحو يجعل الرجحان في جانب الذات لا في جانب الموضوع .

إنما الذى سار فى سبيل حل هذه المشكلة المدرسة الإنجليزية ، وعلى رأسها لوك . فقد قال لوك إن للكيفيات نوعين : أولية : هى الامتداد والشكل والصلابة والحركة والمقدار . وكيفيات ثانوية مثل اللون والصوت والرائحة والطعم والحرارة والبرودة واليبوسة . وهذه الكيفيات الثانوية لا وجود لها فى الأشياء الخارجية ، وإنما توجد فى حواسنا بوصفها الآثار التى تتركها هذه الأشياء فيها ، بينما الكيفيات الأولية توجد حقيقة فى الموضوعات الخارجية . فللحساسية إذن ، أعنى الذات ، نصيب فى تكييف العالم الخارجى . لكنه نصيب ضئيل ، مع ذلك . فحاء من بعده بركلى ، هذا القسيس الماكر ، فسار إلى أبعد الشوط بأن أنكر وجود المادة مستقلة عن الفكر والامتثال ، فقال عبارته للمشهوره : « الوجود هو الإدراك » . فهو يأخذ على لوك تفرقته بين الكيفيات الأولية والثانوية ، قائلاً إن هذه التفرقة لا تقوم فى الواقع إلا على أساس إمكان الإدراك من ناحيتين . فالاختلاف إذن ليس فى الوجود الخاص بكل نوع ، بل مصدره تعدد مناحى النظر فى الإدراك . ثم أضاف كل الكيفيات ، أى المادة كلها ،

إلى الإدراك ، فأنكر بالتالى فكرة الجوهر المادى تمام الإنكار . وإنما الجوهر الذى هو موضوع الظواهر كلها يجب أن يبحث عنه فى وضوح المفهومات الرياضية والميكانيكية ، كما حددها على وجه أخص نيوتن بواسطة قوانين الحركة من ناحية ، ثم حساب اللامتناهيات من ناحية أخرى ، كما وضعها نيوتن وعنى بركلى بالتنفيذ إلى أسرارها . وأخيراً جاء هيوم فطبق مناهج نيوتن على عمليات الفكر ، وامتد بنقد بركلى إلى الجوهر الروحى ذاته ، وبدلاً من أن يتجه بنقده إلى كينفيات الأشياء ، اتجه به إلى قوانين ارتباط الأشياء بعضها ببعض . فلم يعد الإنكار ، إنكار الوجود الخارجى ، مقصوراً على الجوهر المادى فحسب ، بل امتد بوجه خاص إلى قانون من أهم قوانين الجوهر الروحى ، ومن أهم القوانين التى ترتبط على أساسها الأشياء ، ونعنى به قانون العملية ، فأثبت أن هذا القانون لا وجود له خارج العقل ، وإنما هو ترابط باطن ذاتى صرف بين الأفكار بعضها وبعض فى الذهن . ومصير الإيمان بالعملية إذاً هو العادة . ولكنهم ، على الرغم من كل هذا النقد ، كانوا لا يزالون يعملون الموضوع فى مقابل الذات ، أى يجعلون لكل منهما وجوداً مستقلاً قائماً بنفسه اسمه فى حالة الموضوع « الشئ فى ذاته » واسمه فى حالة الذات « الذات فى ذاتها » سواء منهم من أضاف هذا الوجود المستقل إلى الذات ومن أضافه إلى

الموضوع . وكل ما هنالك من فارق بينهم وبين من تقدموهم هو في تحديد هذا الوجود المطلق . أهو وجود الذات ، كما يقول بركلي ثم هيوم ، أم وجود الموضوع كما قال الواقعيون السابقون والمعاصرون؟ وبقى كل منهم مؤمناً بالوجود المطلق للأشياء أو للذات . فكان لا بد من القيام بخطوة في النقد حاسمة ، تقلب وضع المسألة ، فتحدث بذلك في التفكير ثورة هائلة .

وبهذه الخطوة قام كنت بمذهبه النقدي ، الذي يقوم في جوهره على أساس التمييز بين «الظاهرة» وبين «الشيء في ذاته» . ويستمد أصوله من نقد لوك ، ومثالية بركلي ، ووضعية هيوم .

وخلاصة هذا المذهب أن من الواجب أن نميز في موضوعات المعرفة بين ثلاثة أشياء . أولاً : الكيفيات الثانوية ، وهي تقوم على أعضاء الحس الفردية لدينا وعلى موضعنا في المكان . ثانياً : الكيفيات الأولية ، وهي موضوعية ومشاركة بين جميع الناس ، لأنها تقوم على تركيب العقل الإنساني نفسه ، لا على أعضاء الحس الفردية أو وضعنا في المكان . وثالثاً : الشيء في ذاته ، وهو مستقل عن العقل الإنساني ، وبالتالي خارج نطاقه ، فلا يستطيع إدراكه . وتتفق الكيفيات الثانوية والكيفيات الأولية في أنها مما لا يدلان على الأشياء في ذاتها ، بل على الأشياء كما «نظهر» لنا ، ولهذا فإنهما يكونان مجموعة واحدة هي «الظاهرة» أو

« الظاهر » فى مقابل « الشئ فى ذاته » أو « الواقع » ، لأن الكيفيات بنوعها ليست مستقلة عن العقل الذى يعرفها ، بل خاضعة له ، وبالتالى « نسبية » إليه ، وما فرقنا بين الكيفيات إلا على أساس أن الكيفيات الثانوية لا وجود لها إلا حين الإدراك ، بينما الكيفيات الأولية صفات ثابتة لموضوعات التجربة .

والمشكلة الحقيقية إذن هى فى الصلة بين « الظاهرة » وبين « الشئ فى ذاته » . وكنت فى تحديده لهذه الصلة ليس واضحاً ولا دقيقاً كما ينبغى . فهو يقول إن الظاهرة هى الشئ كما يظهر لنا ، أو كما هو بالإضافة إلينا ، لا كما هو فى ذاته . أعنى أن ثمت شيئاً واحداً ، هو فى ذاته مختلف عما يظهر لنا عليه . وهذه الظاهرة تظهر لنا فى الإحساس ، صادرة عن الشئ فى ذاته . ولكن ظهورها عنه لا يتم على هيئة انتقال من الشئ فى ذاته إلى الحساسية كما هو ، وإنما يخضع فى انتقاله الظاهر لقوانين خاصة بالحساسية : ذلك أن الحساسية لا تستطيع إدراك الأشياء إلا شاغلة لمكان ومسرودة فى زمان ، وهذا الزمان وذلك المكان إنما هما موجودان بالقطرة فى طبيعة الحساسية ولا وجود لهما فى الأشياء فى ذاتها . وفضلا عن ذلك فإنه لا بد ، من أجل إدراك العالم الطبيعى على ما هو عليه من تغير وتأثير متبادل ، من أن يضاف إلى الحساسية ، وهى سلبية ، الدهس بماله من فعل إيجابى ، فيضع مدلولات الحس فى قوالب عمارة

تنظيمها ، هي ما يسمى باسم المقولات ، أعني الصور العامة التي يدرك على أساسها الوجود . وهكذا نرى أن الشيء في ذاته يجب ، من أجل أن يدرك ، أن يمر خلال الحساسية بصورتها : الزمان والمكان ، والذهن بمقولاته من جوهرية وعلية الخ ومن هنا لانستطيع أن ندركه كما هو ، بل كما « يظهر » للعقل ، فالعالم الخارجي إذن كله ظاهرة ، أو عالم ظواهر لا عالم أشياء في ذاتها ، وإن كانت هذه الظاهرية أيضاً تتصف بالموضوعية ، من حيث أن الظاهر ليس بالنسبة إلى الحس المؤقت ، بل بالنسبة إلى الحس والذهن معاً وهو بالتالي كصور عامة ثابتة مغروزة بالفطرة في طبيعة العقل الإنساني ، الذي هو مشترك بين الأفراد أجمعين . والمهم في هذا كله أن العقل الإنساني لا يستطيع أن يدرك غير عالم الظاهر فحسب ؛ أما عالم الشيء في ذاته فخارج عن نطاقه ومجهول بالنسبة إليه

لكن إذا كان عالم الشيء في ذاته مجهولاً لنا بالضرورة ، فمن أين لنا أن نقول بوجوده ؟ وما معنى « الشيء في ذاته » ؟ إن عقلنا لا يستطيع إدراك الشيء إلا بحسب قوانينه الخاصة ، أعني مقولاته ، سواء مقولات الذهن ومبادئ الحساسية ، فمن أين لنا أن نقول عن الشيء في ذاته إنه الأصل في الظاهرة وعلتها ، مع أننا نقول عن العلية إنها من مقولات الذهن ؟ وكيف نتحدث عن « الأشياء في ذاتها » في صيغة الجمع ، ومقولة الكمية من مقولات الذهن ؟ وعلى

العموم : كيف نقول بوجود شيء ، لاسبيل لنا مطلقاً إلى إدراكه ؟
فما الذي دفع كنت إذن إلى القول بوجوده ؟

قال كنت بوجود « الشيء في ذاته » أولاً : بوصفه الأساس
لظهور الظواهر ؛ وظهورها يتم تبعاً للصور القبلية للحساسية ، أي
الزمان والمكان . وهذه الصور القبلية لا تدرك الأشياء إلا بحسب
طبيعتها وبالإضافة إليها ، أي أنها لا تستطيع أن تدرك من الواقع
إلا الواقع الظاهري . أعني أنه لا يمكن التحدث عن « ظاهرة » إلا
إذا كان هناك شيء يظهر ، يكون هو الواقع والحقيقي . فكما أن
كل متغير يقتضى بالضرورة ثابتاً ، كذلك كل ظاهرة تستلزم
بالضرورة شيئاً في ذاته . وثانياً : قال كنت بوجوده بوصفه تصوراً
محددًا من شأنه أن يحول بين الحساسية والذهن وبين أن يزعم أن
موضوعاتها هي أشياء في ذاتها وليست ظواهر ؛ أو بعبارة أوضح :
الشيء في ذاته فكرة تضطر إلى افتراض وجودها بوصفها الحد
الذي يجب أن يقف عنده مدى قدرة الحساسية والذهن على الإدراك .
ومن هنا أمكن أن نسمى هذه الفكرة فرضاً أو تصوراً احتمالياً
قصد به إلى تحديد نطاق المعرفة الإنسانية على الوجه الصحيح . ولما
كان هذا الفرض لا يتضمن تناقضاً في ذاته ، فلا حرج علينا إذن في
الأخذ به . أما مضمون هذه الفكرة الحقيقي وماهية هذا التصور
في الواقع ؛ فجهولان لنا كل الجهل .

ولكن ما قيمة هذين الاعتبارين في الواقع؟ أو ليس أولهما في تناقض واضح مع مقالة رئيسية من مقالات مذهبه، ونعني بها ما يقوله في « الاستدلال المتعالى » من أن التصورات الذهنية المجردة، ومن بينها مقولتنا العلة والواقع، غير قابلة للانطباق شرعاً على ماهو خارج عن نطاق التجربة والعيان التجريبي، فلا تنطبق إلا على ماهو مدرك في الزمان والمكان؟ لقد بدأ كنت كتابه « نقد العقل المجرد » بقوله إن كل معرفة إنسانية تبدأ بتأثير الموضوعات الخارجية على الحواس، وبفضل هذا التأثير تم للعقل المعرفة؛ لكنه عاد في باب « الاستدلال المتعالى » - ويعنى بالمتعالى ماهو فوق التجربة ولكنه في نطاق العقل، أى ماهو مركب في طبيعة العقل نفسه وغير مستخرج من التجربة الخارجية -، وإذا به ينقض نقطة البدء فيقول إن التصورات الذهنية المجردة لا انطباق لها إلا على التجربة، بينما الموضوعات، التى قال فى البدء إنها تؤثر فى الحساسة، متميزة من التجربة الحسية والامتثال الحسى، وبالتالي غير خاضعة للتصورات الذهنية المجردة. لقد تناقض كنت إذن مع نفسه، وكأت فكرة الشئ فى ذاته مصدر هذا التناقض. ولهذا كانت هذه الفكرة فى الواقع الهدف الدانى الذى صوب إليه خصوم كنت سهام تقدم. بل لم يقتصر الأمر على خصومه، وإنما امتد إلى أنصاره الذين رأوا ألا مناص من

استبعاد « الشيء في ذاته » من أجل إنقاذ مذهب كنت ، أو تفسيره على الأقل تفسيراً يتلاءم وبقيّة أجزاء المذهب .

وبدأ هؤلاء الأنصار فعلاً بهذا التأويل الذي زاد المسألة في الواقع تعقيداً فوق تعقيد . إذ جاء رينهولد محاول الإبقاء على الشيء في ذاته ، لكن في عبارات تكفي وحدها للقضاء عليه ؛ فقل : « إن الأشياء في ذاتها هي الأشياء الممتثلة باعتبار أنها غير قابلة للامتثال » ؛ « والموضوع الممثل ، باعتباره الشيء في ذاته ، ليس مطلقاً موضوعاً ممتثلاً » ؛ وإذا كان لمثل هذه العبارات معنى ، فهو أن الشيء في ذاته ليس له معنى . ولهذا نجد أن رينهولد قد اضطر آخر الأمر إلى إنكار الشيء في ذاته ، بعد أن أقنعه فشته بوجود العدول ٤٠٤ .

فقد وجد فشته أن منطق مذهب كنت نفسه يقضى بالتخلص من هذه الفكرة الدخيلة ، من هذا اللاشيء . إذ لاحظ أولاً أن من المستحيل على الذات ، أو الأنا كما يسميه ، التأثير بشيء خارج عنه ، وأن من التناقض التحدث عن شيء في ذاته هو في الآن نفسه لأنا صرف أو لا ذات خالصة ؛ وما التفرقة التي وضعها كنت ، بين الأشياء كما تظهر لنا وبين الأشياء كما هي في ذاتها ، إلا تفرقة موقّعة بل إن فضل كنت الأكبر ، في نظر فشته ، هو أنه خلص انفسفة من فكرة الشيء في ذاته ، بأن أثبت استحالة وجوده .

ونحن في الواقع فيما يتصل بقول كنت في فاتحة كتابه « نهد العقل
المجرد » بإزاء فروض ثلاثة : فإما أن يكون كنت قد قال بوجود
أشياء في ذاتها تؤثر في الذات العارفة ؛ وإما أن يكون قد أنكر
وجودها ؛ وأما أن يكون تفسيره لأصل الإحساس الخارجى غير
واضح كل الوضوح لديه . وفشته يضرب بالفرض الأول عرض
الحائط ، رافضاً إياه بشدة ، على أساس أن الذات لا يمكن أن يؤثر
فيها شيء خارج عنها ، شيء في ذاته متميز بنفسه من الذات أما
الفرض الثانى فيميل فشته إلى الأخذ به ؛ لكن لا باعتباره الفرض
الصحيح من الناحية التاريخية ، وإنما هو الفرض الصحيح بالنسبة
إليه هو وتبعاً لما يقتضيه مذهبه الخاص ، مذهب الأنا المطلق الذى
يضع نفسه بنفسه ، والذى هو المبدأ الأول الذى يصدر عنه كل
شئ ، وما عداه فهو مظهر من مظاهره فحسب . لكن لعل الفرض
الثالث أن يكون الصحيح من الناحية التاريخية ، خصوصاً أن
كثيراً من النصوص - التى لا يستطيع فشته أن يخضعها لتأويله في
يسر - يجعل الفرض الثالث محتملاً ، إن لم يكن يقينياً . فكأن
القول بالشيء في ذاته مرجعه إذن الغموض في ذهن كنت فيما يتصل
بتفسير أصل الإحساس . ولو كان كنت واضح الذهن في هذه الناحية
لقضى على هذه الفكرة أو لم يقل بها إطلاقاً . وإلا فإنه إذا كان
كنت قد قال أيضاً بالشيء في ذاته ، فأين إذن هذا المذهب النقدي

الذى أقام بنيانه ؟ أولا يقوم هذا للذهب فى جوهره على أساس استبعاد الشئ فى ذاته ؛ أو الجوهر القائم بنفسه ، الذى كان محور التفكير منذ القدم حتى كنت ؟ لأن قال به كنت ، لصار مذهبه لا يقل توكيداً عن المذاهب التوكيدية التى نصب نفسه لمحاربتها بكل قوة وبكل عنف .

وليس هذا فحسب . بل إن فى القول به دوراً وتحصيل حاصل . أو ليس هذا القول به قائماً على أساس الإحساس ، والإحساس بدوره يقوم على أساس فكرة الشئ فى ذاته ؟ إن القول به كالقول بأن العالم يحمله فيل عظيم ، وهذا الفيل العظيم يحمله العالم . ستقولون إذن ، وكيف تفسر قول كنت : إن الموضوع يؤثر فى الذات ؟ والجواب على هذا يسير : فالقول بأن الذات تتقبل تأثير الموضوع معناه بالدقة أن الذات تدرك نفسها باعتبارها متأثرة أو قابلة للتأثر . ذلك أن الذات تحدد نفسها بطبيعتها وبالضرورة ؛ وتدرك هذا التحديد لنفسها بواسطة اللاأنا الذى تضعه هى نفسها فى مقابل نفسها . وبعبارة أوضح ، إن من طبيعة الذات أن تضع لنفسها حدوداً بأن تتصور فى مقابلها شيئاً يضادها هو اللاأنا ، وفى هذا تكون فى حالة تأثر ، لكنه تأثر صادر عن نفسها ، لا عن شئ خارج عنها . وهكذا اتبيننا فى الواقع مع فشته إلى استبعاد الشئ فى ذاته نهائياً باعتبارها شيئاً قائماً بنفسه مستقلاً عن الذات . ولم يبق بعد هذا إلا الذات أو الأنا . والذات أو الأنا هى الوجود المطلق .

وذلك أن قول الإنسان : أنا موجود - وهو الواقعة الأصلية التي يبدأ منها كل تفكير في الوجود كما علمنا ديكرت - لو تعمقنا معناه لوجدنا أنه يدل على أن هناك « ذاتا » ، وأن هذه الذات تضع « وجودها » و « بنفسها » . أعني أن الذات تضع نفسها ؛ هي موجودة ووجودها مستمد من ذاتها ، لأنها هي التي وضعت وجود نفسها بنفسها . ولا يمكن الذات أن توضع بشئ غير نفسها ؛ وهي في فعلها - ووضعها نفسها بنفسها فعل - لا تتعلق إلا بنفسها . فلائها موجودة ووجودها من ذاتها يمكن أن يقال عنها إنها موجودة وجوداً مطلقاً ، أو بعبارة أخرى ، إنها الوجود للطلق . وفضلاً عن هذا فإن كل معلوم موضوع في الذات ، ولا يمكن أن يكون غير موضوع فيها ، أعني أن كل شئ مرده إلى الذات ، ولهذا فإنها من هذه الناحية كذلك ليست فقط ذاتا ، بل والذات المطلقة التي يرجع إليها كل وجود . ومن هنا فقد قضينا على للموضوع ولم يبق لدينا غير الذات ، الذات المطلقة التي تضع نفسها بنفسها ، وفي وضعها نفسها تضع كل الأشياء ، أي توجدها وتخلقها . وعلى هذا النحو قامت للمثالية الألمانية ممثلة في أقطابها الثلاثة : فشته وشلنج وهيجل ، على أساس انقضاء على للموضوع ورفع الذات إلى مرتبة للطلق ، وإن اختلفت وجهة النظر في تحديد ماهية الذات : فهي الأنا المطلق عند فشته ، وهي الهوية بين الذات والموضوع عند

شلنج ، وهى الفكرة اللانهائية عند هيجل ، وبالتالي على أساس
فكرة الشيء فى ذاته بوصفها بقية من بقايا الواقعية ، وأن فى
دخولها على المثالية هجنة وإفساداً .

وهنا جاء شوبنهاور فوضع مشكلة الشيء فى ذاته وضعاً جديداً ،
فيه أخذ بالنقد الذى وجه إليها ، وفيه أيضاً أخذ بالفكرة ذاتها
من حيث المبدأ ، مع تغيير حاسم فى المفهوم .

فقد عرف شوبنهاور فلسفة كنت بواسطة أستاذه شولتسه ،
الناقد الماهر لفلسفة كنت وخصوصاً لفكرة الشيء فى ذاته عنده
— فهو صاحب النقد الذى ذكرناه آنفاً وقلنا فيه إن كنت قد
تناقض مع نفسه حين جعل مصدر الإحساس الشيء فى ذاته ثم قال
من بعد إن ما ينطبق على التجربة من صور وقوانين ، ومن بينها
العلية ، لا ينطبق على الأشياء فى ذاتها ، وبالتالي أنكر هنا انطباق
العلية على الشيء فى ذاته ، بينما هو فى قوله الأول أثبت هذا الانطباق .
فكان من الطبيعى إذاً أن يفهم شوبنهاور كنت من خلال شولتسه ،
على الأقل فى أول الأمر ونحن نجد شوبنهاور فعلاً قد اخضع فكرة
الشيء فى ذاته عند كنت لنقدٍ عنيف منذ اللحظة الأولى . فنراه
أولاً فى رسالة الدكتوراه : « الجذر الرباعى لمبدأ العلة الكافية »
(سنة ١٨١٣) ، لا يكاد يذكر الشيء فى ذاته غير مرة واحدة ،
ومن أجل اتهامه ؛ بل وفى الطبعة الثانية استبعد هذه العبارة الخاصة

به . وفيما تخلف لنا من مذكراته عن سنة ١٨١٢ . ١٨١٣ يقول صراحة إن فكرة الشيء في ذاته عند كنت هي نقطة الضعف البارزة في مذهبه ، ويعجب من أن كنت لم يحلل في دقة مضمون هذه الفكرة ، وإلا لتبين له وشيكا أننا إذا انتزعنا من الموجود أمثاله ، أعنى ما تدركه الحواس ، لما بقي منه شيء . ثم يردد نقد أستاذه شولتسه فيقول إنه لا يفهم كيف إن كنت ، بعد أن قرر صراحة أن استعمال المقولات يجب ألا يتعدى نطاق التجربة ، يتحدث مع ذلك عن الشيء في ذاته بوصفه علة الظاهرة . ويتعمق هذا النقد في صورة أدق في الملحق الذي أضافه إلى الجزء الأول من كتابه الرئيسي ، تحت عنوان : « نقد فلسفة كنت » فيقول إن كنت لم يخضع فكرة الشيء في ذاته لتحليل مفصل دقيق ، وإنما يقول بها على أساس هذا البرهان ، وهو أن التجربة ، أي العالم المرئي ، لا بد أن تكون له علة معقولة ، لا هي بالتجريبية ولا هي بالمستمدة من التجربة . وهو يستخدم هذا البرهان بعد أن قرر من قبل مراراً أن تطبيق المقولات ، وبالتالي مقولة العلية ، مقصور على التجربة الممكنة ؛ وأن هذه المقولات ما هي إلا صور صرفة للذهن تنحصر كل مهمتها في ترتيب ظواهر العالم المحسوس ؛ أما وراء هذا العالم فلا مجال لاستخدامها ؛ ولهذا فإن كنت يحرم بشدة تطبيقها على أي شيء خارج التجربة ، ويقضى على كل المذاهب السابقة ،

لأنها لم تلتزم تلك الحدود . والواقع أننا نطبق قانون العلية على التأثيرات التي تعانيها أعضاء الحس لدينا ؛ لكن ، ولهذا السبب عينه ، هذا القانون مصدره ذاتي ، كالأحاساسات سواء بسواء ، ولا يمكن أن يفرض بنا إلى الشيء في ذاته . والحق أننا ما دمنا نسلك سبيل الامتثال ، فإننا لا نستطيع مطلقاً أن نتعدى الامتثال ، لأن الامتثال كل معلق لا يسرى منه شيء يؤدي إلى الشيء في ذاته ، هذا الذي يختلف كل الاختلاف عن مضمون التجربة . هذا إلى أن كنت قد أخطأ في عده الشيء في ذاته موضوعاً ، لأن كل موضوع يجب أن يكون في زمان ومكان وخاضعاً لقانون العلية ، بينما هو يقول عن الشيء في ذاته إنه خارج عن الزمان والمكان والعلية .

لكن هل معنى هذا أن الشيء في ذاته لا وجود له على الإطلاق ؟ كلا ، وإنما معناه أن هذا ليس طريق الوصول إلى القول بوجود الشيء في ذاته . فالقول به قول صادق ، لكن البرهان الذي ساقته كنت لا تدليل على وجوده غير صحيح ولا مؤد إلى المطلوب على وجه منطقي سليم ؛ أي أن النتيجة صادقة ولكن المقدمات كاذبة . وقد تنتج نتائج صادقة عن مقدمات كاذبة . وإنما السبيل القويم إلى إثبات وجوده وتحديد ماهيته يكون بالطريق المباشر ، طريق العيان حيث هو ، أعني في الإرادة ، التي تظهر مباشرة لكل إنسان على هيئة الأساس في ذاته لكل وجود ظاهري .

وليس المجال هنا مجال التحدث عن الإرادة بوصفها الشئ في ذاته ، لأننا سنكرس لها القسم الأكبر من هذا الكتاب ؛ وإنما نريد هنا أن نبين الدافع الذي حدا بشوبنهاور إلى القول بالشئ في ذاته مبدئياً ، على افتراض تحقيق معناه بالدقة فيما بعد ، بعد أن كان يعيل حتى الآن إلى استبعاده نهائياً على نحو ما فعل فشته قبل ذلك بقليل .

وبيان هذا أن شوبنهاور لم يتأثر بكنت فحسب إلى هذا الحد الكبير ، بل تأثر أيضاً ، وفي الوقت نفسه تقريباً ، بأفلاطون . فقد أخذ بما نصحه به أستاذه شولتسه من توجيه العناية كلها إلى أفلاطون وكنت والانصراف عما عداها ، خصوصاً عن أرسطو واسبينوزا ، وقد كان لاسبينوزا في ذلك الحين رواج هائل في الفكر الألماني ، خصوصاً عند أصحاب النزعة الرومنتيكية من فلاسفة وأصحاب فن . وكان تأثره بأفلاطون يسير جنباً إلى جنب مع تأثره بكنت ، وإن كان تأثره بالأخير بطبيعة الحال ، أعمق وألزم ، نظراً إلى روح العصر ، تلك الروح التي فرض كنت نفسه عليها بكل قوة ونفوذ .

وهنا عند أفلاطون وجد مذهب « الصور » أو المثل ، فأعجب به كل الإعجاب حتى كاد أن يجد فيه ما يستغنى به إلى حد غير قليل عن مذهب كنت . فإننا نجد يزداد تأثراً بمذهب الصور حتى ينتهي في هذا العهد عينه ، السابق مباشرة على وضعه فلسفته في صيغتها النهائية في كتابه الرئيسي ، إلى القول بأن « الصور » أو المثل

عند أفلاطون هي بعينها « الشئ في ذاته » عند كنت . ولم لا ،
وهما يتفقان في الصفات المميزة ، ونعني بها : أنهما عاريان عن الزمان
والمكان ، خارجان عن التعدد ، لا يخضعان للتغير ، وليس تمت
مجال للتحدث بالنسبة إليهما عن بدء أو نهاية ؟ لكنه لم يستمر على
هذا القول بأن « الصورة » هي « الشئ في ذاته » طويلا ، بل أضاف
إليهما سريعا « الإرادة » بوصفها هي أيضا الشئ في ذاته . فالإرادة
والصورة والشئ في ذاته كلها بمعنى واحد . لكن كان عليه أن
يحدد الصلة بين الصورة وبين الإرادة بطريقة أدق وأعمق : فقال إن الواقع
هو أن « الشئ في ذاته » عند كنت و « الصورة » عند أفلاطون
ليسا شيئا واحداً بالدقة ، وإنما هما متشابهان كل التشابه ولا يختلفان
إلا في شئ من التحديد البسيط . أما « الإرادة » فهي بالدقة
« الشئ في ذاته » الذي قال بوجوده كنت ، وأنكر مع ذلك
إمكان إدراكه . فما الصلة إذن بين « الإرادة » وبين « الصورة » ؟
إن « الصورة » هي أول مظهر موضوعي « للإرادة » ، أعني أنها
التحقق الموضوعي الأول للإرادة بوصفها الشئ في ذاته . والذي
اضطر شوبنهاور إلى هذا التعديل في النظرة إلى الصورة هو أنه
وجد الصور متعددة ، فليست هناك صورة واحدة ، بل هناك صور
عدة بقدر الأشياء للموجودة ؛ وهذا التعدد في الصور قد اضطر
أفلاطون نفسه إلى القول به ، وإن كانت فكرة الوحدة تحدته في
(م - ٥ شبنهور)

صمت ملح بوجود إنكار هذا التعدد . فلكني نحتفظ للبدء الأول
 إذا بوحدته ، لا بد لنا أن نضع مكان الصورة كبدء أول شيئاً آخر
 يصلح أن يكون واحداً . وبحث شوبنهاور عن هذا الشيء فوجده
 متحققاً في «الإرادة» ، فقال عنها إنها هي الشيء في ذاته ، أما الصورة
 فإنها التحقق الموضوعي الأول للإرادة .

استعاد « الشيء في ذاته » إذن وجوده من جديد على
 يد شوبنهاور ، لكن بعد تعديل المقدمات التي تسوق إلى القول به ،
 أعني مصادر المعرفة ، وبعد فهمه وتحديد ماهيته على نحو مختلف .
 ولهذا نجد شوبنهاور يطنب في الثناء على كنت ، ويعد أعظم ما أثره
 تلك التفرقة التي وضعها بين الظاهرة وبين الشيء ذاته لكنه لم
 يفعل ذلك كي يأخذ بما قال به كنت بمخالفته ، بل لكي يعطي لهذه
 التفرقة كل معناها ويهبها كل ما تحتمله من حدة . فإن كنت قد
 وضع هذه التفرقة ، لكنه لم يستخرج كل ما تحتمله من نتائج ،
 ولم يميز تمييزاً دقيقاً بين طرفيها ، بل كاد ، كما رأينا ، أن يجعل
 الحدود بينهما مفضية بعضها إلى بعض ، وكل هذا بطريقة فيها في
 الواقع خيانة لأصول منهجه .

والآن ، ما هو المعنى العميق الحقيقي لهذه التفرقة ؟

إن الناظر إلى ما يحيط به في الكون يشاهد كرات لامعة

متناهية العدد تسبح في المكان اللامحدود ؛ وعدداً ضئيلاً لا يتجاوز الاثنتي عشرة كرة أصغر حجماً وأسطع ضياءً تتحرك حول كل واحدة منها ، باطنها حار وظاهرها بارد متصلب ، ويرى كائنات حية عاقلة قد نشأت مما ران عليها من عنق . وهذا هو العالم كما يتراءى أمام ناظريه . فإذا حاول أن يحدد النظر قليلاً فيما يتراءى أمامه ، فسرعان ما يتناوله الجزع الداهل وهو يشاهد نفسه وسط هذا المكان اللانهائي دون أن يدري من أين أتى وإلى أية غاية هو سائر ، ومن حوله ملايين الكائنات الشبيهة به ، وكلها في تدافع وصراع وفناء وميلاد باستمرار . حتى إذا ما هدأ روعه قليلاً ، تأمل في شيء من الهدوء هذا المنظر الرائع ، ولكنه هدوء لا يزال يخضع لما استولى عليه أول الأمر من بهر وعجب ؛ فلا زال العالم يفرض نفسه على شعوره بقوة وسلطان لا حد لها ، فلا يحس بنفسه في الواقع وسط هذا الكون اللانهائي ، وبالتالي يرى أن العالم الخارجي هو الواقع وهو الحقيقة ، وما شعوره إلا ومضة عابرة قد فنيت وسط باهر نوره ، فينسى نفسه ، ويتجه بأسره إلى العالم المحيط كي يدرك قوانينه ونظامه ، ويتبين حقيقته . وهذا هو العلم بالمعنى الدقيق ، أعنى العلم الوضعي الذي لا يصل في الواقع إلا إلى إدراك القوانين التي تخضع لها ظواهر الوجود .

وهنا قد يحلوه أن يتسائل : هل هذا العالم المحيط بي موجود

حقاً؟ أو قبل هذا : هل العالم كما أتصوره هو بعينه العالم كما هو في ذاته أى في الواقع؟ لكن ما الصلة بين العالم المتصور والعالم الواقعي؟ غير أن الصلة لا تدرك إلا بالمقارنة، والمقارنة لا تكون إلا بين طرفين أولاً، وطرفين معروفين ثانياً، فهل ثمة طرفان؟ وإذا كانت المثل كذلك، فهل أعرف هذين الطرفين حتى يكون في وسعي بعد أن أعقد بينهما المقارنة؟ لكن إذا كنت أعرف الطرفين، فكيف يحق لي أن أتحدث عن طرفين اثنين؟ أولست أقول إن أحد الطرفين هو وحده الذى أستطيع أن أدركه، أما الآخر فليس كما أدركه. لكن هذا القول لا يتأتى إلا إذا كان لي علم في الواقع بهذا الشيء الذى لا أعلمه، حتى أقول إنه مختلف عن هذا الشيء كما أعلمه، وهذا كلام فيه دور، ولا بد أن يكون فيه هذا الدور، لأن كل شيء في الواقع مرده بالنسبة لي إلى المعرفة، معرفتي أنا الخاصة. فأنا أتصور عالماً، وهذا العالم لا أستطيع أن أقول إلا أنه هو وحده الحقيقي، لأنه إذا كان ثمت عالم آخر هو الحقيقي، فلا سبيل لي إلى إدراكه، فلا أستطيع حتى التحدث عن وجوده، ناهيك بمعرفة حقيقته وخواصه. ولكن، ما الداعي بعد هذا كله إلى افتراض وجود مثل هذا العالم الحقيقي المزعوم، وليس في وسعي كما هو ظاهر أن أصل حتى إلى وجوده؟ أو ليس مبدأ الاقتصاد في الفكر يقضى علينا دائماً بعدم التكثير في الفروض أو المبادئ.

بغير ما داع ولا علة؟ إن الحقيقة اليقينية الأولى بالنسبة إلى "هي حقيقة الفكر أو الشعور، كما علمنا ديكرت، وكل ما عداها فستمد منها وتقوم صحته عليها فهي إذن نقطة البدء التي يجب أن يبدأ منها كل تفكير في الوجود .

فما معنى هذه الحقيقة في الواقع؟ معناها أن كل شيء مرجعه الفكر أو الشعور، معناها أن هذا العالم الذي بهرني أول الأمر بعظمته وجلاله معلق بخيط دقيق كل الدقة، هو الفكر أو الشعور معناها في نهاية الأمر أن الشرط الضروري لوجود العالم، والذي بدونه لن تكون لهذا العالم حقيقة وجودية، هو الفكر أو الشعور أعني الذات العاقلة الشاعرة المفكرة .

هنا ترى الواقعي قد أنقض إليك رأسه وتبسم من قولك ضاحكا منكرآ . فتقول له : إنك تبدأ في الواقع من فرض لا تقدم عليه أدنى دليل، لأنك تفترض وجود عالم خارجي لا سبيل إلى القول به إلا بواسطة الفكر أو الشعور، والفكر أو الشعور هو وحده الحقيقة المباشرة، فرد كل شيء في الواقع إليه . وهذا واضح كل الوضوح : لأن الوجود الموضوعي، أي خارج الذات المدركة، لأي شيء، معناه أن تمت ذاتاً تدرك وفي مقابلها موضوع مدرك، ولما كانت الحقيقة الأولى المباشرة اليقينية هي وجود الذات، فإن

وجود الموضوع إذن مشروط بها ، أو بعبارة أصرح ، لا وجود للموضوع إلا في الذات .

فيعرض عليك الواقعي قائلاً : ولكن ذاتي أنا هي الأخرى موضوع بالنسبة إلى شخص آخر ، فهي إذن امتثال فحسب ، أعني لا وجود لها إلا في ذهن الآخرين . هذا ، وأنت تقول إن الحقيقة الأولى المباشرة هي وجود الذات بوصفها قائمة بنفسها وبالتالي لا حاجة بها إلى غيرها من أجل أن توجد . فإن قلت بهذا ، فأنت مضطر أيضاً إلى القول بأن كل شيء آخر له وجود قائم بنفسه ، لأنه في نفس الوضع الذي أنا فيه بالنسبة إلى الشخص الآخر المدرك . فإما أن نكون جميعاً امتثالات وبالتالي موضوعات ، وإما أن نكون جميعاً ذوات . وأنت قد بدأت بقولك إنك ذات ، بل بنيت على هذا القول كل برهانك وكل نظرتك في الوجود ، فلا بد من التسليم معي إذن بأن كل شيء ذات ، أعني أن له وجوداً مستقلاً قائماً بنفسه ، وليس امتثالاً فحسب .

فلا يسمع حينئذ إلا أن تقول له : على بسلك قليلا ، أيها السيد ! فإن هذا الشخص الآخر ، الذي اعدت نفسي بالنسبة إليه موضوعاً ، ليس فقط ذاتاً ، بل هو فرد عارف مدرك . وهو في معرفته لي وجعله لي في حالة موضوع بإزاء ذات ، إنما يدركني على

أنتى موجود فى المكان ، أى أنتى شىء ممتد قابل للفعل ، أى أنه لا يدرك منى إلا الوجود الجسمانى ، وهذا الوجود هو وحده الذى يكون من امثاله . أى الذى يعتمد على ذات مدركة ممثلة فى وجوده . أما أنا كذات مدركة شاعرة ، كذات ليست فى المكان ، فلا يمكن أن أكون موضوعاً بالنسبة إليه ، بل أنا ذات بكل معنى الكلمة ، أى شىء قائم بنفسه لا يستمد وجوده من غيره ، وفى كلمة واحدة ، « شىء فى ذاته » . والشىء فى ذاته لا يمكن بهذا الاعتبار أن يكون موضوعاً على وجه الإطلاق . ولعلك تسألنى بعد هذا فتقول : هل كل فرد إذن يمكن أن يعد « شيئاً فى ذاته » ؟ وأنا أبادر فأجيب : هذا هذا ؛ ولكن ليس بالدقة وبهذا التعبير والتحديد . وإنما الأدق أن تقول : إن كل فرد مشارك فى « شىء فى ذاته » واحد ، هو مظهر موضوعى لتحقيقه ، والمظهر الموضوعى متعدد ومن هنا نتحدث عن الأفراد فى صيغة الجمع ، أما « الشىء فى ذاته » فأخص خصائصه الوحدة . فإذا عدت من جديد تسألنى عن هذا « الشىء فى ذاته » ما هو ، فلن أسعفك الآن بالجواب ، بل سأدعك تنتظر حتى أحدثك عن إرادة الحياة .

فلتسلم معى إذن بأن « العالم من امثالى » .

وهذه العبارة هى إحدى الدعامين القويتين اللتين يقوم عليهما

كل مذهب شوبنهاور في الوجود ، وفيها يلخص الجانب الفكري بأسره من نظرتة في العالم ، بينما الجانب الوجودي يلخصه قوله : « إن العالم إرادة » . ولهذا جعلها نقطة البدء في فلسفته ، وحجر الزاوية في بنائه للذهبي ، استغفر الله ا بل في كل مذهب يمكن أن يقول به إنسان . ومن هنا يردد هذه العبارة دائماً وكأنها النعمة السائدة في كل هذه السيمفونية الرائعة التي أسماها مذهبها في الوجود ؛ ويتحدث عنها في لهجة تذكرنا بمحدث ديكارت عن عبارته المشهورة « أنا أفكر ، فأنا إذن موجود » ، لهجة توكيده قاطعة . فينعتها بأنها في وضوحها وفرضها نفسها على كل عقل كبداهيات إقليدس في الهندسة سواء بسواء ؛ ولن يفهمها إنسان إلا ويؤمن سريعاً بها ، وإن يكن مجرد سماعها غير كاف لهذا الإيمان واليقين ، لأنها من تلك الحقائق البسيطة التي هي صعبة بقدر ما هي بسيطة ، أو التي هي أصعب ما يكون لأنها من أبسط ما يكون . وإذا كانت هاهنا حقيقة قبلية أولية ، فهي تلك الحقيقة ، لأنها أكثر عموماً من كل حقيقة أخرى ، مثل الزمان والمكان والعلية ، لأن هذه الحقائق تفترض مقدماً تلك الحقيقة . فإن الزمان لا مجال للتحدث عنه قبل الاعتراف بوجود موضوع يمر في زمان ، وهذا الموضوع يستلزم وجود ذات في مقابله ، وإلا لما أمكن أن يسمى موضوعاً ، ولا مجال أيضاً للتحدث عن مكان ، إلا بوصفه الشيء الحاوي لموضوعات تفترض هي الأخرى

ذوات تقابلها ، كذلك العلية نسبة بين موضوعات بعضها وبعض أو ذوات وموضوعات بعضها وبعض ، وأيا ما كان فهي تفترض دائماً وجود الذات والموضوع . فكان هذه الحقيقة ، وهي التفرقة بين الذات وبين الموضوع ، والتي تعبر عنها تلك العبارة بكل دقة ، هي أعم الحقائق وأولاها ، لأنها تفترضها مقدما بأسرها .

وإذا كانت هذه أهميتها ، فلنتعمق إذن معناها .

ومعناها هذا على أنحاء ثلاثة : فهي أولاً الإشارة التي يجب أن توضع على كل فلسفة تقديية ، أعني حقيقية وهذه الفلسفة المقديية هي التي وضع أسسها الأولى كنت حين قال إن عالم الأجسام بدون الذات المفكرة لا وجود له ، وبهذا أحدث ثورة في الفلسفة كلها تشبه ثورة كوبر نيكس في عالم الفلك . فإن كوبر نيكس قد فسر الحركات « الظاهرة » للأجرام السماوية على أساس أنها تقوم على حركة الملاحظ على الأرض ، أعني أن الكواكب الثابتة لا حركة لها في ذاتها ، وإنما الرائي هو الذي يفترض فيها الحركة . وكنت هو الآخر يقول : إن الخواص « الظاهرة » للواقع مرجعها إلى عقل المدرك أو العارف ، بمعنى أن الأشياء ذاتها ليست زمانية ولا مكانية وإنما ظهورها لنا على هذا النحو يرجع إلى طبيعة العقل الإنساني نفسه الذي لا يستطيع أن يدرك الأشياء إلا وهي حالة في مكان وسارية في زمان . وبفضل هذه الثورة أصبح الزمان فينا ، بعد أن

كنا نحن فيه لأن الأصل في كل قول بالوجود ، كما يقول شوبنهاور ، هو الفكرة أو الشعور ، والإنسان لا يستطيع أن يخرج عن نطاق فكره أو شعوره من أجل أن ينظر في الأشياء الخارجة عنه المتميزة منه باعتبار أنها هي هو أو هو هي ، لأنه لا اتصال مستمراً بين الذات وبين الموضوع ، نظراً إلى أن الرابطة بين الاثنين لا يمكن أن تقوم إلا بواسطة قانون العلية ، فهو وحده الذي يسمح لنا بالاتصال من شيء معلوم إلى شيء آخر مختلف عنه . وقانون العلية إما أن يكون موضوعياً أو يكون ذاتياً ولا يمكن أن يكون الاثنين معاً وأياً ما كان ، فإنه في أحد الجانبين ، فلا يصلح بالتالي لأن يكون معقد الصلة بينهما فاذا قلنا مع لوك وهيوم إنه من أصل موضوعي لأنه مأخوذ من التجربة ، وبالتالي ينتسب إلى العالم الخارجي ، فلا يصلح إذن أن يكون ضامناً لحقيقة وجوده ، لأنه في هذه الحالة سيكون قانون العلية ثابتاً بالتجربة ، ومن ناحية أخرى ستكون حقيقة التجربة ثابتة بقانون العلية ، وهذا دور . وإذا قلنا على العكس من ذلك مع كنت إنه من أصل ذاتي ، فمن الواضح إذن أننا سنظل دائماً مغلقاً علينا في داخل دائرة الذات ، لأننا إن قلنا بأن هناك أشياء خارجية في ذاتها هي الأصل في إحساساتنا ، فاننا نطبق هنا قانون العلية ، وقد قلنا عن هذا القانون إنه من أصل ذاتي ، فكأننا سنظل باستمرار داخل دائرة الذات .

وأكثر من هذا ، ألسنا نحلم ؟ فمن يدري ، فلعل الحياة كلها أن تكون حلماً وإلا ، فما هو المعيار الصحيح للتمييز بين الحلم وبين الحقيقة ، بين الشبح أو الوهم ، وبين الموضوع الحقيقي ؟ لقد قال نفر من الفلاسفة إن هذا المعيار هو درجة الوضوح والتمييز في الإدراكات ، فهي أقل في حال الحلم ؛ أكبر في حالة اليقظة . ولكن هذا المعيار فاسد ، واضح البطلان ، لأنه من أجل أن يكون في وسعنا المقارنة بين الحالتين ، لا بد أن تكونا معاً حاضرتين ، ومن المستحيل على المرء أن تكون الحالتان حاضرتين معاً أمامه يتأملهما ثم يعقد بينهما المقارنة ؛ وإذا كانت الحال كذلك ، فلا مجال إذن للمقارنة ، وبالتالي لاستخدام هذا المعيار . قد يقال إننا نتذكر الحلم ، ثم نقارن ذكرى الحلم بالحقيقة الواقعية ؛ ولكن الرد على هذا القول بين ، وهو أن مجرد الذكرى كافٍ لإضعاف درجة الوضوح . فهذا المعيار إذن خاطيء .

وهناك معيار آخر قال به كنت ، وهو أن ارتباط التصورات أو الامتنالات فيما بينها وبين بعض على أساس قانون العلية هو المميز بين الحياة وبين الحلم . ولكن هذا المعيار أيضاً ليس بأسعد حظاً من الآخر ، لأن تفاصيل الحلم تتسلسل هي الأخرى تبعاً لمبدأ العلية في مختلف صورته ، ولا ينقطع هذا التسلسل إلا بين حلم وحياة أو بين حلم وآخر . فكل ما يمكن أن يقال إذاً عن هذا المعيار هو أن لدينا حلمين ، أحدهما طويل وهو الحياة والآخر قصير وهو حلم

الوسن ، وليس بين الاثنين اتصال مستمر يسير على قانون العلية هذا هو رد شوبنهاور على قول كنت . ولو امتدت به السن لكي يشاهد تطور علم النفس الخاص بالاشعور ، لأكد هذا القول أكثر فأكثر ، فلم يفرق حتى ولا بين الحلم القصير والحلم الطويل ، لأن الواحد في الواقع استمرار للآخر ، وما الوعي إلا مظهر عرضي زائل لا يفرق بالدقة بين هذين النوعين من الحلم ؛ فكل شيء إذن حلم .

ويضيف شوبنهاور إلى رده الأول حجة أخرى وهي أنه لو سلمنا جدلاً بصحة المعيار الذي قال به كنت ، فإن من الصعب جداً استخدامه ، إن لم يكن من المستحيل لأننا لا نستطيع إلا بجهد شاق ، بل لا نستطيع إطلاقاً أن نتبع التسلسل العلى حلقة حلقة بين كل حادث يمر في الحياة الواقعية وبين اللحظة الحاضرة ، ولو أننا لا نقول عنه مع ذلك إنه حلم لهذا السبب . ولهذا فإننا لا نستخدم هذا المعيار في الحياة المادية للتمييز بين الحلم وبين الحقيقة ؛ وإنما الوسيلة الوحيدة هنا هي المعيار التجريبي الصرف ، معيار اليقظة . ومع ذلك فما أكثر ما يخذعنا هذا المعيار ! أليست هناك أحلام اليقظة ، حين نكون منشغلين كل الانشغال بمسألة من المسائل ؟ في هذا النوع من الأحلام لا نستطيع أن نميز بالدقة بين كونها تجرى في اليقظة وكونها تجرى في النوم ؛ وحينئذ ليس أمامنا إلا معيار كنت ، إن تيسر استخدامه ، فإن لم يتيسر ، فليس علينا

أن نبحت بعد عما إذا كان الحادث الذي مر بنا حلمًا أو كان حقيقة .
ما أشبه الحقيقة بالحلم إذن !

فلنعترف إذن بأن الحقيقة والحلم سيان ؛ ولا داعي للخجل من هذا الاعتراف ، فإن كبار العقول من قديم الزمان لم يجدوا حرجاً في ترديد هذا . فهؤلاء حكماء الهند يخلو لهم دائماً أن يشبهوا العالم بالحلم ، لأنهم لم يجدوا تشبيهاً أصدق من هذا التشبيه . وهذا أفلاطون كثيراً ما يكرر القول بأن الناس إنما يحيون في حلم ، والفيلسوف هو وحده الذي يحاول أن يحيا في اليقظة ؛ وبندار ، الشاعر اليوناني الغنائي ، ينعت الإنسان بأنه حلم الظل . وهذا شكسبير من بين المحدثين قد عبر عن هذا أجمل تعبير وأصرحه في رواية « العاصفة » فقال : « لقد برئنا من نفس المادة التي صنعت منها الأحلام ؛ وحياتنا الضئيلة يحيط بها الحلم » . ثم كلدرون ، زعيم المسرح الأسباني ، قد جعل من هذا المعنى مسرحية من أروع مسرحياته الفلسفية ، دل على موضوعها - عنوانها ، ألا وهو : « الحياة حلم » .

وهذا يفضى بنا إلى التحدث عن المعنى الثاني لتلك العبارة الرئيسية وهي أن « العالم من أمثالي » . فقد تبين لنا من هذا التحليل الأول لمعناها أن كل وجود خارجي مرده في الواقع إلى

الذات . ومن هنا كان مذهب شوبنهاور في المعرفة مذهب الذاتية . ذلك لأنه لما كان العالم من امثالي ، فليس في استطاعة للراء إذن أن يدرك العالم كما هو ، إن كان هناك عالم آخر خارج العالم الممثل؛ وإن كان في وسعه ، فكل ذلك لا بد أن يتم من خلال جهازنا العقلي؛ وبحسب طبيعة هذا الجهاز ستكون طبيعة هذه الصورة التي نحصلها عن هذا العالم الخارجي المزعوم . وهذا ما أوضحه كنت أيضاً حين قال : « إن بين الأشياء وبيننا يوجد العقل دائماً وباستمرار ، ولهذا لا يمكن إدراكها بحسب ما عساها أن تكون عليه في ذاتها » . فكل معرفة إذن تدور في نطاق العقل كما يدور السنجاب في العجلة، على حد تشبيه شوبنهاور .

العالم إذاً من امثالي ؛ وبالتالي أستطيع أن أستنتج كل قوانين العالم من الذات . لكن، قبل هذا، هل الامتثال يجري على قوانين ، والموضوعات تخضع لقواعد عامة ثابتة ، وبعبارة أخرى هل العالم يسير على نظام ؟ شوبنهاور يؤكد هذا وينظر إليه على أنه حقيقة واضحة لدرجة أنه لم يضع لنفسه هذا السؤال بطريقة واضحة ، بل جعله مصادرة أولى، أو بالأحرى ، بديهية . وإذا كان هذا هكذا ، فما عليه إذاً إلا أن يبحث عن القوانين ، أو القانون الذي يخضع له هذا النظام بأسره . وهذا القانون بالطبع قبلي ، أي موجود في طبيعة العقل نفسه أو الذات وليس مستمداً من التجربة ؛ لأن كل

العالم الخارجي للزعم هو من الذات أو يسير حسب جهاز الذات .
ولهذا نستطيع من مجرد دراسة تركيب العقل الإنساني نفسه أن
نستخرج هذه القوانين (أو القانون) التي يسير بمقتضاها الفكر
والوجود معاً . فما هي إذاً هذه القوانين أو هذا القانون ؟

إنه قانون واحد هو للسيطر على الفكر والوجود معاً ، وهذا
القانون هو قانون أو مبدأ « العلة الكافية » . فكل امثالاتنا
مرتبة فيما بينها وبين بعض على نحو من شأنه أن يجعل الواحد منها
مرتبطاً بالآخر ، ولا شيء منها يقوم مستقلاً بنفسه أو منفصلاً عن
غيره . وهذا الارتباط ارتباط منتظم نستطيع أن نعينه قبلية ، أعني
قبل التجربة بوصفه مركزاً في طبيعة الذات . ومع ذلك فإن من
الأسر علينا أن نعين هذا القانون على وجه الدقة بطريقة بعدية ،
أي بواسطة النظر في مضمون التجربة وتمييز أنواع ما فيها من
موضوعات وما يخضع له كل نوع من مبادئ . وبعد تصنيفنا
لكل هذه الموضوعات ، أو الامثالات ، نرتفع بطريقة قبلية إلى
أصول هذه المبادئ ، أعني الملكات العقلية التي تخضع لها
الموضوعات وتستمد منها المبادئ .

فاذا اتبعنا هذا المنهج ، وصلنا إلى أربعة أنواع من الامثالات
أو الموضوعات : التأثيرات الحسية ؛ والتصورات ؛ والعيانات ؛

المجردة (الزمان والمكان) ، وأخيرا المشيئات . أما التأثيرات الحسية فيناظرها « مبدأ الصيرورة » أو المبدأ الفزيائي ، أى العلية بالمعنى العادى ، والتصورات يناظرها « مبدأ المعرفة » أو المبدأ المنطقي ، أى القوانين المنطقية المذهن ، والعيانات المجردة يناظرها « مبدأ الوجود » أو للمبدأ الرياضى ، أى الزمانية والمكانية ، والمشيئات يناظرها « مبدأ الفعل » أو المبدأ الأخلاقي ، أى الباعث . وكل مبدأ من هذه المبادئ الأربعة مستمد من ملكة عقلية خاصة : فمبدأ الصيرورة له ملكة « المذهن » ، ومبدأ المعرفة له ملكة « العقل » ، ومبدأ الوجود له ملكة « الحساسية » ، ومبدأ الفعل له ملكة « الحس الباطن » أو « الوعى الذاتى » .

لكن حذار أن نعد هذه المبادئ مستقلة وإنما هى شكول مختلفة لمبدأ واحد هو مبدأ العلة الكافية . ولهذا لا يسميها شوبنهاور باسم المبادئ الأربعة ، بل يقول عنها : « الجذر الرباعى لمبدأ العلة الكافية » ، وبهذا سمي رسالته للدكتوراه . فتمت جذر أو أصل واحد إذاً ، له أربعة فروع .

وقد عنى شوبنهاور بتوكيد هذه الوحدة ، استمراراً للتيار الذى بدأه رينهولد وبذل فيه جهوده كل من سالومون ميمون وبك وفشته ، وهو التيار الذى حاول أن يجعل فى الشكول القبليّة

للعقل عند كنت ارتباطاً وتماسكاً ووحدة أكثر فأكثر . وبلغ هذا التيار أوجه عند شوينهور : إذ أرجع كل هذه الشكول إلى مبدأ العلة الكافية ، وجعل منها شكولا فحسب لهذا المبدأ الواحد . ومن هنا نراه قد حمل على كنت حملة شعواء ساخرة في نظريته في المقولات . فقد قال كنت إن المقولات اثنتا عشرة مقولة ، وقد كانت من قبل عشرأ عند أرسطو ، أول واضع للوحة في المقولات . فنقد شوينهور « هذا الجهاز المعقد من المقولات الكنتية الاثنتي عشرة » ، وبخاصة مقولة تبادل الأثر ، إذ رأى فيها شناعة مخيفة شبيهة بشناعة اسبينوزا في قوله بالشيء أو الجوهر الذي هو بذاته علة ذاته أو ما هو « علة ذاته » . ولم يبق من هذه المقولات الاثنتي عشرة إلا على مقولة واحدة ، هي مقولة العلية . والواقع أن شوينهور في نقده مصيب . لأن المقولات عند كنت ليس بينها وبين بعض تماسك وثيق ، بل نجد على العكس من ذلك هوات غير معبورة بين المقولات بعضها وبعض مما أدى إلى تعددها على هذا النحو . هذا إلى أن كنت قد قال إلى جانب المقولات بالزمان والمكان باعتبارهما شكلين مجردين للعيان ، دون أن يربط ربطاً وثيقاً أو شبه وثيق بينهما وبين المقولات ، مع أنها تشترك جميعاً في كونها الشكول القبلية للعقل . ولهذا نجد النقد للوحة المقولات كما وضعها كنت يظهر وبشدة منذ اللحظة الأولى . ولكن أعمق نقد وأدق هو ذلك (م - ٦ شينهور)

الذي وجهه شوبنهاور ، خصوصاً وأنه قد نقدتها بطريقة موضوعية وذاتية معاً : فن الناحية الموضوعية أثبت بالتفصيل أن لا داعي لتسع من هذه المقولات ، فأرجعها جميعاً إلى واحدة ؛ ومن الناحية الذاتية فسر تكوين كنت للوحة المقولات على هذا النحو ، بأن أرجع ذلك إلى عيب واضح في فكره ، هو أنه كان شديد الولوج بالتناسب المعارى في وضعه لمذهبه دون أن يحفل أولاً وبالذات بما تقتضيه طبائع الأشياء في ذاتها ، فيضحى بهذه الأخيرة في سبيل تحقيق التناسب الانسجامى في بنائه المذهبي .

والآن وقد أكدنا وحدة شكول العقل القبلية ، نستطيع مطمئنين أن نتحدث في إيجاز عن مبدأ العلة الكافية في شكوله الأربعة . ولنبدأ بمبدأ التغير أو الصيرورة ، لأنه أهمها في نظر شوبنهاور ، ومن هنا كرس له كثيراً من التدقيق والنظر . فقال إن الظواهر مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً حتى إن كل شيء يتعين بشيء آخر، وكل ظاهرة تسبقها علة أو ظاهرة هي السبب في حدوثها . فكل تغير يحيل إلى آخر سابق عليه ، وهكذا إلى غير نهاية . وسلسلة العلل متصلة . ومعنى هذا أولاً أنها بالضرورة أزلية أبدية بمعنى أنه ليس لها بدء ولا نهاية ، ولهذا يسخر سخريه لاذعة من كل هذه التعبيرات التي استخدمها الفلاسفة المتأهلون ، مثل العلة الأولى ، علة ذاته ، المطلق ، وما شابه ذلك من أقوال فيها إنكا

للتسلسل العلى المتصل . وثانياً أن العلية تسلسل ، بمعنى أن المؤثر لا بد أن يسبق الأثر ، ولهذا تغاير على كل من قال بتبادل الأثر ، أعنى أن يكون شيئان يؤثر الواحد منهما فى الآخر فى نفس الآن ، كما رأينا من قبل فى نقده لهذه المقولة عند كنت : ومن هنا أيضاً تراه يقول إن العلة بالمعنى الدقيق هى التغير الأخير الذى يسبق مباشرة حدوث الظاهرة ويرتبط بها مباشرة .

وللعلية أنواع ثلاثة : علية لا عضوية ، وعلية عضوية ، وعلية حيوانية إنسانية : والأولى هى العلية بالمعنى الضيق ، والثانية هى المهيج أو المؤثر ، والثالثة هى الباعث . وتمتاز العلية فى الحالة الأولى بالتناسب بين العلة والمعلول فى الدرجة ، أعنى أن العلة فى حالة الأشياء اللاعضوية من آلية وفزيائية وكيميائية تنتج من الأثر بقدر ما فيها ، فيحدث فى العلة من التغير بقدر ما فى المعلول مما تحدته هى ، ولذا يمكن قياس درجة التأثير على درجة المؤثر . وبهذا تختلف العلية العضوية عن العلية اللاعضوية ، فإن مقدار العلة وقوتها فى حالة العلية العضوية لا يتناسب ومقدار المعلول وقوته ولا يمكن قياسه به . وإنما تؤدى قوة العلة إذا كبرت إلى القضاء على المعلول أو التأثير الذى يمكن أن ينتج . ومن كلتا العليتين تتميز العلية الحيوانية الإنسانية : فى هذه الحالة الأخيرة لا حاجة إلى التماس بين العلة والمعلول من أجل إنتاج الأثر . لكن ، وعلى الرغم

من هذا الاختلاف بين أنواع العلية ، فإنها تشترك جميعا في الجبرية العلية المطلقة. فالسلوك الإنساني خاضع لعلية دقيقة محكمة ضرورية بالطريقة عينها التي يخضع لها الحجر في تحركه . أعنى أن شوبنهاور ينكر حرية الإرادة كل الإنكار ، وينكر الاختيار لأنه يرفض الإمكانية ، أى إمكان وجود الإنسان في وضع يجد نفسه فيه مخيراً بين فعلين مختلفين . وهذا كله لأن قانون العلية يسود كل شيء في الوجود بمنتهى الدقة والإحكام .

والعلية في نسيجها هي المادة : لأن المادة جوهرها الفعل ، ولا معنى لها إلا حدوث الأثر والتأثر ، وحيث توجد المادة يوجد الفعل ، فهي إذن كل ما من شأنه أن يفعل : وإذا كانت المادة هي العلية ، والعلية صورة قبلية ، فالمادة هي الأخرى صورة قبلية ، بمعنى أنه لا وجود لها إلا في العقل ، أو يمكن أن تستخلص قبلها من العقل . والمادة هي الجوهر ، ولا جوهر غيرها . ويعدد شوبنهاور خواص المادة على أساس قبلي خالص ، في مقابل خواص الزمان والمكان ، وهي تتشابه تمام التشابه . وأهم هذه الخواص أنها أولا واحدة ، فليس تمت غير مادة واحدة ، وما المواد الجزئية غير حالات تشتت لتلك المادة الواحدة التي يطلق عليها اسم «الجوهر» ، ولهذا فلا يمكن من تحول المواد ، أيا ما كان تباعدها ، بعضها إلى بعض ، ذلك شئ يدل قبلها على أن المادة الواحدة التي هي اليوم

وصاص ، لا يمكن أن تكون غداً ذهباً ، لأن هذه أحوال للمادة الواحدة فحسب ، والأحوال قابلة لأن تتغير وتتعاقب على الموضوع الواحد ، وهو هنا المادة فلاختلاف بين المواد إذن اختلاف بالأعراض لا بالجواهر ، وتلك خاصيتها الثانية . ولها خاصية ثالثة ، وهي أنه ليس من الممكن تصور عدمها ، وكل ما نستطيع تصوره هو انعدام شكولها وكيفياتها ، أعني أعراضها فحسب . ومع ذلك فإن من الممكن تجريدتها في الذهن ، بعكس الزمان والمكان ، أعني أنه ليس في استطاعتنا تجريد الزمان والمكان في الفكر . وفي استطاعتنا أيضاً أن نتصور الزمان والمكان بدون المادة . وتفصيل ذلك أن الزمان والمكان أعلى درجة في العيان القبلي من المادة ، ولا يمكن بالفكر تجريدتها ، أما للمادة فإنها إذا اتخذت صورة الزمان والمكان ، فإن الفكر لا يمكنه تجريدتها ، أي تصورها معدومة . وكل ما يستطيعه أن يتصورها متنقلة في المكان ، أو متتابعة في الزمان ، لكن قبل اتخاذها صورة الزمانية والمكانية يستطيع الفكر تجريدتها وخاصية رابعة هي أن المادة ثابتة ، بمعنى أنها لا تزيد ولا تنقص ، وفي هذا بقاءها ، ولا تخضع بالتالي للكون والفساد ، وإنما فيها يتم الكون والفساد . وهذا أخذ القانونين الرئيسيين اللذين تخضع لهما المادة ، ويسمى قانون «بقاء المادة» . أما القانون الآخر فهو قانون القصور الذاتي القائل بأن الشيء يظل ثابتاً على حاله

طالما لم يطرأ عليه شيء آخر يسبب تغيره . وكلا القانونين مستخرج
مباشرة من المادة بوصفها العلية .

وإذا أمعنا النظر في فكرة المادة هذه، وجدنا أولاً أن شوبنهاور
كان مثالياً ، متطرفاً في مثاليته ، حينما جعل المادة من صنع العقل ،
بوصفها صورة قبلية من صورته ، بل وصورته الوحيدة بوصفها
العلية . فكان في هذا أقرب ما يكون إلى المثالية عند فشته ، ومن
قبل عند بركلي حينما قضى على المادة . ولكننا نجد بعد ذلك
يضيف إلى المادة صفات تجعل لها وجوداً مستقلاً قائماً بذاته . فهو
يقول إن فيها عنصراً بعدياً . وبهذا العنصر تتميز في قبليتها من
الزمان والمكان : فدرجة القبلية في هذين أكبر منها في المادة ،
ومصدر الاختلاف وجود ذلك العنصر البعدى الخالص . خصوصاً
ونحن نراه ينعتها بأنها الموضوع الباقي الثابت لكل أنواع التغير ،
وبأنها طرية عن كل صورة وكل كيفية . ومثل هذه النزعة لا يمكن
أن تضاف إلى المادة إلا إذا كان لها وجود مستقل ، أى إذا تصورت
على نحو ما يتصورها الفزيائيون .

ومن أجل هذا كله نجد باحثاً عظيماً مثل فولكلت يقول هنا
إن شوبنهاور تذبذب في فكرته عن المادة بين النزعة المثالية الخالصة
والنزعة الواقعية الساذجة : فالمادة من ناحية هي العلية ، وبالتالي
شكل من الشكول القبلية للعقل أو الشكل الوحيد القبلي له ، ويقول

عنها بصراحة إنها « بالنسبة إلى العقل فحسب ، وبواسطة العقل وحده ، ولا وجود لها إلا في العقل » . ولكنه من ناحية أخرى ينظر إليها بعين العالم الطبيعي أو الفزيائي ، فيتصور لها وجوداً مستقلاً ، وكأنها الشيء في ذاته . يضاف إلى هذا أنه ينظر إليها بنظرتين مختلفتين : فيجعلها معقولة من ناحية ، لا معقولة من ناحية أخرى . هي معقولة باعتبارها العلية ، والعلية معقولة صرفة ، لأنها مقولة العقل الوحيدة ، ولكنها غير معقولة من حيث صلتها بالزمان والمكان . فإن شوبنهاور يقول عن المادة إنها « حاصل ضرب الزمان في المكان » ، فلها من المكان الثبات ، ومن الزمان التغير . وإذا كانت كذلك ، وكانت من ناحية أخرى هي العلية ، فإن مقولة العلية مشتقة إذن من الزمان والمكان ، وهذان إذاً هما الأصل . وهذا يضفي على المادة طابعاً صوفياً لا معقولاً ، كما يقول فولكيت ، فضلاً عن أن شوبنهاور سيقول عن المادة في ملاحق كتابه الرئيسي إنها الإرادة ، أي الشيء في ذاته باعتبارها مدركة بالعيان، أي باعتبارها متخذة شكل الامتثال الموضوعي : فما هو مادة موضوعياً هو ذاتياً إرادة ، والإرادة قوة مظلمة لا معقولة عمياء وحشية . فإذا كانت المادة مظهرها الموضوعي ، فكيف تكون المادة إذا معقولة ؟

في فكرة شوبنهاور عن المادة تذبذب إذاً ، إن لم يكن فيها تناقض صريح . فكيف نفسره ؟ هل نقول مع فولكيت إن في

فكر شوبنهاور ازدواجاً أو تناقضاً موضوعياً ، بمعنى أنه قال بالأتجاهين: الواقعي وللثالثي معاً وفي آن واحد ؟ أو تنكر ، بواسطة هذا المنهج الموضوعي عينه ، وجود هذا التناقض ، فنحاول ، كما فعل رويسن ، أن نرفع هذا التناقض بطريقة عقلية مثبتين أن شوبنهاور كان مثالياً ولم يكن أيضاً مادياً كما ادعى فولكات ؟ لن نقول هذا ولا ذاك ، لأننا سنفسر المسألة مستخدمين منهجاً آخر . هو المنهج التاريخي ، أعني منهج التطور الروحي للفيلسوف .

وحيث نرى أن شوبنهاور كان في الطور الأول الذي ينتهي بالجزء الأول من كتابه الرئيسي (سنة ١٨١٩) مثالياً واضحاً ، فقال عن المادة إنها من صنع العقل ، ولا وجود لها إلا في الامتثال . أما في الطور الثاني الذي ينتهي بظهور الجزء الثاني (١٨٤٤) وهو الطور الذي يمتاز خصوصاً بسيطرة فكرة الإرادة باعتبارها الشيء في ذاته على فكره ، فقد كان ذاميل إلى المادية ، وإن بقي إلى حد كبير مثالياً مع ذلك . ولذا نراه في الطور الأول يؤكد دائماً أن المادة من امتثال الذات ؛ بينما نراه على العكس من ذلك في الطور الثاني يقول عن المادة إنها مظهر الإرادة ، أي مظهر الشيء في ذاته ، فلها بالتالي من الاستقلال بالوجود ما للشيء في ذاته أو بدرجة أقل على أقل تقدير ، ولكن لها وجوداً قائماً بنفسه على كل حال إلى حد كبير . وهذا التطور في فكر شوبنهاور طبيعي : تقتضيه طبيعة التأثيرات

التي يخضع لها . فقد كان في الطور الأول لا يزال شديد التأثير
بالمثالية التي سادت الفكر الألماني في ذلك الحين ؛ بينما كان في الطور
الثاني أكثر حرية في خضوعه لها وأكثر تأثراً بالنزعة المادية التي
بدأت تفرض نفسها على الفكر الأوربي ، في الربع الثاني من القرن
التاسع عشر أول الأمر والربع الثالث على وجه أخص ، بفضل كارل
فوجت وموليشوت وبوشنر من الماديين الصريحين ، وفويرباخ
وانباز وماركس من أتباع الفلسفة الهيجلية ، تلك المثالية المتطرفة
فكأن هذا التطور في فكر شوبنهاور هو نفس التطور الذي سار
عليه الفكر في الزمان الذي عاش فيه : وهو تطور سار من المثالية
المتطرفة عند فشته وهيجل ، إلى المادية المتطرفة كذلك عند فوجت
وبوشنر .

ونحسب أن في هذا التفسير التاريخي ما يغنيننا عن التعسف
الذي اضطر إليه رويسن ، وعن المشاهدة الساذجة التي قنع بها
فولسكت . وإن في الحوار الذي صدرنا به هذا الفصل لأجل تعبير
عن هذا التطور الذي عاناه شوبنهاور في فكرته عن المادة أو
بالأحرى في مجرى تفكيره العام ، من مثالية متطرفة كادت أن تكون
من نوع مثالية فشته ، إلى مادية معتدلة اقتضاها منطق التطور
الروحي للفكر الأوربي إبان تلك الفترة من الزمان . ونتج من
هذا كله ازدواج متحد ، إن صح هذا التعبير : ازدواج من حيث

أن لكل من الذات والمادة وجودها المستقل ، واتحاد من حيث أن هذا الازدواج لا يوجد إلا في الذهن الذي مجرد ، أما الاثنان في الواقع فليستا غير جزئيين ضروريين في كل يشملهما جميعا ولا يوجد بدونهما ، كما لا يوجدان هما بدونه ، وهذا الكل هو الإرادة ذات المظهرين : المظهر الموضوعي وهو المادة ، والمظهر الذاتي وهو الذات . وهذا ما أجمله شوبنهاور فقال : « إن العالم باعتباره امتثالا ، العالم الموضوعي له إذا قطبان : الذات العارفة المجردة البسيطة ، العارية عن صور معرفتها ، ثم المادة الساذجة الخالية من الشكول والكيفيات . وكلاهما غير قابل إطلاقاً لأن يدرك : الذات ، لأنها الشيء الذي يدرك ، والمادة ، لأنها بدون الشكول والكيفيات ، لا يمكن أن تكون موضوعاً لعيان . ولكنهما معاً مع ذلك الشرطان الجوهريان لكل عيان تجريبي . . . وكلاهما معاً ينتسب إلى الظاهرة ، لا إلى الشيء في ذاته ! ولكنهما المادة الأولية الضرورية لكل ظاهرة وليس في الإمكان تحصيلهما في الذهن إلا بالتجريد ، لأنهما لا يوجدان على صورة خالصة وفي ذاتهما » .

وهكذا نرى أن شوبنهاور قد انتهى في الواقع إلى نوع من الثنائية ، وإن كانت هذا الثنائية موقته لا تقوم إلا في الفكر فحسب حين التجريد . وهذا هو المعنى الثالث الذي رآه فولسكات في عبارة شوبنهاور المشهورة : « العالم من امتثالي » .

فلنتقل الآن من مبدأ الصيرورة إلى مبدأ المعرفة ، وهنا بدلا من أن يسود المبدأ الأحداث المتغيرة ، سيقوم للبدا ، مبدأ العلة الكافية ، للتحكم في عالم التصورات . والتصورات هي الامتثالات المجردة التي بالتفكير بواسطتها يتميز الإنسان من الحيوان ؛ وتختلف عن موضوعات العالم الخارجي في أنها ليست موضوعات مستقلة ، بل هي تجريدات كل مهمتها تركيب الأحكام أو القضايا .

وبهذا تختلف قيمة « التصورات » عند شوبنهاو عنها عند هيغل ، فعند هيغل أن التصور هو الموضوع الحقيقي في المنطق ؛ والحكم بواسطة « التصور » هو الذي يربط المحمول بالموضوع ، ولكن في الموضوع نفسه ؛ والبرهان بواسطة « التصور » هو الذي ينمى طبيعة الموضوع ويستخلصها . « فالنبته ، بنموها من البذرة ، تقوم بالحكم على نفسها » ، أعني أنها تصير شيئا فشيئا ما هيته بأن تحصل على تمام وجودها ونضجها . وبعبارة أوضح ، نحن في الحكم لا نضيف شيئا جديداً خارجياً إلى للموضوع وغير متضمن فيه على هيئة الكون ، وإنما نحن نفصل ونعرض ما يحتوي عليه للموضوع ، ولهذا فإننا نستخلص في الواقع ما هو قائم مما هو مجرد ، أى نتقل من التصور إلى الواقع .

فكان التصور إذاً أغنى من الامتثال أو العيان التجريبي ؛ لأنه موجد والأصل فيه . وصدق الحكم إذن يستمد هو الآخر

من الموضوع نفسه مادام الحكم تنمية فحسب لمضمون الموضوع ،
أعنى تفصيله وعرضه باطبياً . ومن هذا استطاع هيجل أن يستخلص
الواقع القائم العيني من التصور المجرد المنطقي ، وأن يشتق ، في كلمة
واحدة ، الطبيعة من الفكر ، بعكس شو بنهور الذي نظر إلى التصور
باعتباره أفقر من الامتثال التجريبي انقائم لأنه « امتثال الامتثال » ،
وكما ازدادت درجته في التجريد ، كان أفقر . ولكن للتصور
ميزة خاصة ، هو أنه يبسر التفكير ، لأن التصور أبسط من المدرك
الحسي . ومع ذلك فإن قيمة التصور دائماً في قربه من المدرك الحسي
والعيان الحسي ، لأن هذا أقرب إلى الواقع المحسوس من التصور ،
ومن هنا جاءت أهمية العملية التي يربط فيها الإنسان بين التصورات
بعضها وبعض من أجل بيان الاتفاق بين التصور وبين العيان ، وهي
العملية المسماة باسم الحكم ، وفيه نعبر عن اتفاق أو عدم اتفاق بين
الواقع وبين التصورات .

فالحكم إذن يستمد قيمته من الواقع في نهاية الأمر . أعنى أن
كل حكم لا بد له من علة كافية يثبت بها صدقه . فهو إذاً خاضع
لمبدأ العلة الكافية على صورة مبدأ المعرفة . فما هو إذاً هذا المبدأ ؟
للمعرفة ذات أنواع أربعة فهناك أولاً معرفة منطقية وفيها يكون
الحكم قائماً على أساس حكم آخر ، فعلته الكافية إذن حكم يستخلص
هو منه بالضرورة ، كما هي الحال في الاستدلالات المباشرة وفي

الاستدلال القياسى . فنحن لا نعلم هنا إذاً على واقعة عيناها ،
أى لا يتوقف الحكم الجديد على المضمون المادى لحكم أو أحكام
سابقة ، وإنما الصدق فى الحكم يستمد من الصورة التى للحكم
أو الأحكام السابقة ، ولهذا كانت الحقيقة حقيقة صورية خالصة ،
والصدق صورياً صرفاً . أما إذا اعتمد الحكم على عيان تجريبى
ومشاهدة واقعية عيناها ، فإن الصدق يكون حينئذ معتمداً على
التجربة ؛ ولهذا يسمى تجريبياً والمعرفة تجريبية ، وهو النوع الثانى
من أنواع المعارف . وتمت نوع ثالث لا نعتمد فيه على التجربة
ولا على حكم سابق ، بل نعتمد فيه مباشرة على الشكول القبلىة
للمعرفة العيانة ، أى على القوانين القبلىة الموجودة بالفطرة فى طبيعة
العقل الإنسانى . ومن هذا النوع كل الأحكام الرياضىة الخالصة :
مثل $2 \times 2 = 4$ ، زوايا المثلث تساوى قائمتين الخ . وهذا النوع
هو الذى وجه إليه كنت عناية خاصة وسماه باسم الأحكام التركيبية
القبلىة . فهى تركيبية ، لأننا فى الحكم نأتى بجديد لا يستخرج
مباشرة من مفهوم الشئ المحكوم عليه مثل المثلث هنا فى المثال
الثانى ؛ وقبلية ، لأننا لا نلجأ فيها إلى التجربة ، بل نعتمد على قوانين
مركبة فى طبيعة العقل نفسه وسابقة على كل تجربة . وهذه الأحكام
تعبّر عن حقيقة لا هى منطقية ، ولا هى تجريبية ، بل يسميها كنت
باسم « المتعالية » أعنى السابقة على التجربة ، ولو أنها فى داخل

نطاق العقل وليست «طالية» عليه . ولكن هذه الأحكام الثلاثة كلها تعبر عن تطبيقات لقوانين الفكر على أحوال جزئية : أما النوع من الأحكام الذى فيه يعبر عن هذه القوانين نفسها لا عن تطبيقها فيسميه شوبنهاور باسم الأحكام ذات الحقيقة بعد المنطقية . فالأحكام هنا ، وعددها أربعة بالضبط ، لا تعتمد على أحكام غيرها ، بل على الشروط الصورية لكل تفكير ، المغروزة فى طبيعة العقل نفسه ، أى تقوم إذاً على وقائع شعورية مباشرة . وهذه الأحكام هى أولاً : كل شئ يساوى مجموع محمولاته أو صفاته (قانون الذاتية) ، ثانياً : لا يمكن أن يضاف محمول أو صفة إلى موضوع ويرفع عنه فى الآن نفسه ومن جهة واحدة (قانون التناقض) ، ثالثاً : من كل محمولين أو صفتين متقابلتين بالتناقض يجب أن تضاف واحدة إلى للموضوع (قانون الثالث المرفوع) ، رابعاً : الحقيقة هى الرابطة بين حكم وشئ خارج عنه هو علتة الكافية .

وليس فى وسعنا هنا الدخول فى تلك المناقشات الكثيرة التى أثبتت حول قيمة هذا التصنيف ، وإنما ننتقل مباشرة إلى الكلام عن المبدأ الثالث : مبدأ الوجود الذى يسود الامتثالات المستخلصة من شكول العيان المجرد أو بعبارة أوضح الزمان والمكان . والامتثالات هنا تمتاز من الامتثالات الحسية التى هى موضوع مبدأ التغير بأنها امتثالات مجردة ، أى غير مرتبطة بالتجربة ، وإنما

التجربة هي التي ترتبط بها . فلو صرفنا النظر عن كل مادة حسية ،
تبقى لنا مع ذلك الزمان والمكان . أما التجربة فلا تبقى إذا صرف
النظر عن المادة وبالتالي عن الزمان والمكان ، اللذين منهما تنشأ .
والمادة باعتبارها الوجود الواقعي إنما تكون بفضل الزمان والمكان ،
وقبل هذا كما قلنا من قبل ، تكون تجريبياً يمكن تصور عدمه .

ولهذا فإن هذا المبدأ ، أعنى مبدأ الزمان والمكان ، يسمى
الوجود ، وهو يعبر عن رابطة بين الموضوعات ، تسمى في حالة
الزمان باسم « الوضع » . وللزمان بعد واحد ، بمعنى أن كل جزء
من الزمان يتعين فقط بالجزء السابق عليه مباشرة ، أما جزء المكان
فيتعين بأبعاد ثلاثة . ولكن التعيين في حالة الزمان محدود ومشروط
باللحظة السابقة بالضرورة ، أما في حالة المكان فأية نقطة تصلح
لتعيين الأخرى . وهذا ما يعبر عنه بقولنا إن المكان معية في
الوجود مطلقة وتجانس صرف ، بينما الزمان تتابع في الوجود مستمر
ولا تجانس خالص .

وإدراكنا للروابط بين أجزاء الزمان والمكان لا يتم إلا بواسطة
العيان المجرد . فالأعلى والأسفل ، والأيمن والأيسر ، والأمامي
والخلفي لا يمكن التمييز بينهما إلا بواسطة عيان مباشر لهذه الروابط
بين أجزاء المكان ، أي بواسطة إدراك مجرد مباشر للتلاصق في

للمكان ، فلا التجربة ولا التصورات الذهنية المجردة قادرتان على هذا الإدراك . ولهذا نرى شوبنهاور يحمل بعنف على الهندسة كما وضعها إقليدس . فإن إقليدس يضع مكان البيئة العيانية البيئة المنطقية التصورية في هندسته . ومثله في هذا ، على حد تشبيه شوبنهاور ، مثل من يقطع رجله ليسير متوكئا على عكازة . ذلك أننا نشاهد في براهين إقليدس أنها تقنع العقل ، ولكن دون أن تنيره ، أعنى أننا نعتزف بالضرورة بأن ما يبرهن عليه إقليدس هو كما يبرهن عليه ، ولكننا لا نتبين لماذا كانت الحال كذلك . « ولهذا يشعر الانسان ، بعد كثير من براهين إقليدس ، بشيء من القلق الذي يشعر به بعد مشاهدة الألعاب الشعوذة ، وبراهينه تشبه في الواقع هذه الألعاب إلى حد عجيب . فتكاد الحقيقة عنده أن تدخل دائماً من الباب السرى الصغير » . وخطأ منهج إقليدس راجع إلى المعنى القائل القديم القائل بأن الحقيقة الثابتة بالبرهان أعلى درجة في اليقين من الحقيقة الثابتة بالعيان والوضوح المباشر ، وإلى عدم إدراك هذه الحقيقة التي اكتشفها كنت لأول مره ، وهي أن الزمان والمكان يدركان مباشرة بواسطة العيان المجرد المستقل عن كل عيان تجريبي أو تصور مجرد .

والمبادئ التي درسناها حتى الآن مبادئ تتصل بموضوعات الامتثال . فالعيانات الحسية والتصورات والعيانات المجردة كلها.

أشياء تبدو كأنها صادرة من الخارج في امتثال الذات العارفة ،
فهي إذاً تستنفد كل العالم كامتثال ؛ لكن بقي هناك شيء رابع
هو الذات نفسها التي تقوم بهذا الامتثال ، أعني بتصور العالم .
فهل هي الأخرى تخضع لمبدأ العلة الكافية ؟ أجل ؛ لأن الذات كما
رأينا من قبل في مقابل موضوع ؛ ومعنى أنها ذات ، أن يازأها موضوعاً
تمثله . ولكن على أي نحو يظهر الموضوع للذات ؟ على أنه
« موضوع مشيئاتها » . فنحن حينما نتأمل أنفسنا باطنياً نشعر بأن
مهمتنا لا تقتصر على المعرفة ، بل إن المهمة الأولى والسائدة هي
الإرادة . فأنا لا « أعرف » في الواقع إلا ما « أريد » أن أعرفه ،
أي أن الإرادة تسبق الفكر . ويحرص شوبنهاور كل الحرص على
توكيد هذا المعنى بعكس أرسطو الذي قال إننا نريد الشيء لأننا
نعرفه ، أولى من أن نعرفه لأننا نريده ؛ فالمبدأ عنده هو الفكر
لا الإرادة . وفي هذا تظهر النزعة الإرادية عند شوبنهاور بوضوح
وهي النزعة التي نجد مثيلاً لها في العصور الوسطى عند دنس اسكوت .
ولا داعي هنا للتحدث عن الإرادة في ماهيتها الميتافيزيقية ؛ لأننا
سنتناول هذا بالتفصيل فيما بعد ، فنجتزئ بالقول بأن الإرادة
عند شوبنهاور هي الأساس المشترك بين الذات وبين الموضوع ،
والموضوع والذات هما في الإرادة مادياً شيء واحد ، وإن كنا نميز
بينهما صورياً . ولكننا لا نجد الإرادة كاملة أمامنا ، وإنما ندرکها
(٧ - شوبنهاور)

على هيئة مجموعة من الأفعال الإرادية المسماة باسم المشيئات . وكل فعل إرادي هو بطبيعته محتاج إلى علة له ، فلا فعل إرادياً بدون علة . وهذه العلة تسمى في هذه الحالة باعثاً : فالباعث بالنسبة إلى العقل هو العلة بالنسبة إلى المعلول ، وعلى حد تعبير شوبنهاور « الباعثية هي العلية منظوراً إليها من الداخل » . وهذا الباعث هو مبدأ العلة الكافية في صورة مبدأ الفعل . ولهذا المبدأ ميزة خاصة يمتاز بها على المبادئ الثلاثة الأخرى ، وهي أنه يسمح لنا بالنفوذ إلى أعماق نفوسنا . « فنحن هنا نجد أنفسنا وراء الستار ، نافذين أركان السر ، على علم بما يجري عليه الفعل في أعماقه ، لأننا هنا نعرف أنفسنا بطريقة أخرى مختلفة كل الاختلاف » ، لأننا هنا نستبطن أنفسنا ونحضرها .

ذلك إذن هو قانون أو مبدأ العلة الكافية بمجذوره الأربعة ؛ وهذا المبدأ هو الذي يحكم الوجود بأكمله ، لأن العالم كما قلنا امتثال ، يتم تبعاً لمبدأ العلة الكافية بأشكاله الأربعة . فما هو إذاً الذي يقوم بهذا الامتثال ؟

إنه الذهن . ذلك أن شوبنهاور ينكر مذهب كنت في تقسيم وظائف ملكات النفس ، وهو التقسيم الذي يقوم على أساس أن الامتثال من شأن الحساسة ، بينما الذهن مهمته التفكير فحسب ، فلا يستطيع الإدراك الحسى ، كما أن الحواس لا تقدر على التفكير . فيقول إن الحساسة لا تقدر على الامتثال ، لأن مدلولات الحس

لا تقدم لنا غير شعور غامض كيني خالص أشبه ما يكون بشعور النبات ، لأنه لا يكاد يتعدى التهييج الجسماني الصرف . فلا بد أن تأتي ملكة أخرى بعد ذلك تنظم هذا الخليط الغامض المضطرب من الآثار الحسية فتجعله إلى موضوعات متميزة محدودة . وهذه الملكة هي الذهن . ويصيح شوبنهاور متعجبا : « يجب أن تكون لعنة الآلهة أجمعين قد صبت علينا حتى نتصور أن هذا العالم المدرك ، الموجود في الخارج ، كما هو ، والذي يملأ المكان بأبعاده الثلاثة ، ويتحرك تبعاً لمسير الزمان ، هذا المسير القاسى الجبار ، وينظمه في كل خطواته قانون العلية الذي لا يحتمل شذوذاً عنه وانحرافاً ، ولا نخضع في هذا كله إلا لقوانين لا نستطيع صياغتها قبل كل تجربة تتعلق بها ، أقول يجب أن نكون كذلك حتى نتصور أن هذا العالم الواقعي الموضوعي المستغنى عن معونتنا يحدث له أن يدخل ، بمجرد تأثير بسيط على الحواس ، في رأسنا حيث يبدأ وجوداً ثانياً كوجوده في الخارج » . وإنما يتم الامتثال لهذا العالم الخارجي — نسبياً — بواسطة الفعل الذي به يربط الذهن بين المدلولات الباطنة الزمانية وبين عللها الخارجية للمكانية ، أو بعبارة أخرى ، هذا العالم الممثل ينشأ بواسطة الفعل الذي به يجمع الذهن بين الزمان والمكان في مركب واحد . أعني أن كل امتثال لا بد له كي يتم من استخدام قانون العلية أو مبدأ العلة الكافية ، وهذا القانون

لا يوجد في الحساسة ، بل في الذهن وحده . فكل امتثال إذن ذهني . وتلك وظيفة الذهن الوحيدة ، أعنى معرفة الصلة بين العلة والمعلول . ولا توجد ملكة أخرى تشاركه في هذه الوظيفة : لا الحساسة كما رأينا ، ولا العقل بالمعنى الدقيق ، وهو ملكة التفكير بواسطة التصورات المجردة . فهذه العملية التي يقوم بها الذهن في الامتثال ليست نتيجة مستخلصة من تصورات مجردة ، كما أنها ليست ناتجة عن فعل الإرادة ، وإنما هي فعل للذهن الخالص المجرد .

وهذا الذهن واحد عند جميع الحيوان والإنسان ، وله عندهم جميعاً وظيفة واحدة ، هي إدراك العلية ، أى الانتقال من العلة إلى المعلول ، أو من المعلول إلى العلة . ومع هذا فإن له درجات عدة لا يبلغنا الحصر ، حتى لا نكاد أن نجد درجة متساوية في الوضوح والمدى عند ذهنين اثنين . درجات تتفاوت من تلك الدرجة السفلى — التي لا يدرك العقل فيها مطلقاً غير رابطة العلية بين الموضوع المباشر ، والموضوع غير المباشر ، أعنى الدرجة الدنيا الكافية فقط للانتقال من المؤثر الذي طناه الجسم إلى علته ، أى الموضوع الخارجي الحال في المكان — حتى تلك الدرجة العليا التي فيها يدرك التسلسل العلي بين للموضوعات غير للباشرة بعضها وبعض ، وقد يصل فيها إلى إدراك أبعد العلل والعلولات وأقصاها . فهذه الدرجة

هي أيضاً تنتسب إلى الذهن لا إلى العقل . لأن مهمة العقل الوحيدة هي إيجاد التصورات المجردة وخلقها ، لا إدراك التسلسل العلى بين الأشياء ، فهي مهمة تجريد للعيانات ، لا تحصيل لها ، على هيئة تصورات مجردة ، ليست في الواقع غير انعكاسات باهتة فقيرة للمعرفة العيانية المباشرة ، ولذا سميت في اللغات الأوربية باسم الانعكاس . ومن هنا نرى أن العقل بالمعنى الدقيق في مرتبة أدنى بكثير من الذهن . وقد رأينا من قبل فائدة التصورات ، وهي فائدة عملية صرفة لا تتجاوز تيسير التفكير . أما العيانات المباشرة فتقدم معرفة جديدة حقيقية .

وفي هذا نجد رد فعل قوى من جانب شوينهور ضد المذاهب المثالية المعاصرة له ، وخصوصاً مثالية هيغل التي أمعنت في التجريد وافتنت في ممارسة التصورات حتى كادت أن تكون لعبة قوامها التصورات المجردة ، والتي رفعت العقل ، بالمعنى المحدود ، إلى مرتبة الألوهية . وشوينهور في هذا إنما يسير على السنة الحميدة التي سار عليها من قبل بيكود لا مردنلا ، « هذا المدرسى الشريف » ، حينما ميز بدقة بين العقل وبين الذهن على أساس أن الأول هو ملكة التفكير المنطقي المجرد ، والثاني ملكة العيان ، والأول خاص بالإنسان ، والثاني سبيل المعرفة عند الملائكة ، بل يكاد أن يكون سبيل المعرفة عند الله . وتابعه عليها اسبينوزا الذي عرف العقل بأنه ملكة تكوين التصورات العامة .

والتعارض هنا بين الذهن وبين العقل هو التعارض بين المعرفة العيانية والمعرفة المجردة ، أو بين العيان وبين التصور . وشوبنهاور يطنب في إطراء قيمة العيان ، فيقول « إن العيان ليس ينبوع لكل معرفة فحسب ، بل هو للمعرفة نفسها إلى أعلى درجة ، فهو وحده المعرفة الصادقة بغير شرط ، الطاهرة ، الجديرة وحدها باسم المعرفة ، لأنها وحدها التي تجعلنا نبصر حقاً ، وهي وحدها التي يتمناها الإنسان وتنفذ فيه بأسره فيستطيع أن يسميها معرفته هو حقاً » . أما التصورات فعلى العكس من ذلك تنمو بطريقة مصطنعة ، لأنها مجردة ، ولا تنفذ في الإنسان كله ، بل « تلتصق » به فحسب . والفلسفة الحققة ، تبعاً لذلك ، هي التي تشتغل في العيانات ، لا تلك التي تعمل في التصورات المجردة : فالأولى وحدها هي التي تصل إلى إدراك مضمون الواقع ، أما الثانية فتعمل في الفراغ ، فلا تستطيع أن تصل إلا إلى بناء من الأشباح والتهاويل والأوهام كما هي الحال عند هيجل وأبرقلس وشلنج . ويشبه شوبنهاور التصورات بالأوراق المصرفية التي لا قيمة لها إذا لم يكن في خزانة المصرف رصيد لها يغطي قيمتها الحقيقية ويمكن أن يستبدل بها في أي وقت ، ويشبه العيانات بهذا الرصيد . وواضح أنه لا قيمة للورقة المصرفية إلا إذا وجد الرصيد ، فنه وحده تستمد تلك القيمة . كذلك الحال في التصورات ، ليس لها من قيمة إلا إذا كان في مقابلها عيانات .

ووظيفة التصورات كوظيفة الأوراق المصرفية ، أعنى سهولة التداول فحسب ، في الحالة الأولى في داخل مملكة الفكر ، وفي الثانية في داخل مملكة المال . ثم يشبهها مرة أخرى بالموزائيك والرسوم على اللوحات : فالتصورات مثل الموزائيك ، فيه تحديد دقيق للخطوط والحدود بين الأحجار المركب منها ، لكن لا يوجد فيه انتقال مستمر واتصال بين الألوان بعضها وبعض ؛ بينما العيانات كالرسوم على اللوحات ، فيها انتقال دقيق بين تدرجات الألوان ؛ وهي من أجل ذلك حية ، لأن نسيج الحياة متصل ، أما الموزائيك والتصورات فمتحجرة ، لأنها تفصل فصلا غير عضوي بين الأجزاء المركبة لها .

وتظهر صحة هذا التقويم لوظيفة العيان والتصوير واضحة في حالتى الفكر والعمل . ففي حالة الفكر لا تقدم التصورات معرفة جديدة ، لأنها تجريد صرف للعيان ، ولا تقدم لنا صورة واضحة عن الأشياء وما بينها من علاقات حتى يكون لدينا فهم كامل للشيء الذى هو موضوع المعرفة ، بل تقتصر على إعطائنا فكرة عامة إجمالية عن الشيء ؛ أما العيان فيصور لنا الواقع فى وضوح وقوة ، ولهذا يفرض نفسه على العقل بطريقة ألزم . والكاتب الذى يعتمد على العيان فى فكره يبدو لنا وكأنه يكشف لنا عالماً جديداً لم تنفذ أركانه من قبل ؛ ويمتاز فكره بالجدة والطرافة والأصالة ، وتعلوه

نضرة وإشراق . ففارق كبير بين الكاتب الذى يقول لك : « إنه كان كالتمثال » ، وبين ثرقتس الذى قال : « مثل التمثال الرافل فى الثياب ، لأن الرياح كانت تلعب بثيابه » . وبراعة الكاتب فى قدرته على التمييز عن كل فكرة بالصور الحية والمقارنات التجسيمية التى تنبع كلها من مصدر واحد هو العيان . ومهمة الفن والفلسفة هى فى تنمية التصور المجرد بواسطة الصور المحسوسة ، وجعل التصورات والأفكار تثرى بالعيانات . والحكمة والمبقرية تتلخص كل منهما فى التفكير قدر الإمكان بالعيان لا بالتصور ، لأن « الحكمة بالمعنى الصحيح هى شىء عيانى لا مجرد . وليست مجموعة من القضايا أو الأفكار التى هى نتيجة لبحوث الآخرين أو للتأملات المجردة الخالصة التى يحملها المرء فى رأسه معدة من قبل ؛ إنما هى بكل بساطة النحو الذى يتمثل عليه العالم فى الذهن » . فإن العالم يتمثل فى ذهن المبقرى والحكيم على نحو أوضح وأظهر وأقوى ، لأنه قائم على العيان ، مما يتمثل على نحوه فى ذهن الرجل العادى ؛ فالفارق بين الصورتين كالفارق بين لوحة زيتية متقنة الصنع وبين رسم صينى قد خلا من الظل والمنظور . ومع أن المادة فى كلا ذهنين واحدة ، فإن الصورة مختلفة .

والفارق أوضح فى حالة العمل . فإن المعرفة العيانية تصلح مباشرة أن تكون قاعدة للسلوك ؛ أما المعرفة المجردة التصورية

فتحتاج من أجل هذا إلى واسطة ، هي الذاكرة . ومن هنا جاءت
أفضلية المعرفة الأولى في مزاولة الحياة العادية ؛ وهذا بعينه هو
السبب في امتياز المرأة على الرجل في هذه الناحية . ورجل الأعمال
هو ذلك الذي حصل من المعرفة العيانية الخاصة بأحوال الناس في
معايشهم قدراً ييسر له سلوك سبيل الحياة العملية في سهولة ونجاح ؛
وليس ذلك المتأمل الذي استوعب بعقله قواعد الأخلاق كما وضعها
الفلاسفة الأخلاقيون . ولهذا يقول فوثنارج ، الأخلاقى الفرنسى
البارع : « لا إنسان أكثر تعرضاً للخطأ في السلوك من ذلك الذى
ينقاد للتأمل في فعله » .

فالمعرفة العيانية إذن أعلى شأنًا من المعرفة المجردة ، ولذا انطبعت
بطابعها الدرجة العليا التى يستطيع الإنسان الوصول إليها فى المعرفة ،
ويعنى بها معرفة الضور الأفلاطونية أو المثل .

ذلك هو العالم الممثل كما صوره شوبنهاور فى لوحة رائعة ، أعنى
مثيرة للقلق والإعجاب معاً : أضواؤها كل هذه الموضوعات والأشياء
التي تتراءى أمام نواظر الذات ، رفاة محلقة فى المكان اللانهائى ،
سريعة السيلان فى تيار الزمان الأبدى ، محكمة النسيج خاضعة بدقة
وإحكام لقانون العملية الجبار القوى ؛ وظلالها ذلك الحاجز الشفاف
الغريب الذى يحجب — ظاهرياً — بين عين الذات وبين تلك

الأضواء التي تنبعث من هذه العين ؛ ومركز المنظور فيها الذات أو الأنا ، المبدع لكل ما يتجلى في هذه اللوحة من وجود ؛ لأنه فعل مستمر ، وقوة عمياء خالقة دائبة الحركة عديدة الصور والشكول ، وفي كلمة واحدة ، هذه الذات إرادة .

وما تلبث العين وهي تنعم النظر في هذه اللوحة ، أن تتذكر النموذج الذي صيغت عليه أو تأثرته واستلهمته . فهذا النموذج هو اللوحة التي رسمتها له النزعة الرومنتيكية الألمانية المعاصرة ، وكانت متأثرة فيها كل التأثر بفشته ، ولا يميز بين فشته وبين الرومنتيك إلا كونه رومنطيكياً أكثر من الرومنتيك ا فقد غالى في تمجيد الأنا أو الذات ، حتى قضى على العالم والطبيعة ، تمام القضاء ؛ بينما الرومنتيكي قد نظر إلى الأنا والعالم ، أو الذات والطبيعة ، بوصفهما نصفين متكاملين ، فأفنى الذات في الطبيعة في نفس الآن الذي أفنى فيه الطبيعة في الذات ، وهذا فارق ضئيل في الواقع ، وفيما عداه نجد فكر فشته ينبوع الدافق الذي ورده كل أتباع النزعة الرومنتيكية . وإن شئت الدليل على ذلك فاستمع أولاً إلى ما يقوله فشته ، وفيه تلخيص مذهبه بأسره : « إن الأنا هو الذي يثبت عرش النظام والانسجام في الكتلة الجمادية العارية عن الصورة . والإنسان هو وحده الذي يضع الناموس في كل ما يحيط به حتى نهاية للذي الذي يمتد إليه سلطانه - وهو في متابعة مسيره محل

النظام والإنسجام حيث محل . فتحت تأثيره تعنو الأجسام في العالم مستحيلة إلى جسم واحد منظم ، وبفضله تقوم الشمس بدوراتها العذبة الأنغام . وبواسطة الأنا يسود تصاعد هائل يبدأ من عود الاشنة حتى الروح المجردة ، وعليه يتوقف نظام عالم الأرواح بأسره . وأن الإنسان ليقرب ، وله الحق ، أن يسود العالم القانون الذي يضعه لنفسه وللعالم ، ويحسب حساباً بحق للاعتراف بهذا القانون نفسه في المستقبل اعترافاً كاملاً شاملاً . وفي الذات يوجد الشعب الخفي الذي يسمح بنفوذ النظام والانسجام إلى أماكن لم يلجها من قبل . . . ها هو ذا الإنسان ، وفي استطاعة كل منا أن يقول : أنا إنسان . أليس خليقاً إذن بأن يثير من حوله الإعجاب المقدس ، وبأن يقشعر هو ويرتعد أمام عظمته وجلاله ؟ » .

ثم استمع بعد ذلك إلى ما يقوله تيك ، أظهر ممثل للزرعة الرومانيكية ، والروح اللطيف الهائم في الطبيعة الكلية ، : « الكائنات موجودة ، لأننا نمتلكها . والعالم يرقد في بريق أغبر وثمة نور نحمله في نفوسنا ينفذ في أعماق أعماقه : فلماذا لا يتحطم العالم بقسوة ؟ لأننا نحن للصير الذي يقيم بناءه » . « إن حسي الظاهر يسود العالم الطبيعي ، وحسي الباطن يسود العالم للعنوي . وكل شيء يدعن لإرادتي . ولكل ظاهرة ، ولكل فعل أستطيع أن أضع ما يحلولى من أسماء ، والعالم الحى المتحجر كلاهما معلق في

السلسلة التي تقبض عليها روحى ، وما حيا تى كلها غير حلم تتكون أشكاله المختلفة حسباً أهوى ! وأنا أفرض بنفسى قانوناً واحداً على الطبيعة بأسرها وإلى هذا القانون ينقاد كل موجود .

فهل تختلف هذه اللوحة عن تلك التي رسمها شوبنهور في شيء ؟ أجل قد تختلف التفاصيل ، ولكن الروح التي أنتجت اللوحتين واحدة ، وهذه الروح هي الروح الرومنتيكية التي تمتاز خصوصاً بالميزات التالية : الفردية ؛ البدائية ؛ الشعور بأن الوجود وهم زائل ؛ النزوع إلى اللانهاى ؛ الروح للوسيقية ؛ حب الوحدة والصمت ؛ القلق الصادر عن الشعور بالتناقض بين الحقيقة والحلم ، والعاطفة والعقل ؛ تمجيد الحب والعاطفة الإنسانية ؛ التملى بالأحلام ؛ التأثير المغرى للموت والأسرار ؛ الإخلاق إلى انتشاؤم ؛ الحنين إلى الشرق ، والهند بوجه أخص ؛ تقديس العبقريّة . وكل هذه الصفات نجدّها واضحة كل الوضوح في روح شوبنهور ، وهي الأنعام السائدة التي تتردد في السيمفونية الرائعة التي تكون فلسفته ، ولهذا فإننا نميل إلى عدّ شوبنهور من بين فلاسفة النزعة الرومنتيكية الذين يمثلونها أحسن تمثيل ، وهو في هذا لا يقل بدرجة محسوسة عن شلنج ، الذي يعده الناس فيلسوف النزعة الرومنتيكية الأول : وكل ما هنا لك من فارق بين الاثنين ينحصر أولاً في طريقة التعبير ، وثانياً في تصور الطبيعة والفلسفة الطبيعية

فشوبنهور يمتاز بالنصاعة الذهنية ووضوح التفكير ، ودقة التعبير ، بينما أخذ شلنج إلى الخيال الجامح والعموض الأثیری والتجريدات الشعرية المحلقة في سماء ملبدة بالضباب والغيوم ؛ حتى انتهى به الأمر إلى صوفية حارة لا تقل في شيء عن صوفية يعقوب بييمه ، المتأله الألماني الهائم في نور الحق المتجلى بإشراقه ، أو صوفية أفلوطين وجوردانو برونو على أقل تقدير . كما أن شلنج ، نظراً لتأثره بهؤلاء ، قد عنى بالفلسفة الطبيعية والصوفية التي تسودها وحدة الوجود ، ويتزاوج فيها الشعور واللاشعور ، والنهائي والانتهائي ، وينظر فيها إلى الطبيعة بوصفها في سيلان دائم وضرورة مستمرة . أما شوبنهور فلم يفهم « فلسفة الطبيعة » بهذا المعنى الصوفي الأفلوطيني الإشرافي ، وإنما فهمها بالمعنى العلمي الدقيق . وهذا في الواقع هو الفارق الأكبر الذي يميز بين شوبنهور وبين أصحاب النزعة الرومنتيكية بوجه عام : ونعني به فهمه للطبيعة فهما آلياً علمياً ، لا فهماً حيويًا صوفياً . وفيما عدا ذلك لم يكن شوبنهور يفترق عنهم في شيء . فالفارقان اللذان قال بوجودهما فولكلت بين شوبنهور وبين النزعة الرومنتيكية ، وهما التشاؤم الشامل الساخر الحاد ثم بفضه للمرأة - ليسا بفارقين في الواقع أو على أقل تقدير يمكن أن نعهما تطرفاً في نعمة وليس قولاً بنعمة جديدة مخالفة . فهذا التشاؤم الشامل الساخر الحاد عند شوبنهور قد اعترف فولكلت نفسه بوجوده وشبيهه به عند بيرن

وليوردي ، وهما ينتسبان ، خصوصاً أولهما ، إلى النزعة الرومنتيكية بوضوح . والفارق بين التشاؤم عندهما والتشاؤم عند شوبنهور في أسلوب التعبير فحسب ، فهذا عبر عنه بلغة الفيلسوف العقلية الجافة ، وذاتك تغنيا به بلهجة الشاعر الحارة الخيالية . لهذا تحفظ فولكت في تعبيره عن وجود هذا الفارق بين شوبنهور وبين المدرسة الرومنتيكية الألمانية . ولكن هذا التحفظ في نفسه لا يغني شيئاً حتى لو صح وجوده ، لأنه أطلق القول أولاً ولم يقصد الرومنتيكية الألمانية وحدها ؛ فضلاً عن أننا نجد هذا التشاؤم في النزعة الرومنتيكية الألمانية كذلك ، وخصوصاً عند نوفالس في «لياليه» لأنهم يتحدثون دائماً عن فناء الوجود وأحزان الوجود ، ويعدون الوجود وهما وخطيئة . أما بغض المرأة عند شوبنهور وتقديسها عند أصحاب النزعة الرومنتيكية فليس بفارق يعتد به ، خصوصاً إذا لاحظنا أن بغض المرأة عند شوبنهور قد دخلت فيه - إلى حد ضئيل - عوامل شخصية ، وهي تلك التي بينها في القسم الأول من هذا الكتاب ؛ وإن أبغضها ، فليس معنى ذلك أنه لم يكن يقدر الحب ، وهذا هو الشيء الوحيد الذي من أجله قدسها أصحاب النزعة الرومنتيكية . ولا يجب أن يغالي في تقدير هذا التقدير ؛ لأن المرأة لم تكن في نظرهم غير رمز مجرد يمكن أن يستبدلوا به أى رمز آخر دون أن يتغير الوضع في شيء . فإن الحب عندهم كان

« نسمة مقدسة كتلك التي تهز مشاعرنا في الألحان الموسيقية » على
 تعبیر اشليجل ؛ كان الإيروس ، هذا الإله الذي انبثق من الخليط
 الأول وربط بين الأجزاء المتناثرة . وإذا كان هذا الحب قد تعلق
 بالمرأة ، فلم يكن هذا التعلق جنسياً ، وإنما كان ذلك « لأن الحب
 بين الرجل والمرأة هو الرمز الأكل والأبين لهذا الوجدان الجبار
 الذي يشمر به الواحد في تطوره » ، كما تقول ريكاردا هوخ . ولهذا
 يقول تيك : « ليس جمال من أحبها هو وحده الذي يملأني غبطة
 ونعياً ، بل ولالطافتها ، إنما أحبها أولاً وقبل كل شيء . . . وفي هذا
 الحب أنظر وأحس بالإيمان والخلود بل وبالمتعدد نفسه في حضن
 وجودي بكل ما يوحيه من آيات ومعجزات » . ويكتب اشليجل
 إلى كارولينه فيقول في صراحة ووضوح : « قد تكون نشوة
 الحواس جزءاً من الحب كالنوم بالنسبة إلى الحياة . لكنها ليست
 أنبل جزء فيه ، والرجل القوي يفضل دائماً اليقظة على النعاس » . ومن
 هذا كله نشاهد أن الحب لم يكن بالضرورة مرتبطاً عندهم بالمرأة ،
 هذا الجانب الحسي في الحب ، لذا نرى واحداً من أكبرهم وهو
 فاكنرودر لا يبدو أنه تعلق بالمرأة . وإنما الاختلاف بينهم وبين
 شوبنهور في ماهية هذا الحب ، وهذا ما نرجى الحديث عنه
 إلى حين نعرض نظرية شوبنهور في الحب .

كان شوبنهاور إذن رومنتيكي النزعة . وفي هذا تفسير لناحية
عنى بها شوبنهاور عناية خاصة ، هي الحنين إلى الشرق الهندي . فإن
أصحاب النزعة الرومنتيكية قد وجدوا في الشرق ملاذاً عذباً
لأحلامهم في اللانهاى ، وفي حكمة الهند صدى قويا لما يشيع في
نفوسهم من نزعات : من شعور بفناء الوجود ، ونشدان للخلاص
عن طريق التصوف والزهد ، وامتلاء بعاطفة التشاؤم وبأن الوجود
وهم زائل . فقاموا بحركة اتجهت صوب الهند في أول الأمر ، وكان
رأبها فريد رش اشليجل الذى قال في البرنامج الذى وضعه للمدرسة
الرومنتيكية : «علينا أن نبحث في الشرق عن كل عنصر رومنتيكي» ؛
لأنه رأى في حكمة الهنود أسمى تحقيق المثل الأعلى الذى تنشده
الحركة الرومنتيكية : « فالقضاء على الذات للوجود في المسيحية على
أسمى صوره الروحية ، والنزعة المادية المغالية الموجودة في دين
اليونانيين ، يجتمعان في صورتهم الأولى في وطنها الأول ، ألا وهو
الهند » ؛ أى أن الهندى التى استطاعت في حكمتها أن تحقق الوحدة
الروحية إلى أعلى درجة ، وهى كل ما يصبو إليه الشعراء الرومنتيك
وساعد على نمو هذه الحركة أن كانت في أوروبا إبان ذلك العصر نهضة
قوية ترمى إلى إذاعة تراث الشرق القديم في أوروبا ، وبخاصة تراث
الهنود .

فن هذه الناحية الرومنتيكية ، ونظراً إلى أن فلسفته تكاد

تكاد أن تتفق تمام الاتفاق مع حكمة الهند، وخصوصاً عند البوذية منها، تأثر شوبنهاور إلى حد كبير بحكمة الهند. وهو نفسه قد اعترف بهذا التأثير فصرح بأنه يدين للأوبنشاد بفلسفته إلى جانب كنت وأفلاطون. ونحن نرى في الواقع تشابهاً كبيراً بين الصورة التي عرضها لنا شوبنهاور عن الوجود وتلك النظرة التي نجدها عند بوذا. فبوذا يقول إننا لا نعرف غير «الظواهر» (صنخارا)؛ وهذه الظواهر ترتبط فيما بينهما وبين البعض على أساس قوانين يسميها هو «سلسلة العلل»؛ فكل ظاهرة حادثة بالضرورة عن أخرى سابقة عليها؛ وكل ما يحدث مصدره «إرادة الحياة» التي لا يوجد بدونها شيء. وقد رأينا أن هذه الأفكار الرئيسية في فلسفة شوبنهاور؛ كما سنرى أن شوبنهاور سيتأثر ببوذا في الأخلاق.

ومع ذلك يجب أن نحتاط كثيراً في تقدير هذا التأثير. فإن البوذية قد عرضت هذه الأقوال بطريقة غير علمية إطلاقاً؛ فلا نظرية في المعرفة واضحة؛ ولا تحليل دقيقاً لمضمون الأحداث وطبيعة ارتباطها ببعضها البعض؛ ولا إرجاع واضحاً لظواهر الوجود إلى إرادة الحياة. إنما هي أقوال عامة على صورة لمحات صادرة عن وجدان نفاذ. فضلاً عن أن شوبنهاور قد وجد هذه الأفكار كلها صادرة عن منهج فلسفي علمي دقيق عند الفلاسفة للعاصرين له وفي (٨ - شبنهور)

تطور التفكير الفلسفي في الغرب ؛ فلم يكن في حاجة إذن إلى تلتقى هذه الدروس من جديد في صورة غامضة غير علمية في مدارس الهنود : فخير ما يوصف به تأثير شوينهور بحكمة الهند هو أنه كان تأثيراً استمد منه التوكيد العاطفي والسوى الوجدانية الخالصة ، كما يلد للفيلسوف أن يوشى كلامه بببيت من الشعر أو آية من كتاب مقدس . فكان تأثير هذه الحكمة فيه إذن تأثير وشى وتزيين ، لا تأثير برهان وتبيين .

الخلاص بالفن

الفن تكرار لما في الظواهر من
جوهرى ثابت بواسطة التأمل الخالص
للصور السرمدية »

الزمان وللكان والعلية ، هذا الثلاث الجبار الذى يئن تحت
ثيره طام الامتثال والظواهر ، هل من سبيل إلى التحرر من قيوده؟
سؤال تردد فى قلق على شفاه للمفكرين من قديم الزمان ، وما
كان له إلا أن يتردد ، وفى شىء من الإرهاق المسلح والجزع العنيف ،
لأنه أشد المشاكل الكونية الإنسانية إثارة للقلق والعذاب ،
وأحراها أن يشغل بال الإنسان بقوة ، مهما كانت درجته فى سلم
التصاعد الروحي . كيف لا ، وما استطاع سيد الأولمب ، زيوس ،
رب الأرباب ، أن يتبوأ عرشه فى طمأنينة حتى انتصر على الزمان ،
خرونوس ، أبيه ، كما تقول لما الأساطير اليونانية ، فحتى الآلهة
أنفسهم شغلوا بمشكلة الزمان ، ولم يستطيعوا الظفر به ، أى التحرر
من قيوده ، إلا بعد نضال هائل قام بين زيوس وبين المردة التيتان ،
يمثل الزمان . فى هذه الأسطورة تعبير رائع إذن عما شعرت به
الروح الإنسانية من جزع منذ البدء بازاء الزمان ، ومن وجوب
السيطرة عليه والتخلص مما له من ساطان .

ذلك أن الزمان رمز الفناء ، لأنه الوجود للتغير الدائم السيلان المتصل الصيرورة ، أي أصل الكون والفساد ، وبالتالي أصل الوجود منظوراً إليه من ناحية التغير . ولهذا بدا للإنسان دائماً على هيئة هوة مخيفة تبتلع في جوفها كل شيء ، ومنجل يحصد ، أي يقضى ، على كل ما في الوجود ، فأثار في نفسه الجزع الهائل . وهو جزع لن يستطيع التخلص منه إلا إذا تخلص من ينبوعه ومصدره أعنى الزمان . كذلك حاول ، لسكن في جزع أخف ، أن يتحرر من أصفاد المكان . لأن في المكان تحديداً له وتضييقاً عليه ؛ ولأن فيه تحجراً وجوداً ؛ والإنسان ، «هذا الحر المتقلب» كما يقول نيتشه ، في طبعه الحرية والحركة ، وأعدى أعدائه الحدود والجمود . ولهذا وجه عنايته منذ البدء إلى تحطيم أغلاله ، وكان مثله الأعلى ، ذلك الكائن الذي ليس له مكان .

وهذه الحرية عينها هي التي دفعته إلى نشدان الخلاص من العلية ؛ لأن الحرية تهوى البداة والجدة والخلق الأصيل ؛ ولأنها تريد أن تكون مطلقة من كل رباط ، إلا بما هو صادر عنها ، فالمسئولية ، أي كانت صورتها ، ألد أعدائها ، لأن في المسئولية ارتباطاً ، وهي لا تبغى أن ترتبط .

ولو أنصف الإنسان لما حارب معاً الزمان والمكان ، لأنهما متقابلان : الأول صورة التغير ، والثاني صورة الثبات ؛ فلما أن

يأخذ الواحد أو يأخذ الآخر . لكنها طبيعة الوجود اقتضت منه هذا النضال المزدوج : فهو نسيج الأضداد ، فلا يستطيع أن يحيا إذن بغير الأضداد ، بل عليه أن يضرب الضد الواحد على الضد الآخر ، ومن هذا المركب أو الخليط ، أو بالأحرى هذا التوتر بين الأضداد يكون قوام وجوده .

ولو أنصف أيضاً لما حارب العلية حرب فناء لأن الحرية لا تقوم إلا بالفعل ، والفعل لا وجود له إلا مع العلية ، فالفعل حد مشترك . ولكنه حد ذو طرفين متناقضين : حرية مطلقة من ناحية وقيد مطلق من ناحية أخرى . ففيه إذن هذا التناقض في طبيعة الوجود الذي شاهدناه منذ حين بين الزمان وبين المكان .

لكن الإنسان كان ظلوماً ، فخارب الثلاثة معاً ؛ وله الحق ، فإن الظلم قانون الوجود .

وهذه الحرب قد بدأها الفكر الغربي بصورة واضحة كل الموضوع لأول مرة على يد سقراط الذي اكتشف أن الحقيقة ليست في ظواهر الأشياء المتغيرة التي تصورها لنا الحواس وتختلف فيما بين الفرد والفرد وإنما الحقيقة في تصورات العقل ، أي في الكليات التي تم الأفراد ، وبالتالي تعلو على الاختلاف والتفرد . فإما هي في الحقيقة هذه الكليات وتلك التصورات ؟ عن هذا السؤال لم يجب سقراط ، وإنما الذي أجاب تلميذه أفلاطون . قال أفلاطون إنها صور

فما الصور؟ إنها الماهيات العليا المشتركة بين عدة أفراد؛ والنماذج العليا التي بواسطة المشاركة فيها يكون قوام الأشياء. فكل كثرة تقتضى وحدة؛ وكل تغير يستلزم ثباتاً؛ وكل ظاهرة تفترض حقيقة وعالم الامتثال هو عالم الكثرة والتغير والظواهر؛ فلا بد من وجود عالم آخر فيه الوحدة والثبات والحقيقة. ولكن الوحدة تتنافى مع المكان، أى الامتداد؛ والثبات يتعارض والزمان. أى الاتجاه؛ والحقيقة لا تقوم مع العلية، لأن قوامها بذاتها. فهذا العالم المثالى إذن لا بد خال من المكان والزمان، غير خاضع لقانون العلية. وهذا العالم هو عالم الصور. فالصورة إذن ماهية أزلية معقولة واحدة، لاتعرف لقانون العلية معنى، لأنها خارجة عن نطاق نفوذه وهى الحقيقة التى لا حقيقة غيرها، لأن الظاهرة لا تنطبق على موضوعها تمام الانطباق، بينما الصورة والموضوع أو الماهية شىء واحد. لكن هل يمكن أن تكون هذه الصورة موضوعاً للإدراك؟ إن المعرفة، كما رأينا فى الفصل السابق، خاضعة بالضرورة لمبدأ العلة الكافية، فكيف تصبح الصور موضوعاً لها، مع أن الصور ليست خاضعة لهذا المبدأ؟ ونعنى بالمعرفة هنا معرفة الذات الفردية فالذات العارفة المفردة هى التى تعرف تبعاً لهذا المبدأ. أفلا تكون هذه الفردانية إذن العلة فى عجزنا عن إدراك الصور؟ بلى، فكيف يمكن أن تصبح الصور موضوعاً للمعرفة، لا بد من القضاء على

الفردانية في الذات العارفة . لهذا قال أفلاطون إن الصور لا تدرك بواسطة الذهن المنطقي ، بل بواسطة العقل العياني .

لنتأمل قليلا في هذه الصور الأفلاطونية مقارنين إياها بالأشياء في ذاتها عند كنت . فماذا نرى؟ ألسنا نرى اتفاقا في الصفات الرئيسية التي يتصف بها كلا النوعين: في الخروج على الزمان والمكان والعلية ثم في كونها حقائق الأشياء ونماذجها الأصلية ؛ وأخيراً في كونها لا يمكن أن تصبح موضوعات للمعرفة الفردية ؛ أجل إن الصورة الأفلاطونية هي بعينها الشيء في ذاته عند كنت ، أو بتعبير أدق « إن ما يسميه كنت « الشيء في ذاته » « والحقيقة » ، وما يسميه أفلاطون الصورة ، هما فكرتان ، إن لم تكونا فكرة واحدة ، فأنهما متقاربتان ولا تتميزان إلا بفرق دقيق . فمن الواضح أن للمعنى الباطن لكلا المذهبين واحد ، وأعني به أن كليهما لا يرى في العالم المرئي غير ظاهرة ، غير « مايا » كما يقول الهنود ، ظاهرة هي في ذاتها عدم وليس لها من معنى حقيقة إلا بما تعبر عنه ، أعني : « الشيء في ذاته » عند كنت أو « الصورة » عند أفلاطون ؛ وفي كلمة واحدة « الحقيقة » ، الأجنبية عن الشكول الكلية الجوهرية للظاهرة من زمان ومكان وعلية ، العارية عنها تمام العراء . أما كنت فينكر بطريق مباشر صريح هذه الشكول على « الشيء في ذاته » ؛ بينما أفلاطون ينكرها بطريق غير مباشر على « الصور » ،

حينما يستبعد منها ما ليس بإمكانه إلا مع وجود هذه الشكول :أعنى «الكثرة والكون والفساد». وهكذا نجد بين المذهبين اتفاقاً في الجوهر، استطاع شوبنهاور أن يتبينه منذ اللحظة الأولى التي بدأ فيه يدرس أفلاطون إلى جانب كنت كما نصحه أستاذه شولتسه . فما أيسر إذن أن يؤمن بهذه الصور الأفلاطونية ، وهو تلميذ كنت المخلص ! فأمن بها ثم تقوى إيمانه حينما اكتشف في هذه الصور الأفلاطونية العلاج الناجع للنقص المغيب الذي وجدته في مذهب كنت ابان ذلك الحين وأعنى به فكرة «الشيء في ذاته» بوصفه مستحيل الإدراك . « فالشيء في ذاته » عند كنت قد انحل ، كما رأينا في الفصل السابق إلى س مجهولة القيمة باستمرار ، أى إلى مجهول خالص . أما « الصورة » الأفلاطونية ، فعلى العكس من ذلك ، قابلة - إذا توفرت الوسائل ، ومن الممكن أن تتوافر - لأن تكون موضوعاً للمعرفة وهذا هو الفارق الوحيد أو الأكبر بين كلتا النظريتين . « وإنما الصورة الأفلاطونية بالضرورة موضوع ، و شيء معروف ، وامتثال . فهي وإن كانت عارية عن الشكول الأصلية للظاهرة ، تلك الشكول التي يلخصها مبدأ العلية ، فإنها لازالت تحتفظ بأعم الشكول ، وأعنى به كون الشيء موضوعاً بالنسبة إلى ذات ، وهو الشكل الذي أخطأ كنت في عدم عدّه واحداً من ضمن الشكول الأصلية التي تتوقف عليها الظواهر ، ولو كان قد تجنب هذا الخطأ ، ولما تورط في هذه الشناعة .

إلا أن هذه الصورة الأفلاطونية تخضع لمبدأ العلية حينما تكون موضوعاً لمعرفة الذات المفردة ؛ لأن هذه الذات كما رأينا لا تستطع من حيث هي فردية ، أن تمثل إلا على أساس هذا المبدأ . « وحينئذ لن يكون الشيء الجزئي ، للممثل تبعاً لمبدأ العلة الكافية ، غير تحقق موضوعي غير مباشر للشيء في ذاته (ألا هو الإرادة) فبينه وبين هذا تقوم الصورة ، التي هي التحقق المباشر الوحيد للإرادة ، ولا تعرف غير شكل واحد للامتثال هو الشكل العام ، أي كونها موضوعاً بالنسبة إلى ذات . وتبعاً لهذا فانها التحقق الموضوعي الأوفق للشيء في ذاته ، ولكن بوصفه خاضعاً لشكل الامتثال : وهذه هي العلة في الاتفاق الكبير بين كنت وأفلاطون ، على الرغم من أن الجمهور يكاد أن يتفق على أن ما يتحدث عنه الاثنان ليس شيئاً واحداً . « وسواء أصبح رأي الجمهور ، ونحن أميل إليه — لأن التي أقام عليها أفلاطون قوله بالصورة تختلف اختلافاً بيننا عن تلك التي أقام عليها قوله بالشيء في ذاته : فالأولى أسس ميتافيزيقية تتلخص في الوحدة في مقابل التعدد ، والثابت في مقابل المتغير ، بينما الثانية أسس خاصة بنقد العقل أي ثابتة لنظرية المعرفة ، وتتلخص في مصدر الاحساس وتحديد مدى العقل كما عرضنا ذلك بالتفصيل في الفصل السابق — نقول سواء أصبح رأي الجمهور أم صح رأي شوبنهاور في تفسير الصور الأفلاطونية واتفاقها مع الأشياء في ذاتها عند كنت ، فإن شوبنهاور قد قال بهذا الاتفاق

وراح يحدده بطريقة أدق ، فبين أن الفارق بين الاثنين هو أن الصورة الأفلاطونية ليست الشيء في ذاته بالدقة (فإن الشيء في ذاته هو الإرادة وحدها) ، نظراً إلى أن الصورة لا زالت خاضعة للشكل الأعم للامتثال وهو كونها موضوعاً بالنسبة إلى ذات ، وإنما هي وسيط بين عالم الامتثال الظاهري وعالم الإرادة الحقيقي . وهذه الوساطة تهبها ميزتين رئيسيتين : الأولى أنها قابلة لأن تكون موضوعاً للمعرفة ، والثانية أنها حرة من قيود الإرادة ، وهذا من ناحية الإرادة . وبعبارة أخرى ، الصورة حرة من قيود الامتثال وحدوده ، كما أنها حرة في الآن نفسه من نير الإرادة العمياء بما فيها من أثره واندفاع وانعدام بصيرة ، ولكن الامتثال موضوع العلم ، والإرادة دافع الحياة العملية ، فما عسى الشيء الذي الصورة موضوعه إذن أن يكون ؟

إنه الفن

فبالفن وحده يكون التحرر المزدوج من نير ثلاث الامتثال، لأن موضوعه ، وهو الصورة ، خارج عن سلطان هذا الثلاث ، ومن نير الإرادة ، لأن الفن ينحصر في تأمل الصور بنظرة عيانية ووجدان خالص منزهين عن كل شهوة أو مشيئة . « ففي التأمل الفني ، يصير الشيء الجزئي صورة نوعه دفعة واحدة ، ويستحيل الفرد للتأمل إلى ذات عارفة خالصة . . . والذات العارفة

الخالصة وقرينتها ، أعنى الصورة ، قد خرجتا عن كل هذه الشكول
التي لمبدأ العلة الكافية : فالزمان والمكان ، والفرد الذي يعرف ،
والفرد الذي يكون موضوع المعرفة ، كل هذا لا معنى له عندهما ،
والشرط الضروري لإدراك الجمال وتحقيقه في الفن هو التحرر
من الإرادة ، حتى يصير الإنسان عقلاً خالصاً قد خلا من كل غرض
وتنزه عن كل هوى : فيفنى عن العالم كإرادة ؛ ولا يبقى غير العالم
كامتثال ، امتثال فيه تدرك الصور . وعالم الإرادة هو عالم النزوع
الجامح والشهوة الغريزية ، وبالتالي عالم الألم المستمر والعذاب المتعدد
الشكول والألوان . أما عالم الامتثال فخال بطبعه من الألم ، خلوه
من الإرادة ، وإذا ارتفع إلى الامتثال الخالص في إدراك الصور ،
أنتج لذة ومنتعة ، هي المنتعة الفنية الخالصة . فهمة الفن مهمة
عظمى ، هي التحرر من قيود الإرادة وقيود الامتثال للظواهر
بتأمل صور الموجودات ؛ وهي غاية جليلة وإحدى الغايتين اللتين
يسعى المرء لتحقيقهما في الوجود من أجل أن يظفر بالخلاص .

لكن ما السبيل إلى تأمل الصور ؟

السبيل إلى ذلك أن يتخلص الإنسان من كل شكول مبدأ العلة-
الكافية ؛ وأن ينصرف عن النظر في العلاقات بين الأشياء وفي أين
ومى ولم ولأية غاية ، إلى التأمل في ماهية الأشياء ، أى في صورهما
السرمدية الثابتة ؛ وأن تتغير بالتالى الصلة بين الذات والموضوع ،

فبدلاً من أن يكون الواحد بإزاء الآخر ، تفنى الذات في الموضوع
فناء تاماً حتى يصبح الاثنان متحدين بكل قوة وحرارة ، وحتى
يتمتلىء الشعور بأسره بهذا التأمل الوداع للموضوع الطبيعي الحاضر
أمام عين الوجدان المجردة ، سواء أكان هذا الموضوع منظرأ
طبيعياً أم دوحة أم صخرة أم قصرأ مشيدأ ؛ وحتى يفقد بهذا الفناء
كل فرديته وينسى إرادته ، ويستحيل حينئذ إلى ذات مجردة أو امرأة
صافية للموضوع المائل أمامه ؛ وحتى لا يستطيع أن يميز بعد بين
الناظر والمنظور ، لأن الشعور قد امتلاً فأفعم بصورة واحدة .
حينئذ لن تصبح الذات غير وسط شفاف ينفذ من خلاله الموضوع
المعائن إلى العالم كامتثال ؛ وبالتالي تعلق على الفردية والزمانية
والمكانية ، لأنها تحيا في حاضر أبدي مستمر روحي ، وتكون
الحاملة لعالم الصور ، المنبثقة بها ، بل تكون روح العالم . فيحق
لها حينئذ أن تهتف بما هتف به بيرن حين قال : « أليست الجبال
والأمواج والسموات بضعة مني ومن روحي ، كما أني بضعة منها ؟ »
أو بما صاح به صاحب الأبنشاد : « أنا كل هذه المخلوقات
ولا شيء خلاي » .

هذا من جانب الامتثال ؛ وأما من جانب الإرادة ، فالتنا طالما
كنا خاضعين لسلطانها ، فلن نستطيع أن نبلغ المرتبة التي يتبها لنا
فيها تأمل الصور بل تظل معرفتنا غارقة في دخان الشهوات الكثيف

فلا مناص إذن من أن تختفى الإرادة - مؤقتاً طبعاً - عن للسرحد لكي تدع العقل وحده يلعب دوره دون أن يعوقه عن ذلك طائق . لأن المهم هنا ما يصدر عن العقل وحده ، في نزاهة وجود ، فيبدو كأنه من مواهبه ومن فيض منحه : « فالمعرفة لا بد أن تكون حينئذ خالية من كل غرض ، وبالتالي خالية من كل إرادة ... وإن ما يشاهده الإنسان دائماً في آثار العبقرية من فراغ من الغرض وخلو من القصد ، وما يشعر به فيها من بداه وبداء ، بل ولا شعور وغرزية إلى حد ما ، ليس هذا كله غير نتيجة لما تتصف به المعرفة الأصلية الفنية من استقلال عن الإرادة وصفورة منها . ونظراً إلى أن الإرادة هي الإنسان بالمعنى الحقيقي أضيفت هذه للمعرفة إلى كائن مختلف عن الإنسان العادي ، هو العبقرى » .

وقبل أن نتحدث عن نظرية العبقرى والعبقرية عند شوبنهاور نود أن نلقى نظرة عامة تاريخية على المصادر التي عنها صدرت نظريته . هذه في المعرفة العارية عن الإرادة ، أو للمعرفة التزيهة . وهذه المصادر هي عينها التي وجدناها من قبل في صورة العالم كما رسمها شوبنهاور ، ونعني بها النزعة الرومنتيكية . وذلك في فكرتين : فكرة الضمير وفكرة الخلاص ، وكلتا الفكرتين قد لعبت دوراً خطيراً في داخل النظرة في الوجود عند أصحاب هذه النزعة ومن تأثروها من فلاسفة مثل شلنج واشليرماخر ، أو أثروا فيها مثل ياكوبى وفشته .

أما الضمير أو الشعور (وكلمة « ضمير » في العربية كما في الفرنسية تدل على الضمير الأخلاقي والشعور النفساني معاً - انظر تعريف « القاموس المحيط » للفظ بأنه : « داخل الخاطر » ؛ وتعريف « كليات » أبي البقاء : « الضمير » في اللغة « للمستور » ، فمعنى مفعول ؛ أطلق على « العقل » لكونه مستوراً عن الحواس ») فقد شعرت به الروح الرومنتيكية شقياً ؛ لأن النزعة الأولى والجوهرية عندها هي النزوع إلى اللانهائي ، والإنسان بطبعه نهائي ، فيحس الضمير بهذه الهوة التي تفصل بينه وبين اللانهائي الذي لا يستطيع مع ذلك إلا أن يحن إليه ، ويتخذ هذا الحنين صورة الشقاء ، لأنه حين لا يمكن الإنسان أن يرد شعرامه ويسكن سورته ، فيكون من أجل ذلك مصدراً لعذاب مستمر وقلق ملح ، فلا هو بالإنسان الراضى القانع ولا هو بالملك الأعلى ، وإنما هو في جحيم مستمر ، حظ كل من صار فريسة لنزوع حاد مستمر . وهذا ما عبر عنه تيك تعبيراً جميلاً مؤثراً فقال : « أواه ! أما من بد إذن من أن يحمل الإنسان في داخل نفسه خصماً لدوداً دائماً على تعذيبه ! ألا مفر من هذا الإرهاق الذي لا يشفي لروحنا ، هذا النزوع والجهد لإدراك المستحيل ، أقول هلا مفر من أن يحول هذا كله بيننا وبين التمتع بالحياة ، ومن أن يضع في أيدينا نحن سلاحاً مسهوماً نستخدمه ضد أنفسنا ! » . والإنسان

في هذا النزوع يجد أمامه عقبات لا قبل لها ، تحول بينه وبين تحقيق موضوعه ، فيشعر بأن كل شيء في خصومة لا هوادة فيها وإياه ؛ ثم يشعر من ناحية أخرى بأن كل شيء من خلفه ومائل طائماً تحت قدميه ؛ فيتولد من هذا الشعور المتناقض تمزق داخلي في الضمير وعراك باطني متصل . لكن أما من سبيل إلى الخلاص؟ أجل فإن هذا الحنين الجازع لا يلبث أن يهدأ حينما « يعرف » الضمير أن هذا الذي ينزع إليه هو بعينه موضوع حنينه الأبدي ؛ أعني حينما يستحيل « الحنين » إلى « تأمل » ؛ وهذا هو الحل الذي انتهى إليه يا كوفي واتبعه فيه اشلير ماخر . وحينئذ ينقلب النزوع للمتصل إلى عيان ووجدان خالص ، فيه يبدو العالم خالياً من كل ما يغرى بإثارة النزوع ، رافلاً في فيض من النور الباهر الذي أضفاه عليه المثال ، أي يصبح العالم إذن عالم صور بعد أن كان عالم ظواهر . فيستحيل الشقاء إلى نعيم ، والقلق إلى متعة ، والبلبال إلى نصاعة وورصانة .

وهذه الفكرة عينها هي التي نراها في نظرية للمعرفة الزهية عند شوبنهاور ؛ ونراها واضحة كل الوضوح في الآثار التي خلفها لنا من عهد الشباب ، وهو العهد الذي كان تأثره فيه بالزعة الرومانيكية مالمكا لتمام نفسه . فهو يحدثنا في هذه الآثار كثيراً عما يسميه « الضمير السعيد » ، ويقصد به هذا الشعور الباطن

الذى يعلو على الحساسة والدهن والعقل ، بل وعلى الذات والموضوع لأن نطاقها كلها نطاق محدد نهائى مقيد بشروط ؛ بينما نطاقه هو حر من كل قيد ، يخلق فى اللانهاى بأجنحة نورانية لم تخضع لقانون العلة الكافية . ولهذا فإن هذا الشعور يفضى بنا إلى الراحة فى حضن الألوهية ، ويجعلنا « نشارك فى سلام الله » . وفيه ينقضى كل شقاء — نسبياً طبعاً — لأن فيه « فراراً من عذاب الوجود » ؛ وتقضى كل فردانية ، لأننا نحيا حينئذ فى الواحد المطلق ؛ ويختفى التعارض بين الذات وبين الموضوع لأنهما اتحاداً معاً ؛ فتصير « المعرفة » هنا اتحاداً وتجربة اتحاد ؛ فلا يكون المطلق موضوع معرفة لأنه • هو والذات العارفة شئ واحد . وحديث هذا الشعور إلينا حديث حب وعاطفة إنسانية . وإننا لنشعر ونحن نقرأ حديث شوبنهاور عنه أننا بإزاء صوفى واصل تجملت له الحضرة القدسية وحى بها ، فراح يصف فى نبرة حارة تسيل جمالا وعذوبة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب بشر .

وفى هذا : الخلاص . لأن مصدر : العذاب فى العالم هو الإرادة ؛ ونحن فى هذا الشعور قد تحررنا منها : وتحررنا بالتالى من العذاب وحققنا الخلاص . وشوبنهاور يؤكد فى مواضع كثيرة أن المعرفة العارفة عن الإرادة هى « سبيل الخلاص » . إذ تصبح حالة المرء حينئذ « حالة الخلو من الألم التى أشاد بها أبيقور بوصفها الخير

الأسمي وحالة الآلهة أنفسهم ؛ لأننا نصير ، برهة من الزمان ، أحراراً من نير الإرادة الممقوت ؛ وتقف عجلة أكسيون (الملتهبة الدائبة الدوران في الجحيم) ، ويكون اليوم يوم الراحة ، بعد أيام الأشغال الشاقة التي فرضتها الإرادة . فهي حالة النعيم المقيم بعد عذاب الجحيم ، وحالة الطمأنينة بعد عواصف الشهوات . والعلة في هذا أن كل إنسان له وجودان : وجود كارادة ، أي كفرد واحد محدود تحيط به القيود وتدفعه نحوها الشهوات ، فيكون فريسة للآلام ؛ ووجود تأمل موضوعي خالص ، يصير فيه ذاتاً عارفة مجردة ، لا يوجد العالم الموضوعي إلا فيها ؛ فيكون إذن كل شيء ، لأنه لا وجود لشيء إلا في أمثاله ؛ ووجود كل شيء فيه لا يكلفه مشقة ولا يحمله عبء ، لأن كل شيء هو ذاته ، والشيء لا يكون عبء نفسه ؛ بينما في حالة الإرادة وجوده معلق بغيره ، والغير عبء على النفس ثقيل . « فكل امرئ سعيد ، حينما يكون كل نىء ؛ شقى حينما لا يكون غير شيء مفرد » . هذا وفي المعرفة العارفة عن الإرادة يكون الإنسان متأملاً ، أي ناظراً مشاهداً غير مشارك في الحادث أو المنظر ، فلا يتأثر متأثراً حقيقياً ، كما هي الحال بالنسبة إلى النظارة في ملاعب التمثيل وهم يشاهدن مأساة ، وإنما هو ينظر إليه بطريقة موضوعية ؛ فيصفه بالريشة أو بالقلم أو بالحجر أو بالنخمة ، ويكتفي هذا لكي يجعل الحادث يبدو شائقاً عذياً يستهوي (٩٢ - شوبنهور)

النفوس . أما إذا تدخلت الإرادة في التأمل ، فإنه يسيل حينئذ إلى هم مقيم وحزن أليم . وفي هذا المعنى قال جيته : « إن ما يضيّقنا في الحياة ، يملأنا غبطة في اللوحة المرسومة » .

والكائن الذي يحقق هذه الحالة إلى أعلى درجة هو «العبقري» . فإن قوام العبقريه في سيادة العيان المجرد وللعرفة الخالصة والتأمل التزيه على الإرادة والشهوات والأغراض ؛ فيرتفع العبقري من الجزئي إلى الكلي ، يلح الصورة من خلال الظاهرة ، ثم يحيل الصورة إلى عيان خالص قائم . أي أن العبقري هو الذي تنكشف له حقائق الأشياء في عيان منزه عن خدمة الإرادة يعبر عنه في صور قائمة . فعرفته ككشف ، لأنه لا يخضع للذهن ومقولاته من زمان ومكان وعلية ، بل يخلق في حرية وبداء تام ، فتتجلى له الحقائق في لمحات وبواده وواردات ؛ ولهذا امتازت لحظة الإبداع الفني ، التي يسمونها يقظة العبقرية وساعة الوحي وقشعريرة الإلهام بأنها توتر في روح العبقري ، توتر يقرب من حالة الجنون ، وهو بالفعل حالة جنون ، فإن بين العبقرية والجنون شبيهاً كبيراً . فالعبقري والجنون يتفقان في أنهما مرتبطان خصوصاً باللحظة الحاضرة من الزمان دون غيرها من آتاته ؛ وفي أنهما يركزان كل انتباههما في شيء واحد بالذات ، حتى لو كان تافهاً في نظر الآخرين ، ويمتلئان حماساً من أجله ، فلا يعرفان هدوء الطبع ، والهاديء الطبع

لا يمكن أن يكون عبقرياً ، وفي الإفراط في التهييج والحساسية الناشئين عن الإرهاق الشاذ للحياة العصبية والمخية ، وسيادة الانفعالات العنيفة والوجدانات المتطرفة الشيطانية ، والحركة والتغير المستمر في المزاج ، وفي فقدانهما للذاكرة فإنهما لا يجيبان كما قلنا إلا في اللحظة الحاضرة ، ولهذا كان للعيان المباشر الغلبة على سائر الملكات العقلية لديهم ، والرسوم الحسية تبدو لهم في صورة فائمة عينية وبالوان زاهية صارخة ، وفي تشابه طبيعتهما مع طبيعة الطفولة ، فالعبقري دائماً طفل في أفعاله ، ولهذا كما هرردر يقول عن جيته إنه طفل كبير . ويفسر شوبنهاور هذا التشابه بين العبقرية والطفولة بما فسر به جوهر العبقرية وماهيتها ، وهو سيادة ملكات المعرفة على نوازع الإرادة ، والنشاط العقلي الخالص الناشئ عن تلك السيادة . ويظهر هذا التشابه أولاً في هذه السذاجة السامية والبساطة المقدسة التي تشرق على سماء العبقري وسحنة الطفل . وثانياً في هذه النظرة الحائرة التي ينظر بها كل منهما إلى العالم من حولهما . وهي نظرة تجمع بين الحيرة المستفهمة والتأمل الموضوعي التزيه . ومن هنا فإن كلا منهما أبعد ما يكون عن ذلك الوقار المصطنع والجد وهدوء الطبع : فهذا من شأن المواطن الناجح^١ النافع ، لا من شأن العبقري الذي يعمده الأول ترفاً أو فضولاً على الحياة . وإن التشابه بين المجنون والعبقري ليبدو حتى في الاشتقاق اللغوي . فكلاهما

سواء في العربية وفي اللغات الأجنبية ، مأخوذ اسمه من الجن (وهذا أوضح في اللغات الأجنبية منه في العربية ، لأن اللفظ الدال على الجنى والعبرى واحد ؛ أما في العربية فإن العبرى مأخوذ من عقر ، وهو مواطن يسكنه الجن فيما يزعمون) . ولهذا فإن العبرى يجب أن يعد شاذاً كالمجنون سوء بسواء . وهذا الشذوذ يتمثل من الناحية الجسمية في عدة مظاهر : أهمها أن نسبة الإرادة إلى العقل في المخ كنسبة ٢ : ١ في الرجل العادى ، وعلى العكس من ذلك في حالة العبرى فإن ثلث عقله من نصيب الإرادة والثلثين من نصيب العقل ؛ واختلاف تركيب المخ ووزنه ونسبة المادة السنجابية إلى المادة البيضاء وحجمه بالنسبة إلى المخيخ ، ولو أن تحديد هذه المسائل بالدقة لم يتحقق بعد .

وموضوع العيان في التجربة الفنية هو الصور ، ولهذا فإن الطابع الأكثر تميزاً للعبرى هو إدراكه للكلى وتأمله للصور ؛ وهذا يتم في معرفة عيانية تقوم بها عين الفنان الناصعة فتنفذ إلى أسرار الأشياء . غير أن العبرى لا يقتصر على العيان المرتبط بال لحظة الحاضرة ، بل يستعين كذلك بالخيال من أجل توسيع نطاق مجال نظره . فإن الخيال أداة لا غنى عنها للفنان ، لأنه لا يستطيع إلا بمعونته أن يتصور الأشياء والحوادث في صور حية قوية . فالرجل ذو الخيال اللوهورب يستطيع أن يهيب بالأرواح القادرة على أن

توحى إليه في اللحظة التي يريد بها بالحقائق التي لا يقدمها له الواقع العادى إلا نادراً وبصورة مشوهة هزيلة وتقريباً دائماً في غير الأوان» أما الرجل العديم الخيال أو الفقيره فلا يعرف من العيان إلا ذلك العيان الحسى المغلول في أصفاد الظواهر . ولا يصلح صاحبه أن يكون عبقرياً ، ولا يقدر على الاتيان بشيء عظيم ، اللهم إلا في ميدان الرياضيات : فهذا ميدان الأشياء المجردة والخيال المجرى . أما العبقرى فلا ينجح في هذا الميدان ، لأن خياله غنى بالصور القائمة لا بالتصورات المجردة ، وبالذكريات الحية ، لا بالتجريدات والصيغ المتحجرة . وهذا أيضاً من المميزات الرئيسية في العبقرى ، أعنى أن يكون تعبيره دائماً بواسطة الصور القائمة الحية المستمدة من ينبوع العيان الخصب . وهذا هو الفارق الأكبر بين الفنان وبين العالم . فهذا يفكر ويعبر بواسطة التصورات المجردة والصيغ العامة وذاك يفكر ويعبر عن طريق الصور القائمة المفردة .

والعبقرية لوازم لا تنفصل عنها وأحوال ترتبط بها . وأولها ملاحظه أرسطو من أن الحزن حليف العبقرية ، وما عبر عنه جيته فقال : « لقد كانت شاعرتى تافهة طوال أن كنت أسمى إلى سعادتى ولكنها صارت جذوة حامية حين كنت أفر من تهديد الشقاء . إن الشعر الجميل كقوس قزح لا يرتسم إلا فوق سطح معتم ، ولهذا كان الحزن عنصراً مناسباً كل المناسبة للعبقرية الشعرية » . وتفسير هذا

عند شوبنهور أن الحزن المحالف للعبقرية راجع إلى أنه كلما كان النور الذي يضيء العقل قوياً ، كان إدراك العقل لسوء حالته أوضح وأدق . لكن العبقرية مع ذلك لا تظل غارقة دائماً في هذا الحزن المظلم ، بل تبدو في فترات وحوادث هالة من النضاعة الناشئة عن التأمل الموضوعي الخالص ، تضيئ على جبهة العبقري العالية أجمل النور ، فتبدو روحه على حد تعبير رونو «مسرورة في الحزن ، محزونة في السرور» . ويخلو لشوبنهور أن يشبها حينئذ بالجبل الأبيض (موبلان) : فان قوته يعاها دائماً تقريبا غيوم ، ولكن الفجر ما يلبث أن يأتي حتى تتمزق سدول الغيم ، فتبدو لتلاءم حمرة بأشعة الشمس قد اشأبت إلى السماء مشرعة فوق الغيوم وقد يكون مصدره الصفة الثانية اللازمة للعبقرية وهي الشقاء فان العبقري شقى بالضرورة في الحياة « لأنه يضحى بسعادته الخاصة في سبيل الغاية الموضوعية ، ولا يستطيع أن يفعل غير ذلك ، لأن في هذا أودع رسالته . بينما الآخرون يعملون العكس : ومن هنا كانوا صغاراً ، وكان العبقري عظيماً ؛ لأن عمله خالد متعلق بكل زمان ، ولو أن الأجيال اللاحقة هي وحدها التي تدرك مدهاه . تيمته أما الآخرون فيحيون ويموتون مع أعمارهم » . وهذا الغاية الموضوعية التي يسعى إلى تحقيقها العبقري نزيهة عن كل مقصد ، طارية عن كل ما يتصل بالحياة الواقعية ، أعنى الإرادة ، فلا يتفق

وإياها إذن النجاح في الحياة العملية . ومن هنا قال شامل لا كور
 عن رينان إنه في العمل كالطفل ، وقال رينان عن نفسه إنه لم يكن
 يصلح مطلقاً لكل ما يتصل بالشؤون العملية . وفي هذا يختلف
 العبقري عن الحكيم كل الاختلاف : فان نقل الحكيم ذو حس
 بالواقع العملي مرهف ، وله ميل إلى العمل واضح ؛ وعنده حرص
 على اختيار الغايات وتمييز الوسائل شديد ، وهو بالتالي لا يزال في
 خدمة الإرادة . فهذا « الجد الثابت » كما سماه الرومان لا يستطيع
 التخلص من سلطان الإرادة ، والانصراف الخاص إلى المعرفة النزيهة
 ومن هنا جاء الاختلاف البين بينه وبين العبقري . ولما كان في خدمة
 الإرادة ، فانه المؤدى إلى النجاح في الحياة ، وسرعان ما يجد جزاءه
 أما العبقري فلا تنتظر نجاحاً ولا مكافأة ، بل تجد في نفسها جزاءها
 لأن خير الانسان إنما يدين به الانسان لنفسه . ولذا قال جيته :
 « من ولد وعنده قريحة ، ومن أجل قريحة ، فسيجد فيها القسم
 الأجل من وجوده » . وايسر قيمة العبقري في الشهرة والنجاح
 والمجد ، لكنها في ما يخلقه من آثار خالدة وماتنتجه ملكاته الممتازة
 فلندع المجد والشهرة والنجاح لطلابها من رجال الأعمال ، ولنحرص
 على شيء واحد : أن نكون في أداء رسالتنا مخلصين .

والعبقريه بطبيعتها تمشي في وحدة هائلة مخيفة قد خيم عليها
 الصمت ونما في أكنافها السكون . ولم لا تكون كذلك وما أندر

أن يجد العبقري أشباهه ، وما أوسم الشقة بينه وبين الآخرين !
« عندهم السيادة للإرادة ، وعنده للمعرفة السلطان ؛ لذا لم تكن
مسراتهم مسراته ، ولا مسراته مسراتهم » . وليس في وسعه إذن
أن يفكر وإياهم ، أو يدخل في أحاديثهم ومناقشاتهم ؛ وهم أيضاً
ترهقهم عظمتهم وامتيازهم فلا يستطيعون أن يجدوا في ألفته لذة
ولا متعة . وليس أمام العبقري إذن إلا أن يظل في داخل ذاته
وحيداً هو ومسئوليته الهائلة ، « صامتاً كالقبر ، هادئاً كالموت »
على حد تعبير كيركجورد . الصمت حقيقته : لأن الصمت ، صمت
الحياة الروحية الباطنة ، بكاره وطهاره ، ولذا تراه ينشده ويمجده
فيقول كما قال كيركجورد : « هنا ينمو الصمت كما تنيف ظلال
مابعد الظهيرة . . . أية نشوة يبعثها في نفسى هذا الصمت التي يزداد
لحظة بعد أخرى ! » . (راجع أيضاً فصل « الوحدة » في كتابنا
عن « نيتشه » ثم راجع القسم الأول منه بأكمله) . فالعبقري
إذن « مقضى عليه بالحياة في عالم قفر » .

ومن هذا كله يتبين أن العبقرية ، وإن جادت على صاحبها
بالنعمى الروحية إبان تجليات الإلهام وبوازيق الوحي ولطائف
الوجدان ، فإنها ليست ضالحة لأن تهيبه له في الحياة مرتعاً ناعماً .
وأمامنا تراجم العباقرة شهود عدول على ما نقول . يضاف إلى هذا
كله أن العبقري عادة ، إن لم يكن دائماً ، في نضال مستمر مع العصر

الذى يعيش فيه . . . وفى هذا يقوم فارق مهم بين العبقرية والقريحة فان صاحب القريحة ممتلىء بروح العصر ، ميال إلى سوق أفكاره فى اتجاه حاجاته ، وقادر بالتالى على تحقيق نوازه و رغباته ، فى معنى بما يبسر لهذا العصر السير قدماً فى سبيل إصلاح مرافق حياته وتوسيع نطاق نظراته ، فلا جرم إذن أن يجد منه على هذا الجزء ولكنه من أجل هذا عينه محدود فى نطاق عصره ، مرتبط تأثيره بزمانه ؛ فلا يكاد هذا الزمان أن يمضى حتى يعنى على آثاره ، فلاتحيا من بعده إلا فى متحف التاريخ ، إن لم يهملها التاريخ .

« أما العبقرية فعلى العكس من ذلك ، تشق زمانها كما يقطع النجم المذنب مدارات الكواكب ، فى مسار لا مركزى بعيد عن ذلك المسلك المنظم للكواكب ، والذى تستطيع العين الإحاطة به بنظرة واحدة . لهذا لا يستطيع أن يساهم فى تقدم الحضارة القائمة ؛ ومثله مثل الأباطور الرومانى الذى كان يقذف بمزراقه فى صفوف الأعداء متأهباً للموت .: يلقي بأعماله بعيداً إلى الأمام على الطريق حيث يأتى الزمان ، بعد ذلك بملاوة ، ليجمع هذه الأعمال . وصلته بأصحاب القرائح الذين يتبوأون حينئذ قمة المجد يمكن أن يعبر عنها بقول المسيح (لأهل عصره من كبار الأحبار) : « لم يأت بعد زمانى ، أما أنتم فهذا زمانكم باستمرار » ذلك أن القريحة عندها القدرة على إنتاج ما يفوق ملكة الإنتاج لاملكة الإدراك عند الآخرين ؛ أما عمل العبقرية فيتجاوز ملكة

الإنتاج وملسكة الإدراك معاً ؛ ولهذا لا يستطيع الآخرون أن يفهموه منذ البدء . « فالقريحة مثلها مثل النابل الذي يصيب هدفاً ليس في متناول يد الآخرين ولا يستطيعون أن يلمسوه ، والعبقرية مثل النابل الذي يصيب هدفاً لا يستطيع الآخرون حتى أن يروه وينظروه . » والشاهد على هذا أن أعمال العباقرة لا يستطيع للمعاصرون أن يتقدروها حق قدرها إلا في القليل النادر . فهي كالتين أو البلح ، يلد للناس أن يأكلوها مجففين أكثر من أن يأكلوها طازجين .

تلك نظرية العبقرية عند شوبنهاور : عنى بها غناية خاصة فكرس لها الصفحات الطوال في مؤلفاته ، وشغلته منذ مطلع الشباب بوصفها مشكلة خطيرة في علم الجمال ، بل وفي نظريته في الوجود بأسرها . وقد بدت له في أول الأمر على هيئة مشكلة الصلة بين العبقرية والأخلاق القاضية . فلاحظ حينئذ أن بين العبقرية والفضيلة تشابهاً من ناحية ، من حيث أن المعرفة في كليهما عارية عن الإرادة حالية على الأثر . ولكن هل معنى ذلك أن العبقرية لا بد أن تلتزم حدود الفضيلة والقواعد الأخلاقية ؟ كلا ؛ أن العبقرية تعلق على كل القواعد التي تضعها الأخلاق ؛ فلها إن تأخذ بها إن شاءت ، أولاً تأخذ بشيء منها إن أرادت . لأن العبقرية حرة لا تحدّها حدود ولا تمسك بزمامها قيود .

وما كانت هذه العناية بفكرة العبقرية - أو مشكلتها - إلا امتداداً
أوتعمقاً لما أثير حولها في القرن الثامن عشر من مناقشات ومشاكل .
فقد كانت مشكلة العبقرية المحور الأول لكل المباحث الجمالية التي
قام بها الفلاسفة والنقاد في ذلك القرن . وبدأت أول الأمر على هذه
الصورة : هل الفنان مقيد بالقواعد المستخلصة من نماذج القرن
القديم ، أو هو حر الخيال مطلق النشاط في الإبداع الفني ، فلا
يخضع لمعيار خارجي أياً ما كان هذا المعيار ؟ ثم ما هي الصلة بين
الفن وبين الطبيعة ؟ سؤالان عنى بهما أولاً الفلاسفة الإنجليز ، وعلى
رأسهم شافتسبري الذي استطاع لأول مرة أن يحدد معنى لفظ
« العبقرية » وأن يزيل ما أحاط به من غموض واشتراك . فقد
قال إن الفن ليس « تقليداً » بمعنى أن الفنان هو الذي يقف عند
المظهر الخارجي للأشياء ، ويقلدها بأمانة كبيرة ، وإنما تقليد للطبيعة
في الخلق لا في المخلوق ، في الإبداع ، لا في الأشياء المبدعة ، والفنان
أو العبقرى هو الذي يستطيع أن يشارك في هذا الإبداع وذلك
الخلق بطريقة الخاصة . وملكة الفنان ليست كالملكات العقلية المعروفة
من إحساس أو ملكة حكم أو ذهن ، وليست العبقرية « العقل
السامى » كما يقول جوزف شنييه ، وإنما هي ملكة خالقة مصورة
مبتكرة مبدعة ، تعتمد أول ما تعتمد على الخيال والتصور المبتدع .
ولكن هذا الابتداع ليس خيالا ذاتياً صرفاً يصدر عن هوى مطلق .

وتصور أجوف ، إنما هو تعبير عن الوجود الروحي الباطن للعبرى الذى يصنع بذاته ابتداعه وفق ضرورة باطنة فى ذاته . وفى هذا أصالتها من ناحية ، واتفاقها ، مع ذلك ، والطبيعة من ناحية أخرى . ذلك أن العبرية ليست فى حاجة إلى « السعى بحثاً » وراء الطبيعة ، فهى تحتويها داخل ذاتها ، نظراً إلى أن الطبيعة فى انسجام -أزلى- مع الذات المبدعة . وهذا ما عبر عنه شلر أجمل تعبير فقال : « إن الطبيعة حليف دائم للعبرية : فما تمد به الواحدة ، تحققة الأخرى » .

ثم جاءت المدرسة الألمانية فى علم الجمال فتعمقت المشكلة وصاغت فى حدود دقيقة ، لأن القائمين بهذه الحركة كان من بينهم النقاد الأدبيون إلى جانب الفلاسفة . فقام لسنج يحدد المشكلة ، ويضعها فى وضعها الصحيح فيقول إن النزاع بين العبرية والقواعد الفنية ، بين الخيال وبين العقل ، نزاع لا أساس له ، لأن إبداع العبرى وإن لم يكن يتلقى القواعد من خارج ، فإنه هو تلك القواعد نفسها ، أعنى أن القواعد ليست غير تعبير عن النظام السائد فى إبداع العبرى ، ونتيجة له ، والنتيجة لا تناقض الأصل ، إذ لا وجود لهذه القواعد إلا فى الآثار التى يبدعها العبرى . وعلى أثره جاء كنت ، فتناول المشكلة من أعماقها وفى عمومها :

فعرف العبرية بأنها اللويزة الطبيعية التى تضع القواعد للفن .

« لأن كل فن يقتضى مقدماً وجود قواعد على أساسها يصاغ الناتج قدر الإمكان ، إذا كان هذا الناتج أثراً فنياً . ولكن فكرة الفن الجميل لا تسمح بأن يكون الحكم على جمال نتاجه مستمداً من أية قاعدة تقوم على تصور يحددها . . . فالفن الجميل إذن لا يستطيع بنفسه أن يضع القاعدة التي ينتج على أساسها آثاره . فلما كان الأثر إذاً لا يمكن أن يسمى فناً دون أن تكون تمت قاعدة سابقة ، كان لابد أيضاً أن تضع الطبيعة الذاتية (وبواسطة مزاج هذه الذات) للفن القواعد ، أعنى أن الفن الجميل لا يقوم إلا بوصفه من نتاج العبقرية . فالعبقرية تبعاً لكنت هي إذاً فى النقطة التي تتقاطع عندها الضرورة والحرية ؛ ويلتقى فيها النشاط المقيد بالقواعد ، وتجتمع فيها الأصالة التامة والمهائلة التامة معاً . لأن العبقرية حين تخلق وتبدع إبداعاً حقيقياً صادراً عن طبيعتها الذاتية تعلو على الفردية والظواهر العرضية وتعبر عن جوهرها الأسمى ، فتنتقل بذلك من الذاتية الخالصة للربط بالزمان والمكان إلى الموضوعية المطلقة من قيود الزمان والمكان - فالعاطفة التي يعانها العبقرى ، وهي موقنة فردية لن تتكرر ، تصبح ، بعد التعبير عنها فنياً ، أبدية كلية ثابتة على الدوام ، وتصلح بعد ذلك أن تكون نموذجاً ، لا للتقليد ، بل للإبداع على غرارهِ . ودرجة هذا الإبداع تتوقف على نسبة قوى التلميذ الروحية إلى قوى الأستاذ ، أعنى النموذج .

وهذه النسبة هي الشيء الجوهرى فى إبداع العبقرى ، وتلازم هذا الإبداع باستمرار باعتبارها التعبير الحقيقى عن أصالة وشخصية وذاتية . ولهذا السبب اختلف الإنتاج الفنى عن الإنتاج العلمى : فى الأول شخصية ظاهرة لا تنفصل عن نتائجها ، وفى الثانى تختفى الشخصية لىكى تدع لنا تصورات مجردة ونتائج موضوعية . فاذا كان الشيء الجوهرى فى إبداع العبقرى تلك الأصالة الشخصية ، فان الفنان وحده ، لا العالم ، هو العبقرى .

ونظرية كنت هذه فى العبقرية ، هى الحد الفاصل بين فكرة العبقرية فى عصر التنوير ، وفكرة العبقرية فى العصر الرومانتىكى فهى تجمع بين نظرية أصحاب نزعة التنوير ، وبين نظرية الرومانتىك بمعنى أنها أكدت الذاتية والإبداع المطلق إلى جانب تأكيدها للموضوعية والسير بمقتضى قواعد فنية موضوعية من قبل . فكانت فى موقف وسط بين نزعة التنوير التى كان ميلها الغالب إلى إخضاع العبقرية للطبيعة وللقواعد الفنية وللعقل المسيطر بقوانينه المحكمة . وبين النزعة الرومانتىكية التى جعلت الطبيعة من خلق الذات ، ولا وجود لها إلا فى الخيال المبتدع ، وتحلت من كل قاعدة فنية ، وحلقت فى جو الخيال المفرق فى الابداع .

وفى نظرية النزعة الرومانتىكية فى العبقرية المفتاح الرئيمى

« لأن كل فن يقتضى مقدماً وجود قواعد على أساسها يصاغ الناتج قدر الإمكان ، إذا كان هذا الناتج أثراً فنياً . ولكن فكرة الفن الجميل لا تسمح بأن يكون الحكم على جمال نتاجه مستمداً من أية قاعدة تقوم على تصور يحددها . . . فالفن الجميل إذن لا يستطيع بنفسه أن يضع القاعدة التي ينتج على أساسها آثاره . فلما كان الأثر إذاً لا يمكن أن يسمى فناً دون أن تكون تحت قاعدة سابقة ، كان لابد أيضاً أن تضع الطبيعة الذاتية (وبواسطة مزاج هذه الذات) للفن القواعد ، أعنى أن الفن الجميل لا يقوم إلا بوصفه من نتاج العبقرية . فالعبقرية تبعاً لكنت هي إذاً في النقطة التي تتقاطع عندها الضرورة والحرية ؛ ويلتقي فيها النشاط المقيد بالقواعد ، وتجتمع فيها الأصالة التامة والمهائلة التامة معاً . لأن العبقرية حين تخلق وتبدع إبداعاً حقيقياً صادراً عن طبيعتها الذاتية تملو على الفردية والظواهر العرضية وتعبر عن جوهرها الأزلي ، فتنتقل بذلك من الذاتية الخالصة للرتبطة بالزمان والمكان إلى الموضوعية المطلقة من قيود الزمان والمكان - فالعاطفة التي يعانها العبقرى ، وهي موقته فردية لن تتكرر ، تصبح ، بعد التعبير عنها فنياً ، أبدية كلية ثابتة على الدوام ، وتصلح بعد ذلك أن تكون نموذجاً ، لا للتقليد ، بل للإبداع على غراره . ودرجة هذا الإبداع تتوقف على نسبة قوى التلميذ الروحية إلى قوى الأستاذ ، أعنى النموذج .

وهذه النسبة هي الشيء الجوهرى فى إبداع العبقرى ، وتلازم هذا الإبداع باستمرار باعتبارها التعبير الحقيقى عن أصالة وشخصية ذاتية . ولهذا السبب اختلف الإنتاج الفنى عن الإنتاج العلمى : فى الأول شخصية ظاهرة لا تنفصل عن نتائجها ، وفى الثانى تختفى الشخصية لىكى تدع لنا تصورات مجردة ونتائج موضوعية . فاذا كان الشيء الجوهرى فى إبداع العبقرى تلك الأصالة الشخصية ، فإن الفنان وحده ، لا العالم ، هو العبقرى .

ونظرية كنت هذه فى العبقرية ، هى الحد الفاصل بين فكرة العبقرية فى عصر التنوير ، وفكرة العبقرية فى العصر الرومانتيكى فهى تجمع بين نظرية أصحاب نزعة التنوير ، وبين نظرية الرومانتيك بمعنى أنها أكدت الذاتية والإبداع المطلق إلى جانب تأكيدها للموضوعية والسير بمقتضى قواعد فنية موضوعة من قبل . فكانت فى موقف وسط بين نزعة التنوير التى كان ميلها الغالب إلى إخضاع العبقرية للطبيعة وللقواعد الفنية وللعقل المسيطر بقوانينه المحكمة وبين النزعة الرومانتيكية التى جعلت الطبيعة من خلق الذات ، ولا وجود لها إلا فى الخيال المبتدع ، وتحللت من كل قاعدة فنية ، وحلقت فى جو الخيال المعرق فى الإبداع .

وفى نظرية النزعة الرومانتيكية فى العبقرية المفتاح الرئيسى

لنظرية شوبنهاور : فهي ينبوع الذي منه استمدتها . وإن تمجيد
العبقرية — أو تأليهها — لم يبتغ درجته العليا إلا عند انزعة
الرومنتيكية . فإن العبقري في نظرهم هو الذي يهب الطبيعة —
وهي جماد متحجرة — الحياة . وكيف لا ، وهو الذي يفرض على
الطبيعة عواطفه ، ولا يرى فيها غير حياته ، لأن حياته هي وحدها
الموجودة حقاً : فالطبيعة في نظر أوتو رونجه ، هذا الفنان الرومنتيكي
المرهف الحساسة ، هي الجسم الذي يهبه الفنان روحه . وهم لذلك
يرون أن العبقري يجب أن يكون حراً من كل قيد : الطبيعة
أو القاعدة أو العقل . فهو حر من قيد الطبيعة لأنه خالتهما الحقيقي
ومن القاعدة لأنه هو الذي يفرض نفسه على كل شيء ؛ ومن العقل
لأنه لا يستعين به في إنتاجه ، بل عدته الصور التي أبدعها الخيال ،
وقوته الدافعه لا عاقلة عمياء ، إذ هي خليط هائج من الغرائز انقوية
والنوازع الشهوانية العمياء . و «حياته» ، كما يقول تيك على لسان
لوفل : « اندفاع مستمر لرغبات وحشية ، وكيانه كالمجلة التي تديرها موجة
عنيفة ؛ فهو في اضطراب مستمر من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى .
والأمواج ذات الزبد تزجر وتدور بلا نهاية مثيرة الدوار في رأس كل
من يجازف بالنظر إليها » . وهياج الحساسة حظه الدائم ؛ فتراه
في نشرة ديونيزوسية تهز كل كيانه ؛ وترى كل صورة مقتبسة من
اللاشعور ؛ وفيه ينبع من الغريزة أو الارادة (والمعنى عندهم واحد) .

« وما تنتجها الغريزة واللاشعور يرف في كمال أو امتلاء عضوى » ،
 كما تقول ريكاردا هوخ ، وهى من خير من كتبوا عن النزعة الرومنتيكية
 الألمانية . ولهذا فان حالة العبقرى حالة جنونية ، لا تملوءة بالخيالات
 والأوهام والتهويل . فعالمه هو ذلك الذى وصفه فاكتور
 الحالم الرومنتيكى الاكبر ، حين قال : « حينما أتوقف فى وحدتى
 المظلمة مرعياً السمع طويلاً ، يبدو لى أنى مأخوذ بمنظر فيه تتجلى
 عواطف إنسانيه عديدة تتراقص على هواها بطريقه جنونية غريبة ،
 وتدور فى كل اتجاه بخيال مشبوب الأوار ، وكأنها ساحرات
 عجيبه مجهولة مستسرة قد ساقها المصير » . والعبقرى يحيا فى وحدة
 مخيفه ، لأنه على الرغم من ميله إلى الصداقة تحول حساسيته الهاجمة
 دون أن يكون له بالآخرين اتصال ، فكما يقول نوفالس ، نايهم المحترم
 بالالم ، « إن أشق مهمة فى العالم أن يكون الانسان له صديقاً » .

وإذا تأملنا هذه الصورة التى رسمتها النزعة الرومنتيكية للعبقرى
 -- أو بالأحرى لأنفسهم كعباقرة -- وجدنا التشابه ، بل الاتفاق
 جلياً بينها وبين تلك التى رسمها شوبنهور . وما هذا إلا لأن
 الريشة التى رسمتها واحدة . فكأننا نجد هنا شوبنهور الرومنتيكى
 مرة أخرى . والحق أن شوبنهور قد تأثر الرومنتيك هنا كما فى كل
 مكان تقريباً .

ولم يكن شوبنهور في نظرية العبقرية وحدها ذا نزعة
ومنتيكية ، بل كان كذلك أيضاً في نظرية الفن بوجه عام . ولهذا
ننح نسكر ما حاول بعض النقاد مثل فولكات وزمل وضعه
من فروق بين الاثنين في هذا الصدد . فهم يقولون إن شوبنهور
في نظريته في ماهية الفن وطبيعة الإبداع الفني والغاية من هذا
الإبداع كان عقلي النزعة إلى حد كبير . ولم لا ، هكذا يقولون ،
وشوبنهور قد قال إن ماهية الفن وغايته تنحصر في أن يكون
معيناً لنا على إدراك الصور ، هذه الماهيات المعقولة الأزلية الأبدية ؟
أو لم ينكر - أو على الأقل يهمل - الجانب الذاتي الخالص في إيجاد
الأثر الفني ، وهو ما يسميه علم الجمال الحديث باسم «الشعور
المشارك» ويقصد به المشاركة الوجدانية بين الفنان وبين الموضوعات
الخارجية حتى يعانى الفنان ما تعانىه الأشياء من عواطف ، أو يضى
على الأشياء عواطفه هو ، وعلى كل حال يكون الشعور مشتركاً بين
الفنان وبين الطبيعة الخارجية ، ويكون العامل في إيجاد هذا الشعور
المشترك الفنان والموضوع الطبيعي معاً . وله نوعان : بسيط وجمالى ،
والأول هو أن يحيا الإنسان تجارب الآخرين ومشاعرهم وكأنها
مشاعره وتجاربه الخاصة ؛ والثانى يخلف فيه الفنان مشاعره الخاصة
على موضوعات الفن ؛ فالأول إذن تأثر من جانب الذات بالموضوع
والثانى تأثر من جانب الموضوع بالذات . وهذه النظرية ، نظرية
(م ١٠ - شوبنهور)

« الشعور للمشاركة » ، قد لعبت دوراً خطيراً في علم الجمال الحديث ابتداءً من هردير ثم خصوصاً منذ فريدرش تيودور فشر (سنة ١٨٠٧ - سنة ١٨٨٧) ، عالم الجمال والشاعر الألماني المعروف ؛ ولكنها تلاقى منذ أوائل هذا القرن معارضة شديدة من كبار علماء الجمال . فشوبنهاور لا يلتقي بالالهذه الناحية ، ناحية الشعور بالمشاركة بل كان موضوعياً إلى حد بعيد ؛ خصوصاً وإنه يرد الإبداع الفني إلى للمعرفة العاربية عن الارادة ، وبالتالي من المشاعر الباطنة الوجدانية ، ويصف الذات هنا بأنها ذات مجردة نزيهة .

والرد على هذه الحجج ليس بالعسير ، وهم أنفسهم لم يطلقوا هذا القول بل أحاطوه بالكثير من التحفظات ؛ وبخاصة زمل الذي وضع المسألة في وضع وسط أقرب ما يكون إلى الوضع الصحيح ، فقال ، فيما يتصل بالحجة الأولى ، إن موقف شوبنهاور يمكن أن يصاغ هكذا : إن المهم في الفن وما يعطيه معناه الحقيقي ليس فقط أنه يعبر عن « الصور » ، ولكن أنه خصوصاً « يعبر » عن الصور ؛ أعني أن الجوهرى في الفن «التعبير» لا «الصور» . لأن «الصور» في ذاتها ليست «جميلة» وإنما الجميل ما يجعل الصورة متحققة بوضوح وكمال ، أعني الأثر الفني . فكل صورة إذن أهميتها من الناحية الفنية في تحققها والتعبير عنها ، وهذا لا يتم إلا بواسطة الأثر الفني ؛ والأثر الفني من نتاج العيان الفني القائم في رسوم محسوسة وآثار ظاهرة .

وهذه الآثار ذات وجود مستقل في ذاته عن وجود الصور . فليس الفن إذن اكتشاف الصور فحسب، إنما هو بالدقة الكشف عن الصور في آثار عيانية . وهذا الكشف لا يتحقق إلا تبعاً لطبيعة الفنان ووفق روحه ؛ لأن الأثر من خلقه وابتكاره ، وكل مخلوق فلا بد مطبوع بطابع الخالق ، إلى حد ما على الأقل . — خلق الله الإنسان على صورته ، هكذا تقول التوراة . وفي هذا رد على الحجة الثانية القائلة بأن شوبنهور كان موضوعياً إلى حد كبير أو موضوعياً فقط ؛ فكان من أجل هذا — فيما يقولون — يريد من الفنان أن يفنى في الطبيعة وأن يمحو ذاته نهائياً كي يحصل على هذه المعرفة الخالية من كل إرادة ، المنزهة عن كل عاطفة شخصية . والحقيقة هي أن شوبنهور لم يقصد من هذا الفناء في الطبيعة إفناء الذات ، بل على العكس من ذلك جعل الذات مصدر كل وجود . فهو يضع هذه المشكلة بوضوح لا يدع مجالاً للشك في تفسيرنا حين يقول : « إننا إذا أغرقنا أنفسنا وغصنا في تأمل الطبيعة بدرجة من العمق لا نصبح معها موجودين إلا بوصفنا ذاتاً عارفة مجردة ، فإننا نشعر حينئذ مباشرة وبسبب هذا ، بأننا نحن بهذا الوصف الشرط ، بل والحامل الذي يقوم عليه العالم وكل وجود موضوعي ، لأن الوجود الموضوعي لن يتمثل حينئذ إلا بوصفه من لوازم وجودنا نحن . وهكذا نجذب نحن الطبيعة كلها إلينا ، حتى لا تبدو لنا حينئذ

غير عَرَضٍ من أعراض جوهرنا . فهذا النص صريح في بيان حقيقة فكر شوبنهور في هذا الصدد ، وهو أنه لم يكن موضوعياً إلا لأنه كان ذاتياً مغالياً في الذاتية ، لدرجة أنه أضاف إلى هذا الوجود الذاتي صفة الموضوعية إمعاناً في تأكيد حقيقته . ولذا يمكن أن نعبر عن موقف شوبنهور هنا في إيجاز بأن نقول : إنه كان لفرط ذاتيته موضوعياً .

ونحسب هذا كافياً لتبديد الشكوك التي أثارها هؤلاء النقاد حول الرومنتيكية في نظرية الفن عند شوبنهور ، خصوصاً إذ أضفنا إلى هذا الرد السلبي رداً إيجابياً ، فلاحظنا أن النزعة الرومنتيكية لم تكن كلها منتجهة إلى الذاتية الصرفة ، بل الأخرى أن يقال إنها كانت في التعبير وطريقة الأداء تصبو دائماً إلى أن تكون موضوعية قدر الإمكان ، فتأمل الأشياء في عيان مجرد بلورى شفاف كهذا الذي أشاد به شوبنهور وإنما الذي يجعلنا نتصورهم على أنهم كانوا ينزعون في كل شيء نزعة ذاتية مطلقة هو ، كما لاحظت ريكاردا هوخ ، أن ضميرهم كان يفيض بمحتوى اللاشعور ، وأنهم يجزعون من الشعور التام بقدر جزعهم من اللاشعور المطلق ، لأن الرجل اللاشعوري ذو عواطف ، ولكن لا يعرفها ، بينما الرجل الشعوري يعرفها ولا يملكها . أما أن يقال هنا إن الرومنتيك لم يحققوا هذا العيان الشفاف الذي نقول إنهم كانوا يصبون إليه ، فهذه مسألة أخرى مختلفة كل

الاختلاف ؛ ويمكن أن توضع بالنسبة إلى شوبنهاور كذلك . وما الفارق بينه وبينهم إلا في أنه كان ناصع الفكر بحكم العاطفة مضبوط الخيال بدرجة أكبر من الرومانيك . وهذا طبيعي ، لأنه كان أولاً وقبل كل شيء فيلسوفاً ، وكانوا هم قبل كل شيء شعراء .

فلنأخذ بعد هذا إذن في تحديد ماهية الفن عند شوبنهاور والغاية منه . والكلام هنا ينقسم إلى قسمين : الموضوع والأداء . فعلى أن نبحت أولاً فيما هو الجميل وما مصدره وهل يوجد فينا أم في الأشياء ، وما هي درجاته وأنواعه ، وعلى أن نبحت ثانياً في أساليب التعبير عن الشيء الجميل .

أما الجميل فهو « الصورة » ؛ والأشياء الجميلة هي تلك التي تعبر، مع تفاوت في الدرجة، عن الصورة ، وبقدر درجة التعبير تكون درجة الكمال في الجمال . ذلك أن الأشياء الخارجية التي يتجة إليها العقل بواسطة الإرادة منها ما يدعو إلى التأمل الخالص المنزه عن كل إرادة ، ومنها ما يثير في النفس شعوراً بالمقاومة يحول بيننا وبين الإدراك المجرد والتأمل النزيه . والأشياء الأولى تحدث أثرها في النفس بلا مقاومة بل في انسجام تام معها ، فينشأ عنها توازن في قوى النفس ؛ أما الأخرى فإن فيها من الشذوذ مع النفس والتباين وإياها ما يجعلها تثير انصرافاً عنها . ولكل منها درجات ؛ حتى إن كلا الصنفين من الأشياء يكونان معاً تماماً تصاعدياً . وهذا التصاعد مصدره الاختلاف

في درجة التعبير عن الصورة أو المثال أو النوع ، فما كان أتم تعبيراً كان في قمة السلم وما كان أقل تعبيراً كان في أسفله . وهذا التعبير هو الجمال . والجمال يتفاوت إذن تبعاً لدرجته في سلم التعبير عن الصورة . والصورة بدورها هي « التحقق الموضوعي الموافق للارادة بواسطة ظاهرة مكانية » ، فالجمال إذن يتفاوت تبعاً لنسبه تحقيق الارادة موضوعياً . ومن هنا كان « الجمال الانساني » أعلى مراتب الجمال ، لأن فيه أعلى درجة من درجات التحقيق الموضوعي للارادة قابلة للابصار . فهو « صورة » الإنسان بوجه عام معبراً عنها في هيئة مُبَصَّرَة . وفي هذا المعنى يقول جيته : « حينما ندرك الجمال الإنساني نكون في عصمة من كل سوء ؛ إذ نشعر بأننا في وفاق مع أنفسنا ومع العالم » .

والطبيعة في تحقيقها للجمال ، أي للارادة ، تبدأ من البسيط وترفع درجة الكمال في الجمال بارتفاع درجة التعقيد ؛ لهذا كان الجسم الانساني من هذه الناحية أيضاً أعلى الأجسام الطبيعية مرتبة في الجمال لأنه أكثرها تعقيداً . والعلة في ذلك أنه كلما ازداد التعقيد كانت الحاجة إلى الانسجام والوفاق بين الأجزاء أظهر ، أي كانت درجة الجمال أيبين . فما الجمال إلا انسجام .

وهذا هو الجمال من الناحية الموضوعية . فهو إذن التحقق الموضوعي الموافق للارادة في ظاهرة مكانية ، أي هو والصورة سواء . أما من الناحية الذاتية ، أي من ناحيته الشعورية ، فإن

المسألة تنقسم قسمين: أولهما كيف نميز بين الجميل وغير الجميل أو ثانيهما ما هو جوهر الشعور بالجمال؟ والمسألة الأولى ترجع إلى مسألة الحكم التقويمي الجمالي: هل هو قبلي سابق على التجربة، أو بعدي لاحق عليها. ويحل شوبنهاور هذه المسألة على أساس أن هذا الحكم قبلي ولا يمكن أن يستخرج من التجربة البحتة، ولو أن هذه القبلية من نوع آخر مختلف عن تلك التي عرفنا من قبل في مبدأ العلة الكافية. ومصدر هذا الاختلاف أن القبلية في حالة مبدأ العلة تتعلق بالشكول العامة للظاهرة كظاهرة، وبالكيفية التي بها تمكن المعرفة؛ أما في حالة الجمال، فإن القبلية لا تتعلق بالشكل، بل بموضوع الظاهرة، وتتصل بماهية الظاهر لا بالكيفية التي عليها يظهر. ولكن ملكة الحكم التقويمي الجمالي، وإن كانت موجودة لدى جميع الناس، فإن ذلك ليس بدرجة واحدة. فنحن ندرك الجمال الإنساني، حينما نراه؛ ولكن الفنان الحقيقي هو الذي يدركه بوضوح قد بلغ من الدرجة أنه يظهره لنا كما لم يره مطلقاً، وبطريقة تجعل ما ينتجه يفوق ما في الطبيعة؛ ومثل هذا ليس بممكن إلا لأننا نحن هذه الإرادة، التي نحملها هنا ونتج تحقيقها الموضوعي الأوفق والأعلى. والعلّة في قدرتنا على إدراك هذا الجمال أن لدينا معرفة سابقة بما تحاول الطبيعة، أي الإرادة، خلقه، وهذه المعرفة السابقة مرتبطة عند الفنان العبقرى بعمق في التأمل يهيء له إدراك الصورة والتعبير عنها بوضوح يفوق بكثير تعبير

الطبيعة؛ فبواسطة هذا التأمل العميق يستطيع أن يصنع من المرمر الصلد أشكالاً جميلة لا تستطيع الطبيعة إنتاجها إلا بعد جهد جهيد ويبدو، هو يقدم عمله إليها، وكأنه يصبح في وجهها قائلاً: «هذا ما كنت تقصدينه»، وحينئذ يصبح الناقد الحاذق مردداً: «أجل، إنه هو».

أما حقيقة الشعور بالجمال فيعرفها شوبنهاور بأن يقول إن حالة الشعور بالجمال هي «حالة التأمل الخالص والوجد في العيان، ونسيان كل فردية، والقضاء على هذا النوع من المعرفة الخاضع لمبدأ العلة والذي لا يعرف غير العلاقات بين الأشياء، وهي اللحظة التي يتحول فيها الشيء الجزئي بحركة واحدة إلى «صورة» نوعه والفرد العارف إلى ذات مجردة عارفة بمعرفة متحررة من الإرادة؛ ومن ثم تكون الذات والموضوع، بهذه الصفة الجديدة، في مأمن من سلطان الزمان وغيره من الإضافات. وفي مثل هذه الحالة نسيان عند المرء أن يتأمل غروب الشمس من سجن أو يتأمل من قصر» لأن الإنسان في هذه الحالة قد تحرر من نير الإرادة وسما بوجوداته فوق الفردانية والزمانية، أي صار ذاتاً عارفة خالصة. وهي بالضرورة حالة سرور أو على الأقل حالة خلو من الألم؛ لأن مصدر الألم الإرادة، وهنا انعدمت الإرادة. وهذا الشعور بالجمال يتم بلانضال مع موضوعات الطبيعة، لأنه يقوم على انسجام بين الذات المتحررة من الإرادة وبين الصورة المتحققة في الأجسام الممتدة بالمكان فهنا يتلاقى العيان والموضوع كما يلتقي العاشق بمعشوقه.

أما إذا كان تحصيل حالة المعرفة الخالصة لا يتم إلا بواسطة نضال شعورى وانفصال حاد عن الإرادة ، فإن الشعور هنا ليس شعوراً بالجمال ، بل « بالسمو » أو « الجلال ». فهنا نجد الموضوعات الطبيعية التى تغرينا أشكالها على تأملها والاقبال على التملى بها تقف من الارادة الإنسانية موقفاً عدائياً ، فيه تجد لهذه الارادة وفيه مقاومة صادرة عن ضخامة قوتها وفيه محاولة مقصودة لسحق الارادة وإرهاقها ، ولسكن الناظر لا يستسلم لهذه القوة ، بل ينظر فيها فى هدوء ويتأملها فى أمن وسكون ، بأن ينتزع نفسه من إرادته ومما ترتبط به من علاقات مسلماته للمعرفة الخالصة فيكون شعوره حينئذ شعوراً « بالسمو » ، ويكون الشيء الذى أثار فيه هذا الشعور « سامياً » ؛ لأنه « يسمو » فيه على الشيء الذى أراد إرهاقه وارتفع منه إلى المعرفة المتحررة من قيود الارادة . فالفارق بين الجميل والسامى إذن ينحصر فى أن المعرفة الخالصة فى حالة الجميل تسود بلا نضال ولا مقاومة ؛ بينما فى حالة السامى لا يبلغ الانسان هذه الدرجة إلا بعد نضال شعورى عنيف مع الارادة . ولا بد أن يكون تحصيل هذه الدرجة مصحوباً بالشعور بهذا النضال ، بل لا بد أيضاً من وجود هذا الشعور طالما كنا نريد الاحتفاظ بالشعور السامى . ولهذا فانه يبقى فيه دائماً ذكرى للارادة ، ولهذا الارادة الفردية أو تلك ، وإنما للارادة بوجه عام معبراً عنها فى الجسم الانسانى .

والشعور بالسمو درجات وفروق لا نستطيع أن نتبينها بدقة إلا بواسطة أمثلة مع حس مرهف بالفروق ، خليق بالفنان الممتاز . وهي أمثلة تكشف لنا في شوبنهور عن فنان من الطراز الأول في براعة الوصف وعمق الإحساس بالجمال ، وشعور حي مشترك في وجدان الطبيعة . قال شوبنهور وأجاد : « لننتقل بشعورنا إلى أريضة خيمت عليها الوحشة وجللها السكون الرهيب ؛ الأفق غير محدود ، والسماء صفت من الغيوم ؛ والدوح والنبت يكتنفه جو لحر الكفيه ؛ ولا حيوان ولا إنسان ولا ماء يسيل ؛ وفي كل مكان جثم الصمت العميق . هذا منظر يبدو وكأنه يدعونا إلى حشد الخاطر والتأمل الخالي من الإرادة ومقتضياتها : وهذا بعينه ما يضيء على مثل هذا المنظر الموحش في السكون صبغة السمو . لأنه لما كان هذا للمنظر لا يقدم إلى الإرادة الدائبة السعى وراء الجهود والنجاح أى موضوع مثير للرضا أو للسخط ، فإنه لا يبقى أمام الإنسان إلا أن يتأمل تأملاً خالصاً في هدوء ؛ ومن لا يستطع أن يرتفع إلى هذا التأمل يصر فريسة ، وبالعار ، لتعطل إرادته خات من العمل ولعذاب ملال مخيف ... فهذا المنظر الذى أتينا على وصفه قد أعطانا شعوراً بالسمو ، ولكن فى أدنى مراتبه ، لأنه يخالط حالة المعرفة الخالصة للبيئة بالهدوء والاستقلال ، ذكرى معارضة صادرة عن تلك الإرادة الخاضعة البائسة الساعية إلى الحركة باستمرار . »

« لتصور الآن هذا المكان وقد خلا من النبات : فلم يعد فيه غير صخور جرداء . إن ارادتنا يغزوها في الحال قلق يشيره خلوه من كل طبيعة عضوية ضرورية لكياننا ، فهذا العراء يتخذ صورة مخيفة ؛ ومزاجنا يصير أسيان حزيناً ، ولا نستطيع أن نسمو إلى حالة المعرفة الخالصة ، اللهم إلا إذا تجردنا كل التجرد من منافع الإرادة ؛ وطالما كنا على هذه الحال ، تستمر للشعور بالسمو السيادة بوضوح فينا» .

« والمنظر التالي يعطينا هذا الشعور بدرجة أعلى : هاهي ذى الطبيعة في اضطراب طاصف وبصيص من النور ينفذ خلال سحاب صائب مكفهر ؛ وصخور طائية حرداء تحاق بثقلها الرهيب وتفتاق من دوننا الأفق القسيح ، والماء المزد يسيل في صخب ؛ والقفر في كل مكان وللريح زفيف وزفرات خلال الشعاب . هذا منظر يكشف لنا عن خضوعنا للطبيعة وصراعنا وإياها ، وعن سحق إرادتنا : لكن طالما لم يسيطر الجزع الشخصي ، وطالما بقي التأمل الجمالي ، فإنها الذات العارفة تجيل النظر في غضبة الطبيعة وفي صورة الإرادة المقهورة ؛ فلا يعنينا ، وقد دخلت من كل تأثر وسادها عدم أكثرات إلا أن تكشف عن « الصور » في هذه الموضوعات نفسها التي تهدد الإرادة وتخيفها . وهذا التباين نفسه (بين الذات وبين الطبيعة) هو الذي يعطى الشعور بالسمو» .

ويتدرج هذا الشعور شيئاً فشيئاً بقدر ما تزداد قوة التأثير الساحق في الذات للارادة الإنسانية ، بواسطة ماتراه أمامها من صراع جبار بين قوى الطبيعة الوحشية النافرة .

لكن لا تحسبن أن هذا الشعور لا يقوم إلا بإزاء الطبيعة ، بل إن له أنواعاً ثلاثة بحسب الموضوعات الثلاثة التي تثيره . فينقسم إلى سمو حركي ، إذا كان موضوعه في الطبيعة ؛ وسمو رياضي ، إذا كان موضوعه المقدار ؛ وسمو أخلاقي ، إذا كان مسرحه النفس الإنسانية . أما السمو الحركي فقد أتينا على وصفه ودرجاته ؛ والسمو الرياضي يتجلى في المعمار حينما نرى بناءً فنياً شامخاً كالمهرم مثلاً ، فإن في نسب أجزائه وشدة صراعه مع الجاذبية لمثاراً للشعور بالسمو لا مثيل له ؛ والسمو الأخلاقي ، نراه واضحاً في أعمال البطولة الصادرة عن نبالة الخلق ، وعزة الجانب ، وشدة الشكيمة ، وقوة الأُسْر ، واحتمال المكروه في أناة ورباطة جأش .

هذه التفرقة بين الجميل والسامى تفرقة قديمة ؛ لكنها لقيت عناية كبرى في العصر الحديث ، خصوصاً في القرن الثامن عشر الذي احتلت من تفكير أبنائه في علم الجمال المقام الأول . ولم يأت فيها شوبنهاور بمجديد اللهم إلا في دقة التحليل الصادر عن شعور فني حى . أما في التحديد وبيان الدرجة والصلة بين الجميل والسامى فالأحرى أن يقال إن شوبنهاور تخلف كثيراً عن عالجوا هذا

البحث من قبله ، خصوصا كنت . فقد ارتفع كنت إلى القمة في العمق وبراعة التحليل والقدرة الهائلة على تشریح هذا الشعور ، وذلك في القسم الثاني من كتابه « نقد ملكة الحكم » ، بعنوان « تحليلات السامى » . ولو قورن هذا بما كتبه شوبنهور أو ما كتبه بيرك ، لبدا لنا هذان قزمين أمام ذلك العملاق الطويل . وكنا نود أن نعرض خلاصة تحليل كنت للسامى ، ولكن المجال لا يتسع هنا لهذا . فنجتزئ بأن نقول إن السامى عند كنت ينشأ الشعور به في كل حالة نكون فيها بإزاء موضوع يفوق كل وسائل ملكة الإدراك لدينا ، فلا نستطيع أن نضغطه في كل تام سواء أكان هذا بواسطة العيان أم بواسطة التصور . فالسامى هو العظيم سواء أ كانت هذه العظمة في الامتداد أم في القوة : ففي الحالة الأولى يكون السامى رياضياً ، وفي الثانية يسمى حركياً . والفارق بينه وبين الجميل أن هذا يكشف عن انسجام ، أما السامى فيبين عن صراع بين الذهن وبين الخيال . وفي هذا يتبين تأثر شوبنهور بكنت إلى حد كبير ، وما الفارق بينهما إلا في إدخال شوبنهور للإرادة في تفسيره لتأثير السامى والجميل .

بل إن شوبنهور أثره أيضا في مصدر هذا الشعور بالجميل والسامى هل هو فينا أو في الآباء . فكنت يقول إنه فينا ، في مزاج الروح ؛ وليس في الطبيعة أو في موضوع الخارجى . وكذلك فعل شوبنهور

فإن نظرة بسيطة إلى التحليل الذى قننا به لفكرة الجمال والسمو تكفى لإقناعنا بأن المصدر دائماً هو الذات التى تشعر بالانسجام فى الجميل أو بالضال فى السامى ؛ لأن كل شيء يتوقف كما رأينا على إدراك « الصور » فى عيان غير خاضع للإرادة ، ومثل هذا العيان يتعلق بالذات وحدها ولا دخل للموضوع فيه ، اللهم إلا إلى حد محدود . فليس بصحيح إذن ما ذهب إليه فولسكت ومن نهج نهجه من أن شوبنهاور قد وضع الجمال فى الموضوع لا فى الذات ، فى الطبيعة لا فى الروح ، وإن كنا نجد لشوبنهاور فى الواقع تعبيرات تشير إلى هذا المعنى إشارة غامضة . فغريب منهم أن يقولوا هذا ويؤكدوه ، بينما هم يرون شوبنهاور يقول بكل صراحة إن كل شيء مردّه فى الجمال إلى موقف الذات من الموضوع الخارجى ؛ وإن الشعور بالجمال يأتى بواسطة عيان خالص تدرك فيه الصور المتحققة فى الموضوعات المحسوسة .

فإذا اتقلنا الآن من موضوع الجمال إلى التعبير عن الجمال ووسائل هذا التعبير ، وجدنا أن هذا التعبير يتم على أنحاء عدة ، بحسب مادة التعبير . فإذا كانت الحجر ، كان التعبير بالمعمار ؛ وإذا كانت اللغة ، كان التعبير بالشعر ؛ وإذا كانت النعمة ، كان التعبير بالموسيقى ؛ وإذا كان اللون أو كان التعبير عن الشكل الإنسانى ، كان ذلك فى فنون التجسيم . ويكسر شوبنهاور لكل نوع من هذه

الأنواع فصلاً يحمله فيه تحليلاً فلسفياً عميقاً ، على أساس نظريته في ماهية الفن ؛ ويصنفها مرتباً إياها تبعاً لدرجات تحقيق الإرادة موضوعياً فيها .

وأدنى هذه الدرجات تلك التي يعبر عنها فن المعمار ، لأنه تعبير عن خواص المادة الجامدة : من ثقل وتماسك وصلابة ، وهي المظاهر الأولى والبسيطة والغامضة للإرادة ، التي هي قوام الطبيعة ؛ ثم إلى جانبها ، عن الضوء الذي يبدو من نواح عدة النقيض لتلك الخواص . وموضوع تعبيره والغاية التي يصبو إلى تحقيقها هو النضال بين قوة الثقل وقوة التصلب . فهما كانت الشكول التي يبدو عليها هذا التعبير ، ومهما اختلفت المواد التي يستعين بها في الأداء ، فإن المقصد دائماً واحد وهو هذا التصوير للنضال بين قوة الثقل وقوة التصلب وهو نضال في الإرادة الكلية نفسها .

وإذا كان موضوعه النضال فإن تأثيره ليس تأثيراً رياضياً خصب بل وأيضاً ديناميكياً قووي . والدليل على هذا أنه لو كانت المسألة مسألة تعبير عن الأشكال الهندسية وكفى ، لما كان لاختلاف المواد المصنوع منها الأثر المعماري أدنى أثر في التعبير . لكن الواقع هو أن هناك فارقاً جوهرياً بين أن يكون هذا الأثر مصنوعاً من المرمر أو الحجر أو الخشب : وما ذلك إلا لأن لكل مادة من هذه المواد خصائص قوية تميزها في التأثير الذي تحدثه في الناظر إليها .

ومن هنا فإن لكل طراز مادة معلومة ، فيها يكون تعبيره عن نفسه على أتمه . وثمت دليل آخر نستطيع أن نستخلصه من تأثير المعمارى الخالى مع ذلك من التماثل الانسجامى والنسب الهندسية مثل الأطلال . فإنها تؤثر فينا جمالياً ، مع خلوها من النسب الرياضية وما ذلك إلا لأنها تعبر عن نضال إرادة مضى أثرها الحى ، وصارعت الزمن فى أثرها الباقى ؛ وهذا الصراع كما يقول زميل فى تحليله العميق الثاقب لفلسفة « الأطلال » الجمالية ، يؤثر فى الإنسان كما يؤثر صراع البطل فى المأساة . فمن هذا يتبين لنا أن مهمة المعمار الرئيسية أن يؤثر فى الناظر إليه تأثيراً قوياً . بل يذهب شوبنهاور إلى أبعد من هذا فيقول إن انتظام الشكل والتناسب والتماثل الإنسجامى ، كل هذه الكيفيات الهندسية لا يمكن أن تكون موضوعاً لأى فن من الفنون الجميلة ، لأنها خصائص للمكان ، لا للصور ؛ والفن لا يعبر ، كما رأينا ، إلا عن الصور ، ولهذا فإن قيمتها ، حتى فى المعمار ، ثانوية دائماً . ويسوق تأييداً لهذا بأن يقول إنها لو كانت الغرض الوحيد أو الرئيسى الذى يقصد إليه المعمار كفن ، لانتج النموذج نفس التأثير الذى يحدثه الأثر الفنى التام . والحال ليست كذلك إطلاقاً : فإن آثار المعمار تقتضى دائماً أن تكون ضخمة الحجم من أجل أن تحدث تأثيرها الجمالى ؛ لأنها فى هذه الحالة وحدها قادرة على أن تعطينا صورة للنصال بين قوة الثقل وقوة التصلب . وهكذا نرى أن المعمار يقوم فى جوهره على التعبير عن الثقل

وحامل الثقل ؛ وخير تحقيق لهذا يتم في العمود ومسطح العمود ذلك لأن العمود مستقل عن مسطحة في التكوين ، فلا يوجد بينهما غير تماس فحسب ، لا اتصال بمعنى امتداد حتى يكون الاثنان شيئاً واحداً . ومن شأن هذا الانفصال أن يجعل التأثير المتبادل بين العمود ومسطحه ظاهراً بوضوح ، أى الصلة أو النضال بين الثقل (مسطح العمود) وبين حامل (الثقل) . ومن هنا كان الجدار أقل تأثيراً من ناحية الجمال المعماري من العمود ومسطحه : لأنه ، ولو أننا هنا بازاء حامل ومحمول فانهما ليسا متمايزين بدرجة تسمح برؤية مدى التأثير المتبادل بين الاثنين . ولذلك نجد بعض أنواع الطراز تلجأ إلى وضع أعمدة في وسط الجدران بارزة عنه بعض البروز ، وما ذلك إلا لاشعار الناظر بوضوح الصلة بين الحامل والمحمول أو حامل الثقل والثقل ؛ ولكن هيهات مع ذلك أن يحدث عن هذا نفس التأثير الذي يحدثه العمود المنفصل .

لكن يجب من أجل تحصيل أعلى درجة من الجمال في المعمار ان يكون النضال بين الثقل وحامل الثقل ، أى بين قوة الثقل وقوة التصلب ، سجال أو شبه سجال ، والا انتهينا إلى صورة خارقة خيالية جدا لا تنفق وحقيقة ما شاهدته في الطبيعة : وهذا هو السبب في تفوق المعمار القوطي ، في نظر شوبنهاور . فان الفكرة الأساسية في المعمار اليوناني هي في التوازن أو الأوزان في نضال النضال (م ١١ - شبنهور)

بين الثقل والصلب ، بينما هي في المعمار القوطى فى الانتصار التام والظفر المطلق الذى يحرزہ التصلب على الثقل . فإننا نجد المعمار القوطى قد اختفى فيه الخط الأفقى ، وهو الخاص بالثقل ، ولا يظهر تأثير الثقل إلا بطريق غير مباشر على هيئة أقواس وقباب ، بينما الخط العمودى ، وهو الخاص بحامل الثقل ، يسود وحده ، معبرا فى صخب عن انتصاره الهائل على التصلب بواسطة الدعائم المفرطة فى العلو وبواسطة الأبراج والبريجات والسهمان التى ترتفع محلقة فى الهواء دون أن تكون حاملة لشيء . أما المعمار اليونانى فعلى العكس من ذلك يوازن بين تأثير الثقل وبين تأثير حامل الثقل فى انسجام بديع . ولهذا فانه حقيقة لها أساسها فى الطبيعة ، بينما انتصار التصلب على الثقل وهم ، فاذا زاد وأفرط ، كما هى الحال فى الفن القوطى ، خرج عن كل معقول دخل فى باب الخوارق والأسرار العجيبة .

فإذا ما ارتفعنا فوق هذه الدرجة ، درجة خواص المادة الجامدة قليلا ، وصلنا إلى الطبيعة النباتية ، وهى التى يعبر عنها فى فن البساتين . وهذا الفن يقوم الجمال فيه على شيئين : تعدد الموضوعات الطبيعية المخشودة فى البساتين ثم ظهورها بوضوح يجتذب عين الناظر ، ولكن هذا الوضوح ليس معناه انفصالها بعضها عن بعض بل لا بد مع ذلك الانفصال أن تكون فيما بينها وبين بعض فى ارتباط متسق متبادل . ولكن الجمال فى هذا الفن يقوم فى جوهره

على الطبيعة ، ولهذا فإنه كلما كان فعل الطبيعة فيه أظهر من فعل الإنسان بيده الثقيلة ، كان الجمال أكبر. وهذا ما عيّن البستان الإنجليزي أو بالأحرى الصينى عن البستان الفرنسى القديم . فإن سر الجمال فى البستان الإنجليزي أنه يوهمك أن الفن لم يتدخل إلا قليلا ، وأن الطبيعة قد تركت تفعل فعلها فى حرية تامة ؛ فهو يدعو الطبيعة فى مكان معين إلى إظهار مكنونها أعنى إرادتها والتعبير عن صورها . بينما البستان الفرنسى يعكس فى الأكثر ، إن لم يكن دائما ، إرادة مالك الحديقة أو مخططها ، فيفرض إرادته هذه على الطبيعة ويجعلها تعبر لآعن صورها الحقيقية بل عن نزواته وأهوائه : ولذا تمتاز بتلك السياجات ذوات المقاطع المستوية ، والأشجار المنتظمة الأشذاب على أنحاء كثيرة ، والمخارف المستقيمة الخ . وأيا ما كان ، فإن فن البساتين لا يكشف عن عمل حقيقى فنى ، فضلا عن أن إرادة الإنسان فى الخلق والابداع لديه محصورة تحد منها الطبيعة بقسوة .

أما الفن الذى يكشف عن عمل الانسان الضخم ويعبر فيه عن درجة أعلى بكثير من هاتيك ، فهو فن التجسيم بنوعيه : النحت والتصوير . فإن موضوعه الجمال الإنسانى وهو ، كما قلنا من قبل ، أعلى مراتب الجمال ، لأن فيه أعلى درجة من درجات التحقيق الموضوعى للإرادة . ويمتاز النحت من التصوير بأن المهم فى

الأول هو الجمال والرشاقة ؛ بينما المهم في التصوير هو الخلق . ذلك أن النحت يعبر عن تحقق الارادة الانسانية موضوعياً في المكان ، وهذا هو الجمال ؛ وفي الزمان ، وهذا هو الرشاقة . والرشاقة تقوم على الحركة والوضع في الجسم . ولهذا عرفها فنكلمن ، عالم الجمال الألماني المشهور في القرن الثامن عشر ، بأن قال : « إن الرشاقة هي النسبة الحقيقية بين الشخص الفاعل وفعله » : ولهذا فإن الجمال يوجد في النبات ، دون الرشاقة . ومن هذا يتبين أن الرشاقة عبارة عن وفاق وانسجام بين حركات الأعضاء في الجسم وأوضاعها بحيث يكون التعبير عنها متلائماً بالدقة وإياها ، فلا فضول ولا خروج على الانتظام . أما التصوير فالمهم عنده الخلق والتعبير وال عاطفة والوجدانية . ولما كانت لكل إنسان « صورته » الخاصة ، وكان الفن تعبيراً عن « الصورة » ، فإن التصوير يعبر عن صورة الفرد ، أعنى خلقه ؛ ولكنه لا يعبر عنه في أعراضه الفردية ، بل ينحود دائماً إلى استخلاص الطابع الانساني العام في خلق الفرد ، ثم تصويره ؛ فالخلق هنا إذن خلق مثالي يعبر عن « صورة الانسانية عامة » . لكن ليس معنى هذا أن التصوير لا يعبر عن الجمال ، بل هو يعبر عنه وده الخلق معاً ؛ فلا يجب أن يمحو الجمال الخلق ، كما لا يجب أيضاً أن يمحو الخلق الجمال ؛ لأن محو الجمال ، أعنى الصورة الانسانية العامة ، ينتهي إلى الرسم الهزلي ؛ ومحو الخلق ، أعنى الصورة الشخصية ، من شأنه

أن يجعل التصوير خالياً من كل معنى . فالجمال والخلق إذن يتعاونان في التصوير . ومع ذلك فيجب أن يلاحظ هنا الفارق الذي ذكرناه من قبل بين النحت والتصوير ، وهو أن المهم في الأول الجمال والحركة ، وفي الثاني الخلق . والعلة في هذا التفريق أن الجمال المطلق الذي يتطلبه التصوير لو أنه حقق في النحت لانتج تشويهاً في التعبير عن الخلق وتزييناً له ولأحدث مللاً وسآمة ، لأن الخلق سيكون حينئذ رتيباً لا تنوع فيه . ولهذا فإن التصوير يستطيع أن يعبر عن الوجوه القبيحة والأجسام الهزيلة، أما النحت فيشترط في التعبير عنه إن لم يكن الجمال المطلق ، فعلى الأقل قوة الشكل وامتلاؤه ومن هنا نستطيع أن نفهم السر في توفيق دومينكو (سنة ١٥٢١ — ١٦٤١) ، الرسام الايطالى الممتاز بالبساطة والدقة ، في الأثر الفنى الرائع الذى صور فيه المسيح مصلوباً ذا جسم هزيل ، والقديس جيروم وهو يحتضر بعد أن أنهكته السن والمرض ؛ كما نفهم السبب فى إخفاق دو نتاو (سنة ١٣٨٣ — سنة ١٤٦٦) ، النحات الواقعى الإيطالى ، فى تصوير يوحنا المعمدان الذى لم يبق الصوم المستمر على أثر فيه غير جلد ملتصق بعظامه ، وذلك فى التمثال المرصى الموجود فى رواق فيرنتسه . فالأول نجح لأنه استعان فى التعبير بالرسم والتصوير ، والثانى أخطأ لأنه لجأ إلى النحت . والنحت يميل أكثر إلى التعبير عن توكيد إرادة الحياة ، بينما التصوير يتجه بالأولى إلى

إنكار إرادة الحياة . ولعل في هذا تفسيراً لهذه الظاهرة في تاريخ الفن ، ألا وهي أن النحت كان الفن الرئيسي عند الأقدمين ، بينما التصوير هو الفن الأول عند المحدثين المسيحيين .

هنا ويعرج شوبنهاور على مشكلة أثارت الكثير من الجدل في عصره ، بعد أن عالجها لسنج في بحث طويل ، وتلك هي مشكلة تمثال لاؤكون . ويمكن أن تصاغ هكذا : « لماذا لا يصرخ لاؤكون ؟ » والقارىء يذكر أنه في أحضان حية مخيفة أحاطت بجسمه وبجسم أولاده . وقد حل لسنج هذه المشكلة بأن قال إن الصراخ والجمال لا يجتمعان ، بعد أن نقد التفسير الذى أدلى به فنكلمن حين عزاء عدم الصراخ إلى ضبط النفس وقوة التجلد عند لاؤكون . وأضاف إلى هذه الحجة حجة أخرى ، هي أن الفنان ما كان له أن يصور في أثر فنى دائم غير متحرك حالة عارضة ليست باقية ، هي حالة الصراخ . وقد رد جيته على هذه الحجة بأن قال إن المسألة على العكس من ذلك تماماً ، فإن الفنان يحاول دائماً أن يلتقط مثل هذه اللحظات العابرة ليخلدها في الأثر الفنى . وأخيراً جاء ألويس هرت (سنة ١٧٥٩ — سنة ١٨٢٧) عالم الآثار المشهور فأدلى بتفسير ثالث ، وهو أن السبب في عدم صراخ لاؤكون هو أنه كان حينئذ في حالة اختناق أو سكتة رئوية ، فلم يكن في قدرته الصراخ . ويمجيب شوبنهاور من كل هذه التدقيقات البارعة في حل مسألة هي من البساطة بمكان . فالعلة

في عدم صراخ لاؤكون ، في نظر شوبنهاور ، ترجع إلى طبيعة فن النحت نفسه . فهذا الفن لا يعبر عن أصوات ، بل عن شكول أو حركات ؛ والصراخ صوت ، فلا يستطيع التعبير عنه مهما بذل من محاولات رمزية للإشارة إليه : مثل فتح الفم . ومن هنا نفهم السر في أن لاؤكون فرجيل يصرخ صراخاً هائلاً ، بينما لا يصرخ في هذا المثال . فالشعر يعبر عن الصوت ، فيستطيع إذن التعبير عن الصراخ ، والنحت لا يعبر عن الصوت ، فلا يقدر على التعبير عن الصراخ . ولهذا لجأ المثال ، من أجل التعبير عن الألم العنيف الذي يحس به لاؤكون ، إلى وسائل التعبير الخاصة بالنحت : وهي الرشاقة ، أعني حركة أعضاء الأجسام ونسبة أجزائه بعضها إلى بعض .

وفي الشعر ترتفع إلى أعلى درجة من درجات التحقق الموضوعي للإرادة وذلك بالتعبير عن الإنسان في نوازعه المستمرة وأفعاله المتصلة . وهو فن يقوم بتحريك الخيال بواسطة الألفاظ . ويمتاز من التاريخ بأن التاريخ لا يعبر عن الإنسان في « صورته » ، بل في حوادثه وأعراضه وتغييراته ؛ أما الشعر فيدرك « الصورة » ، أعني الطبيعة الانسانية العامة ، بغض النظر عن العلاقات والزمان ؛ أي أنه يدرك التحقق الموضوعي التام للإرادة في أعلى درجات التعبير عنه . ولهذا فإن الذي يريد أن يعرف الانسانية في جوهرها الباطن ، في صورتها ، متحققة ومتطورة باستمرار ، فعليه أن يبحث عنها في

الآثار الخالدة لكبار الشعراء ، ففيها صورة أكثر أمانة وأعظم وضوحاً من تلك التي يعرضها علينا المؤرخون : لأن خير هؤلاء يعيدون عن أن يكونوا في المرتبة الأولى كشعراء ، فضلاً عن أنه تعوزهم حرية الحركة .

وأول شرط يجب أن يتوافر في الشاعر من أجل تحقيق هذا الغرض أن يكون ممتلئاً بالشعور بقيمته ، مؤمناً بمواهبه ، ذا ثقة بعبقريته معتزلاً بنفسه إلى الحد الأقصى . « فكل شاعر يجب أن يعتقد في نفسه أنه ممتاز ، طالما عبر بدقة عما أدركه ، وطالما كانت الصورة التي يقدمها موافقة للأصل الذي تصوره في ذهنه ، ويجب أن يظن في نفسه أنه ندى لكبار الشعراء ، لأنه لا يجد في آثارهم شيئاً أكثر مما في آثاره ، أعنى شيئاً أكثر مما في الطبيعة نفسها ، ولأن نظراته لا تستطيع أن تنفذ إلى أبعد مما نفذت إليه ... ومع ذلك فإن الناس يحاولون أن يضعوا من هذا التقدير الشخصي ، بأن يفرضوا عليه التواضع لكنه من المستحيل على الرجل الممتلئ بالفضل والجدارة ، الشاعر بقيمته ، أن يغمض عينيه عن عبقريته بقدر ما هو مستحيل على رجل طوله ستة أقدام أن لا يرى نفسه أعلى من الآخرين . وها هو ذا هوراس ولو كرتيوس وأوفيد والأقدمون جميعاً تقريباً كلهم قد أشادوا بذكر مناقبهم ، وهكذا فعل أيضاً من بين المحدثين دانتة وشكسبير وبيكون وغيرهم وغيرهم . وإن من غير المعقول إطلاقاً أن يكون

الإنسان عظيم الروح دون أن يشعر بذلك ويشعر الآخرون والمعجزة وخدمهم هم الذين يتخذون من التواضع فضيلة، حيث تعوزهم كل فضيلة، وما هذا التواضع إلا شعورهم بعدمهم المطلق وتفاهتهم التامة... وقد قال كورنى بكل صراحة: إن التواضع الزائف يزيل كل ثقة: فأنا أعرف قيمتى، وأعتقد بما يقوله عنها الآخرون، كما أن جيته هو الآخر قال بوضوح: «الصعاليك وخدمهم هم المتواضعون».

وللشعر أنواع تختلف تبعاً لنسبة العنصر الموضوعى؛ فكما ازدادت درجة الموضوعية علت درجة الشعر: ولهذا فإن الشعر الغنائى فى المرتبة الدنيا، بينما الشعر المسرحى فى المرتبة العليا: ففى الأول العنصر الذاتى هو السائد؛ وفى الثانى السيادة المطلقة للعنصر الموضوعى. وبين هذين الطرفين المتباعدين توجد سلسلة متدرجة طويلة تبدأ من الأغنية الفصصية (الرومانس) حتى تصل إلى الملحمة بالمعنى الحقيقى؛ فإن الشاعر فى الملاحم لا يختفى بقدر ما يختفى فى المسرحية.

ولما للمسرحية من أهمية عظمى، فإن علينا أن نتحدث عنها فى شىء من التفصيل فنقول: «إن الغرض من المسرحية عامة أن تبين لنا بالمثال ماهية الإنسان ووجوده؛ سواء أكان ذلك ببيان الجانب السار أم ببيان الجانب الحزين أم الانتقال من الواحد إلى الآخر» وهنا تنشأ مشكلة، هى: هل الجانب الرئيسى هو الماهية، أى

الأخلاق ، أو الوجود ، أعنى المصير والحادث والفعل ، والواقع أن كليهما وثيق الارتباط بالآخر : لأن المصير والأحداث هي التي تحمل الأخلاق على إظهار ماهيتها ومكنونها ، ومن ناحية أخرى ، الأخلاق وحدها هي التي يصدر عنها الفعل وما يتلوه من أحداث . لكن الشاعر يستطيع أن يغلب الجانب الواحد على الآخر ، ومن هنا تنشأ عدة أنواع من المسرحيات طرفاها المتباعدان هما من هذه الناحية : ملهارة الخلق ، وملهارة العقدة . ولكننا نجد هذين العنصرين على كل حال في كل مسرحية . وما الغرض في المسرحية إلا أن تبين لنا الأفعال الجبارة التي تنشأ من عاملين : أخلاق خطيرة ، وأفعال خطيرة . « ومن أجل تحقيق هذا الغرض إلى أعلى درجة ممكنة ، يبدأ الشاعر بأن يقدم لنا الأخلاق في حالة سكون ، غير كاشف لنا إلا عن الصبغة العامة ، من أجل أن يدخل من بعد مقصداً يحدث فعلا ، وهذا الفعل يصبح باعثاً جديداً قوياً على فعل جديد أكبر أهمية ، وهذا بدوره يولد مقاصد جديد تزداد قوة : ففي مدى الزمان المناسب للموضوع ، يخلى الهدوء الأول السبيل إلى أشد أنواع التهيج ، وفي إبان هذه الحركة تحدث الأفعال الرئيسية التي تظهر فيها بكل جلاء الصفات التي ظلت نائمة في هذه الأخلاق حتى ذلك الوقت ، إلى جانب ما يبدو فيها من مجرى شئون هذه الحياة الدنيا . »

والصورة العليا للمسرحية تبدو في المأساة ، ولهذا تعد بحق
أسمى أنواع الشعر ، سواء أ نظرنا إليها من ناحية صعوبة إنشائها في
ذاته ، أم من ناحية الأثر الذي تحدثه في نفس النظارة . والشعور
الذي تبعته قينا ليس شعوراً بالجمال ، ولكن بالسمو . « لأن
المأساة تكشف لنا عن الجانب الرهيب من الحياة ، عن شقاء
الانسانية ، وسيادة الاتفاق والخطأ ، وسقوط العادل ، وانتصار
الأشرار ، فهي تضع أمام أعيننا إذن طبيعة هذا العالم ، تلك الطبيعة
التي تصطدم مباشرة بإرادتنا . فنشعر بازاء هذا المنظر بقوة تدفعنا
إلى أن ننأى بإرادتنا عن الحياة جانباً ، وإلى عدم الرغبة في الوجود
أو التعلق به . ولكن هذا نفسه يندرتنا بأنه قد بقي عنصر آخر
فينا لا نستطيع إدراكه بطريقة إيجابية بل بطريقة سلبية ، باعتبار
أنه لا يرغب بمد في الحياة . . . حين الكارثة المحزنة ، تقتنع نفوسنا
بكل وضوح وجلاء بأن الحياة ماهي إلا كابوس ثقيل يجب أن
نستيقظ منه . . . وإن ما يعطى للأسيان ، أيا كانت صورته ،
توثبه نحو السامى ، هو اكتشاف هذه الحقيقة ، ألا وهي أن
العالم والحياة عاجزان عن أن يقدموا لنا أية مرضاة حقيقية ، وهما
من أجل ذلك غير خليقين بتعلقنا بهما ، هذا هو جوهر الروح
الأسية ، وهذا هو سبيل التسليم . ولهذا نجد أن أسمى الطباع
وأحفلها بالنبالة والكرامة قد اضطرت في النهاية ، وبعد كفاح

طويل شاق تحملت فيه ما تحملت من مصائب وآلام ، إلى العزوف
والزهد والانصراف عما كانت تسعى حتى ذلك الحين إلى تحقيقه ،
وإلى التضحية بكل ما عسى أن يوجد في الحياة من متع ومسرات .
هكذا فعل هملت ؛ وهكذا فعلت عروس مسينا في رواية شر بهذا
الاسم ، وجرتشن (مرغريت) في رواية « فاوست » . والمعنى الحقيقي
في كل مأساة والمغزى الأصيل الذي يجب أن يكون جوهرها هو
أن ما يكفر عنه البطل ليس خطايا الفردية الخاصة ، وإنما هو
يكفر عن الخطيئة الأصلية الأولى ، وأعني بها خطيئة
الوجود نفسه . وهذا ما عبر عنه كلدرون ، زعيم الشعراء الأسبان
حين قال : « لأن أكبر خطايا الإنسان أن يولد » ، على لسان الأمير
الوفى في مسرحية « الحياة حلم » ، وشكسبير على لسان هملت حين
قال في النهاية : « لم يبق إلا الصمت » ؛ وما صاح به فاوست في
ختام مأساته الخاصة : « ليتنى ما ولدت ! » .

تلك أنواع الشعر . أما صناعته الفنية فتستمد أصولها من
تعريفه الذي ذكرناه في البدء وهو أن « الشعر هو الفن الذي يحرك
الخيال بواسطة الألفاظ » فواده إذن هي الألفاظ بوصفها دلالات
على تصورات ، ومهمته أن يترجم عن « الصور » بالرسم ، لأن
الصور يجب أن يعبر عنها الفن في عيان ورسم عينية قائمة . فعليه إذن
أن يعبر عن التصورات والمعاني المجردة في رسوم محسوسة عيانة

ولهذا نراه يلجأ في التعبير إلى اللغة المجازية يستمد منها وسائله الأصلية لتحقيق أهدافه : من تشبيهات ومجازات واستعارات وكنيات وتلويحات ، فهذه الوسيلة وحدها تهيأ له أن يحدد نطاق المعنى المجرد فيعطيه قواماً محدود المعالم واضح الرسوم بادي الاساير ، حتى يبدو وكأن العين تشاهد مدلوله الحسى عياناً . ومن الوسائل البارعة لإحداث هذا التأثير ، استخدام النعوت والأوصاف بجانب المعاني المجردة ، فإن هذا من شأنه أن يحدد المعنى ويبرزه في صورة عيانية . ولهذا نرى كبار الشعراء يلجأون إليها باستمرار فهذا هو ميروس نراه دائماً تقريباً يضيف إلى كل اسم صفة تشق نطاق المعنى المجرد الذي يدل عليه الاسم فتحدد منه أكثر فأكثر وتكشف معالم صورته العيانية بطريقة أكثر جلاء ، فنراه مثلاً يقول : « هوى ضوء الشمس الباهر فى أحضان المحيط ، جاذباً الليل الفاحم على الارض الحنون » . وهاهو ذا جيته ، وقد هاج فى نفسه الحنين إلى إيطاليا وإلى جو الجنوب ، يقول : « (حيث) النسيم العليل يهب من السماء الزرقاء والأس ساكن والغار مشرع » ، فى هذه المعانى والصور القليلة استطاع أن يهيب بجو الجنوب ويحيا روحياً فيه . ويقول بعد ذلك : « هل تعرف الدار ؟ سقفها يقوم على عمد ، والبهو يرف ، والغرفة يشع منها النور ، وعلى الجدران رسوم من للرمر ترنو إلى » ، فى هذه الأوصاف والجزئيات الضئيلة

مثل لنا إيطاليا ذات الفنون أروع تمثيل ، وكأنها قد عرضت نفسها أمام عينه حية مشاهدة .

وبالشعر تنتهى سلسلة الفنون التى تعبر عن «الصور» باعتبارها التحقق للموضوعى للإرادة. وكلها لاتعبر إذن عن الإرادة نفسها مباشرة بل بطريق غير مباشر ، ألا وهو طريق «الصور» . أما الفن الذى يعبر عن الإرادة مباشرة ، فهو فن الموسيقى . وهنا نجد شوبنهور يحلل فلسفة للموسيقى ويكشف عن سرها إلى درجة أوفت على الغاية العليا والأمد الأقصى فى براعة التحليل وعمق النظر ودقه الإحساس ولم تظفر الموسيقى من قبل - بل ولا من بعد - بمن استطاع أن يكشف عن سرها الميتافيزيقى كما فعل .

فالموسيقى عند شوبنهور « فن مستقل بذاته عن بقية الفنون كلها تمام الاستقلال. ففيها لانجد تقليد أو تكرار أية صورة للكائنات الموجودة بالعالم ؛ ولكن لها مع ذلك من الجلال والروعة وقوة التأثير فى أعماق الإنسان ، والنفوذ إلى أخفى خفاياه ، وكأنها لغة عامة كل العموم قد فاقت فى وضوحها العالم المرئى نفسه - ما يجعلنا نعدّها المعبر الأكبر عن جوهر الوجود وحقيقة العالم » . ذلك لأن الموسيقى هى وحدها من بين الفنون التى تعبر عن الوجود فى وحدته المطلقة ، لآعن هذا الجزء أو ذاك كما تفعل بقية الفنون، فهذه تعبر عن صور متعددة جزئية للوجود، الذى هو الإرادة المطلقة الكلية

كما تتحقق في الظواهر ، ولا تستطيع أن تدرك الوجود ككل واحد تسوده إرادة واحدة بل يتعلق كل فن منها بطائفة من الظواهر التي يتكون منها هذا العالم المحسوس . أما الموسيقى فتجاوز الصور ، هذا المظهر الأول للتحقق للموضوعي للإرادة ، إلى الإرادة نفسها في أعماقها وجوهرها وأدق مضمونها وخفاياها . وتعبر عن هذه الإرادة مباشرة لافي صور منعزلة مفردة ، بل في كل وحدتها المطلقة » إنها تصوير دقيق شامل لإرادة الحياة ، التي هي الوجود ، تصوير لها في مداها وجزرها ، وضلالها وهداها ، ومتناقضاتها وأحوالها للضطربة المتغيرة ، ونزعاتها إلى الهدم وإلى البناء . وهي تعبر في لغتها تعبيراً كاملاً صادقاً عن إرادة الحياة في جوهرها كله ، لافي أجزائها وأطورها المختلفة المتعددة : فلا تعبر عن هذا الألم أو ذاك ولا عن هذا السرور أو ذاك ، وإنما تعبر عن الألم كله والسرور كله في جوهرها وطبيعتها ، كما قلنا في كتابنا « نيتشه » ونحن نعرض نظرية الفن والموسيقى عند شوبنهور . وبيان ذلك أن الموسيقى تجاوز « الصور » إلى الإرادة نفسها ، أي أنها مستقلة عن عالم الظواهر ، هذا العالم الذي تتحقق فيه « الصور » . ولذا تستطيع أن تحيا بدون هذا العالم وأن تبتى لوفنى هو ، بعكس بقية الفنون ، التي لا تستطيع إلا أن تعتمد على هذا العالم في كل شيء . ولم لا ، وهي تعبر عن « الصور » التي لا ترى متحققة إلا فيه ، ولا قوام

حسباً لها إلا به . فمقامها إذن نفس المقام الذي « للصور » ، من حيث أن كلا منهما تحقق موضوعي مباشر للإرادة كلها ، التي هي العالم . ومن هنا جاء تأثيرها الهائل في النفس ، مادامت هكذا تعبر عن الوجود في جوهره وأعمق أعماقه بطريق مباشر ؛ بينما الفنون الأخرى تعبر عن الوجود بطريق غير مباشر ، أو بالأحرى لاتعبر إلا عن ظله ، لا حقيقته ، وهي الصور . ومن هنا أيضاً ، أي نظراً إلى أن كلا من الموسيقى و« الصورة » تحقق الإرادة موضوعياً كان لابد أن يوجد ليس فقط تشابه مباشر ، بل وتواز وتمائل بين الموسيقى و « الصور » .

وهنا نجد شوبنهور ينتقل من هذا الكلام العام إلى التحديد لحقيقة التماثل . فيقول إن الأصوات الأربعة التي تكون كل انسجام وهي الأعلى (تينور) والأدنى (باص) والعليا (سوبرانو) والدنيا (ألتو) أي النغمة الأساسية والثالثة والخامسة والثامنة ، هذه الأصوات تماثل الدرجات الأربع لسلم الكائنات ، أعني المملكة المعدنية ، والمملكة النباتية ، والمملكة الحيوانية والإنسان . ويستمر في بيان التشابه أو التماثل بين قوانين الموسيقى وقوانين المعالم المحسوس ، بطريقة لانستطيع أن نتابعه عليها ، لأن قيمتها العلمية متهمة ، فضلاً عما في كلامه عنها من غموض واضطراب . وهي محاولة تذكرينا بتلك المحاولة البارعة - ولكنها عقيمة - التي قام بها لفيثاغوريون من قبل .

ويؤكد شوبنهور استقلال الموسيقى بنفسها عن بقية الفنون بقوة فيقول إن الموسيقى كموسيقى ليست في حاجة إلى الأصوات أما ما يثير هذه الأصوات من ألفاظ ومناظر وحركات فلا يعنى الموسيقى كثيراً . أجل ، قد تستفيد من الألفاظ فى الأغاني ومن المناظر والحركات فى الأوبرات ، ولكنها استفادة ثانوية محدودة لأن تأثير الأصوات أقوى بكثير جداً وأسرع وأدق من تأثير الألفاظ . والصلة عكسية حينما تضاف الموسيقى إلى هذه الأشياء : فى الأوبرات والأغاني للموسيقية . « لأن فن الموسيقى لا يلبث أن يكشف فيها عن موارد وقوته الكبرى : فسرعان ما تجعلنا الموسيقى ننفذ إلى الأعماق النهائية الخفية فى العاطفة للمعبر عنها بالألفاظ أو الفعل الممثل فى الأوبرا ، وتزيل النقاب عن طبيعتها الحقيقية وجوهرها الصحيح ، بل وترفع السجاف عن روح الحوادث والوقائع نفسها ، بينما المسرح لا يقدم لنا غير الغطاء والجسم » . ولهذا فإن تعبير للموسيقى يبلغ أوجه حينما يخلو من الألفاظ والمناظر والأفعال وهو ما يتحقق فى السيمفونيات على الوجه الأتم . فسيمفونية من سيمفونيات بيتهوفن مثلاً ، نرى فيها خليطاً هائلاً من الأصوات لكنه يقوم مع ذلك على أكمل نظام ، ونضالاً غنياً ينحل من بعد إلى أجل انسجام . وهى من أجل هذا أجل وأدق تعبير عن طبيعة الحياة ، التى تدور فى خليط عجيب من الصور اللانهائية (م ١٢ - شوبنهور)

وتحتفظ بكيانها بواسطة فناء للصور مستمر. وفيها نسمع أصوات جميع العواطف والانفعالات التي يمكن أن تختلج في النفس الإنسانية لكن بطريقة مجردة، وكأنها عالم من الأرواح الخالصة قد خلا من كل مادة. أجل، إننا نميل دائماً إلى الترجمة عنها في صور محسوسة، فيضني الخيال عليها لباساً من الواقع ويخلع عليها اللحم والعظام، ولكن هذا ليس من شأنه أن يجعل فهمنا لها أحسن، ولا تذوقنا أكل بل بالعكس، نحن نحملها حينئذ بأشياء غريبة عنها تشوهها وتدنس طهارتها. فمن الخير لنا إذن أن نتذوقها خالصة طاهرة كأصوات مجردة من كل لباس محسوس.

وتذوقنا للموسيقى يتم دائماً في الزمان وبواسطة الزمان، بغض النظر عن المكان والعلية، أي لا ندركها بالذهن، لأن الأصوات تحدث أثرها الجمالي بتأثيرها الخالص دون أن تكون في حاجة إلى الارتفاع إلى مصدرها وعلتها، كما هي الحال في العيان. فنحن نحس بتأثيرها ونشعر بما لهذا التأثير من متعة عظيمة ونمجدها ترن في أسماعنا وكأنها صدى لفرديوس مألوف لدينا، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نعللها ونفسرها. والعللة في ذلك أنها تصور لنا كل الحركات الخفية التي يهتز بها كياننا دون ما يصاحبها في الحياة الواقعية من آلام وعذاب؛ وإنما هي حركات خالصة من كل إرادة، وإن كانت تعبيراً عن كل الإرادة.

وبهذا تفتتحي نظرية شوينهور في الفن : ومنها ترى أنه قد عني
بالفن عناية خاصة ، مصدرها نظرتة العامة في الوجود باعتبار أن
جوهره إرادة عمياء قاسية وحشية ، وإن العالم المرئي ماهو إلا
وهم فحسب ؛ ولا سبيل لنا إلى التخلص من كابوس هذا الوهم
ونير تلك الإرادة غير الفن ، لأن الفن وحده هو الذي يتأمل العالم
حرأ من قيد الإرادة ومن قيد مبدأ العلة الكافية ، وبالتالي خالياً
من كل ألم ووهم ، لأن مصدرهما الإرادة ومبدأ العلة . وفي هذا
التأمل الخالص والمعرفة المتحررة ، يشعر العبقرى ، وهو وحده
الذي يملك القدرة على هذا الشعور ، بأنه ينعم بمتعة لا حد لها ،
ونشوة حارة تنسيه العالم بارادته الوحشية وأوهامه الخيالية ؛ وبأنه
قد تسلح ضد تلك الوحدة التي قضى عليه بالعيش فيها وبسط الجموع
الحاشدة التي تسلك سبيلها الوعر الشاق وعليها نير الإرادة الذي
لا يرحم ، وعلى عيونها نقاب الوهم الهائل المريع ؛ فيشعر بالسلوى
والعزاء .

لكنه عزاء موقت عابر ساقه إليه الحلم . وهيئات أن يكون
في الحلم جميل العزاء . فسرعان ما تصرخ « الإرادة » في وجهه
بأعلى صوتها الرجاس : انتبه ! فأنا الوجود .

العالم إرادة

« الإرادة أصل الوجود »

مُلحج

إرادة الحياة

« الإرادة اندفاع أعمى إلى الحياة »

الأطراف في تماس ، تلك حقيقة لن نجد لها شاهداً خيراً من فكر شوينهور . فهذا المفكر الذي أكد الذاتية حتى كاد أن يجعل منها مقولة الوجود الوحيدة ، وتعمق مضمونها حتى لم يبق من معناها ومداها على شيء ، هو بعينه من أضاف إلى الموضوعية أعلى نصيب من الوجود ، وهذا الذي صور لنا المعالم الممثل خليطاً لا نهائياً من الظواهر الممعنة في التعدد والتمايز ، هو الذي طارده شيطان الوحدة حتى أرجع كل شيء إلى مبدأ واحد حقيقي ؛ ثم هذا الذي ضرب حول الذات نطاقاً هائلاً لن يسمح لها بأى اتصال بشيء آخر أياً كان غير نفسها ، ليس واحداً آخر غير من ألح في القول بوجوده كائن عال على الذات هو موضوعها وحاملها والأرض التي تمد بحذورها فيها .

وهي ظاهرة نجدها عند كثير من المفكرين ، ونجدها بوجه خاص عند فيلسوف معاصر لشوينهور ، ألا وهو كير كجورد . فهو الآخر قد غالى كثيراً في الذاتية لدرجة أنه جعل من « الأنا » أو « الذات » الوجود الوحيد ؛ ولكنه اضطر بعد هذا أن يخرج بالذات عن ذاتها كي يضعها

وجها لوجه أمام كائن عال عليها ليس في وسعها إلا أن تقف وإياه في نوع من الصلة خاص ، وهو الله . « إن الذاتية ، هكذا يقول كيركجورد ، حينما تبلغ أوجها ، تستحيل من جديد إلى الموضوعية ؛ وتلك ، في نظري ، نتيجة لمبدأ الذاتية لم تكتشف بعد . »

ولكن شوينهور استطاع هو الآخر أن يكتشفها ، فينتقل ، كما انتقل كيركجورد ، من الذاتية المطلقة إلى الموضوعية المطلقة . وبالطريقة عينها التي لجأ إليها وأعني بها « الطفرة » ، هذا السمو الشعري للفكر ، كما يقول مندلزون . وهي طفرة تقوم بها بالفعل ، دون أن ندري ونشعر شعوراً واضحاً بكيفية قيامنا بها ولا العلة التي دفعتنا إليها ؛ بل نجد أنفسنا مدفوعين إلى القيام بها دون وعي منا ولا شعور ، ودون أن تكون ثمت مقدمات مذهبية برهانية يمكن استخلاصها منها . وكل مفكر ، مهما ادعى وتظاهر بأن كل ما في مذهبه محكم النسج المنطقي ، معقول ، تجده يلجأ إليها إذا فتشت جيداً فيه . ولذا يبدو لي أنها طبيعية في الفكر ، لأنها أيضاً من طبيعة الوجود . فهي هذا اللامعقول الدائم ، المقابل للقضاء ، في جوهر الوجود . وإن شئت عليها أمثلة ، فلديك في الفكر الحديث ما يغنيك : فهذا ديكارت قد قام بالطفرة في فكرة الله الذي يضمن اتفاق الفكر مع الوجود ؛ وليبننتس عبر عنها في الأنسجام الأزلي لكي ينتقل من الذرات الروحية التأثير المتبادل ، بعد أن غلق من

دونها الأبواب ؛ ثم كنت استعان بها حيناً أراد أن يضع الأخلاق .
وحسبى هؤلاء . وعندى أن لأجناح عليهم فى أن يأتوها ، لأنتى
أعتقد أنهم بهذا إنما يعبرون عن الوجود نفسه ، الذى قلنا إنه يقتضى
الفناء كقولة جوهرية فيه ، ويستلزم العدم بوصفه هذا العنصر الرئيسى
المكون له منذ أن يكون ، كما علمنا هيدجر . ومقابل العدم الوجودى
فى الفكر ، اللامعقول . فلن يكون فكرهم حياً صادقاً إلا إذا نفذ
فيه عنصر اللامعقول ؛ وإن أعجب لشيء فعجبى منهم حين أراهم
يحاولون فى جهد يثير الشفقة أن يتصلوا منه ، ومن هؤلاء النقاد
السطحيين الأغرار الذين يطاردونهم من هذه الناحية ، ويوهمهم
قصر نظرهم العجيب أنهم بهذا إنما يأتون المفكر من مقتله .

وبعد ، فما هى الطفرة التى قام بها شوبنهاور ؟ هى تلك التى قام
بها مباشرة من « الذات » باعتبارها عقلا يفكر ويمثل تبعاً لمبدأ
العلة الكافية ، وبالتالى يضع الوجود الخارجى بأكمله -
ولاحقيقة لهذا إلا به وفيه - إلى الموضوع باعتباره « الإرادة » التى
هى الجوهر الباطن والسر الأعظم لهذا الوجود ، وما الوجود فى
الواقع إلا تحققها الموضوعى .

فقد انتهينا فى الفصل الموسوم بعنوان « نقاب الوهم » إلى القول
بأن العالم كما تمثل وهم ، لأنه خليط من الظواهر المتعددة إلى غير نهاية
واتى لا حقيقة لها فى الخارج . بل تستمد كل وجودها من الذات

وهي تمتثل. ولكننا ننته في الواقع إلى هذا إلا لأننا تصورنا أنفسنا عقولاً خالصة تفكر ولا تقوم بغير التفكير ، وكأن الإنسان كأن مفكر فحسب ، أو على حد تعبير شوبنهاور ، « رأس مملوك ذات أجنحة وبغير بدن » . ولكن الإنسان ليس هذا فحسب ، « وإنما يعتد بجذوره في هذا العالم ، إذ يجد نفسه فيه « ك فرد » أعنى أن معرفته التي هي الأصل في العالم كامتثال تتوقف على بدن ، وتأثراته هي نقطة البدء في كل ما تقوم به من عيانات في هذا العالم » . وفي هذا البدن المفتاح الذي يهيب لنا دخول العالم الموضوعي ، عالم الإرادة .

ذلك أن البدن يظهر لنا على نحوين مختلفين كل الاختلاف : غير مباشر ، ونحو مباشر . إذ يبدو لنا أولاً في العيان العقلي الخاضع نحو لمبدأ العلة السكافية وكأنه موضوع من بين الموضوعات التي تمتثلها . فما يحدث له من تغيرات لا فارق لدى العقل بينها وبين التغيرات التي تحدث لأي موضوع محسوس آخر ، والعلل التي تنشأ عنها الظواهر المحسوسة في الموضوعات هي بعينها ، أو تشبه تماماً ، العلل التي تحدث بسببها الظواهر البدنية . ولكن هل على هذا النحو وحده يبدو البدن ؟ أو ليست هذه النظرة إليه نظرة من خارج ، سطحية ، غير مباشرة ؟ ألحق أننا إذا لجأنا إلى طريقة التأمل الباطن المباشر ، اكتشفنا سريعاً أن كل التأثيرات الباطنة والأفعال النفسية مردها إلى شيء واحد هو « الإرادة » . فقد قلنا من قبل إن للعلل صنفاً

رابعاً هو البواعث ، وهي الدوافع على الأفعال الباطنة ، وكلها تبدو على صورة مشيئات أو «إرادات» . فكل شيء يمكن إذن أن يفسر بأن مرده إلى الإرادة . « وهذه الكلمة وحدها تعطيه مفتاح نفسه كظاهرة ، وتكشف له عن معناها ، وتدله على سر وجوده وأفعاله وحركاته » .

البدن إذن هو « الإرادة » منظوراً إليه من باطن ، والإرادة بدورها هي البدن منظوراً إليها من خارج . ولهذا فإن كل حركة للبدن هي حركة للإرادة والعكس بالعكس . فإن الإرادة والبدن سيان ، أو شيء واحد ، له مظهران : مظهر مباشر هو الإرادة ، ومظهر غير مباشر هو البدن ، وفعل الإرادة هو بعينه فعل الجسم أى أن الإرادة والفعل واحد ، وإنما النظر العقلي هو الذى يفضل بينهما ، لأن فعل البدن أو الجسم ليس إلا فعل الإرادة بعد أن تحقق موضوعياً أعنى أصبح منظوراً إليه من جانب الامتثال . وتبعاً لهذا فإنه ليس بين البدن والإرادة صلة العلية لأن هذه الصلة لا تقوم إلا بين شيئين متمايزين ، وليس الحال هنا كذلك .

والإرادة هي جوهر وجود الإنسان ، ففيها يجد الإنسان بالتأمل الباطن المباشر الجوهر الباطن الحقيقى للإنسان ، والذى لا يمكن أن يفنى ؛ وهي البذرة الحقيقية الوجودية فى الإنسان ، هي ، فى كلمة واحدة ، « الشيء فى ذاته » .

وهنا يجب أن نقف قليلاً لنعرف كيف توصلنا إلى هذا « الشيء » في ذاته . فإن العالم قد بدا لنا في الأصل أنه من أمثالنا ، وأن الشيء في ذاته كما يقول كـنـت لا يمكن إدراكه ، لأن عقلنا ، أو بالأحرى ذهننا ، لا يستطيع التفكير إلا تبعاً لمقولات لا نفوذ لها خارج نطاقه ، فلا تنطبق بالتالي على الشيء في ذاته . فكان هذا الشيء في ذاته إذن - من ناحية الإدراك الموضوعي أو المعرفة الموضوعية وأعني بها تلك التي يقوم بها الذهن بواسطة المقولات وبطريق غير مباشر - مجهول .

هذه مقدمات صادقة ولكن الاستنتاج منها فاسد ، من ناحية أن النتيجة تحتوي أكثر مما في المقدمات . ذلك أنه إذا كان صحيحاً أن المعرفة الموضوعية لا تؤدي إلى معرفة الشيء في ذاته فليس معنى هذا مطلقاً أن الشيء في ذاته مجهول بوجه عام ، لأن ثم نوعاً آخر من المعرفة يفضي بنا إلى الشيء في ذاته . فما هذا النوع الجديد؟ إنه المعرفة المباشرة . فنحن حينما نحلل أنفسنا ، لا نجد أنفسنا « ذاتاً طرفة » فحسب ، بل نحن « موضوع للمعرفة » كذلك . ففي حالة « الشعور بالذات » أو « الوعي الذاتي » نشاهد عنصرين : عنصراً عارفاً وآخر موضوعاً للمعرفة ، وإلا فلا معنى لقولنا : الشعور بالذات أو الوعي الذاتي ، إذا كان الاثنان لا يتميزان ، على نحو ما على الأقل . لأن الشعور بالذات أو المعرفة

الذاتية « معرفة » ، وكل معرفة كما رأينا تقتضى بالضرورة وجود ذات وموضوع : ذات تعرف ، وموضوع للمعرفة : فلا بد أن يوجد إذن في الانسان ذات عارفة وموضوع للمعرفة مختلف عن الذات : أما الشعور الذي يكون عقلا خصب ، فستحيل ، والذات العارفة قد عرفناها ، أما موضوع للمعرفة فهو « الارادة » : من مشيئة وعزم ورغبة ورجاء ورهبة ويأس وبغض وحب ، وعلى العموم كل ما ينتج عنه لذة أو ألم . لأن اللذة هي ما يوافق الارادة ويلأعها ، والألم هو ما يعارض الارادة ويحول دون تحقق مقصدها وموضوعها .

فمعرفة الإنسان لذاته ونفسه ليست من ذلك النوع الذي يستحيل معه الوصول إلى الشيء في ذاته . وإنما هي أعلى درجة من درجات المعرفة . وتمتاز أولاً بأنها ليست عياناً ، لأن كل عيان ، أعنى العيان الحسى ، مشروط بمكان ، وثانياً بأنها ليست قبلية مثل للمعرفة الذهنية تلك للمعرفة الصورية الصرفة ، بل هي بعدية ، وتلك هي العلة في أننا لا نستطيع التنبؤ بها في حالة معينة ، وما تقوم به من تنبؤات في صددتها هي غالباً جداً كاذبة ، وتمتاز ثالثاً بأنها ليست صورية صرفة ، ولكنها واقعية بدرجة أكبر بكثير من كل معرفة أخرى « فعلينا أن نبحت إذن في «الإرادة» عن المعلوم الوحيد القابل لأن يكون المفتاح لأية معرفة أخرى ومنها يبدأ الطريق الوحيد الضيق الذي يمكن أن يفضى بنا إلى الحقيقة . ومن أجل هذا يجب أن نبدأ

من ذواتنا لأجل إدراك الطبيعة وفهمها ، لا العكس . فلا يجب أن نشد معرفتنا لأنفسنا في معرفة الطبيعة .

لكن هل هذه المعرفة الذاتية المباشرة التي ندرك فيها إرادتنا تقدم لنا معرفة تامة موافقة ، للشيء في ذاته بتمامه ؟ هيئات ، هيئات ! إن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان الإدراك إدراكاً مباشراً كل المباشرة . ولكن الحال ليست كذلك ، لأن هذا الإدراك الذاتي يتم بعدة وسائط . فالإرادة تخلق لنفسها جسماً ، وبواسطة هذا الجسم عقلاً يخول لها أن تتصل بالعالم الخارجي ؛ وأخيراً وبفضل هذا العقل ، تتعرف نفسها عن طريق التأمل الباطن كإرادة . ومن أجل هذا فإن معرفة الشيء في ذاته على هذا النحو ليست معرفة تامة موافقة . خصوصاً إذا لاحظنا أن الأنا - حتى في الشعور نفسه - ، ليس بسيطاً بساطة مطلقة وإنما يتركب من جزء يعرف ، هو العقل ، وجزء يكون موضوع المعرفة ، هو الإرادة ؛ والأول غير معروف ، لأنه ليس موضوعاً للمعرفة ، والثاني لا يعرف ؛ ولو أن الاثنين يتقابلان ويختلطان مع بعضهما بعضاً في معرفة ذات واحدة أو أنا واحد . فليست هذه الذات إذن شفاقة كل الشفوف ، وإنما هي معتمة ، ولهذا تظل لغزاً بالنسبة إلى نفسها . ولكن هذه المعرفة الذاتية تمتاز مع ذلك من المعرفة الموضوعية من حيث أنها حرة من قيدين ترسف فيهما هذه الأخيرة : هما المكان والعلية ، ولا تخضع إلا لقيود واحد أو صورة واحدة هي الزمان ، إلى جانب

القييد العام أو الصورة العامة لكل معرفة ، أعني الانقسام إلى ذات وموضوع . وهكذا نرى أن الشيء في ذاته ، في هذه المعرفة الباطنة الذاتية ، قد تخلص من بعض أغشية الوهم ، وإن لم يتخلص منها كلها . فإن عدم تخلصه من الزمان قد جعلنا لانعرف الإرادة إلا على صورة « أفعال » مفردة متتابعة ، لا على صورة كل وكما هي في ذاتها ولذاتها . وهذه هي العلة في أن الإنسان لا يمكن أن يعرف خلقه بطريقة قبلية ، وإنما يمكن ذلك بطريقة بعدية فحسب ، أعني في التجربة وهذا أيضاً صورة ناقصة . ومهما يكن من شيء ، فإن لدينا معرفة بالشيء في ذاته بواسطة هذه المعرفة الباطنة . وإن لم تكن هذه المعرفة بالغة حد الكمال ، فإنها على كل حال نقطة التقاطع بين الظاهرة وبين الشيء في ذاته . ولو استطعنا أن ندرك كل الظواهر بطريقة مباشرة ، لرأينا أنها كلها مثل ما تبدو الارادة لنا ، أعني أن سر كل ظاهرة يماثل الارادة فينا . فبالمماثلة إذن نستطيع أن نقول إن « الارادة » هي الجوهر الباطن لكل شيء ، وهي الشيء في ذاته . وهكذا نرى أن مذهب كنت في إمكان معرفة الشيء في ذاته ليس بصحيح ، إذا قصد به استحالة هذه المعرفة إطلاقاً ، ولكنه صحيح ، إذا كان المقصود من معرفته أن تكون معرفة كاملة . فمثل هذه المعرفة الكاملة هي وحدها المستحيلة ، لأن العقل ، وهو القادر وحده على المعرفة ، متميز باستمرار من الذات كإرادة ، أعني أن ههنا دائماً ذاتاً وموضوعاً متمايزين ، ومن ناحية أخرى

لا يستطيع العقل أن يتخلص من صورة الزمان ، ولا حتى في المعرفة الباطنة ، فلهذين السببين امتنعت المعرفة الكاملة ، لا المعرفة بطريقة إجمالية مقارنة .

الإرادة إذن هي الشيء في ذاته ، وهي الجوهر الخالد غير القابل للفناء عند الإنسان ، ومبدأ الحياة فيه . فبأي معنى يفهم شوبنهاور هذه الإرادة ، التي يبدو لنا من هذه النعوت أنها تختلف عما نفهمه عادة من مدلول هذا اللفظ ؟ نحن نفهم من الإرادة أنها قوة نفسية تأمر بالعقل وتصدر في أفعالها عن بواعث يملها العقل بأحكامه ، ولكن هذه « الإرادة » غير عاقلة ، أو إن شئت فقل إن العقل ثانوى بالنسبة إليها ، كما سنبين هذا بعد قليل في شيء من التفصيل . فما عسى هذه الإرادة العمياء إذن أن تكون ؟ هنا يجب أن نفرق بين « الإرادة » بالمعنى العام وبين الإرادة المحدودة بالبواعث والتي يسمونها « الاختيار » : فهذه وحدها هي العاقلة ، أما الأولى فليست عاقلة . لأن الإرادة المختارة تؤدي عملها تبعاً لبواعث ، والبواعث امتثالات ، والامتثالات مركزها المخ ، والأجزاء التي تتلقى أعصاباً من المخ هي وحدها إذن التي تخضع للبواعث ، والحركة التي يقوم بها الإنسان على أساس هذه البواعث هي وحدها المنتسبة إلى الإرادة المختارة . أما الأفعال التي لا تصدر عن بواعث فتنتسب إلى الإرادة بوجه عام ، ولهذا فإنا نضيف الإرادة ، بهذا المعنى ، إلى الكائنات التي لا امتثالات لها ، أي إلى الجمادات . أعني أن في

وسعنا التوسع في معنى الارادة لدرجة أن نضيفها إلى كل موجود. فالقوة التي بها ينمو النبات ويزكو ، ويتبلور المعدن ، والتي توجه الابرة الممغطة صوب الشمال ، والتي بها تتجاذب الأجسام أو تتنافر أو تتجه إلى مركز الأرض في الجاذبية ، هذه القوة هي الارادة وقد تحققت في مظاهر متعددة .

وهنا تسأل شوبنهاور : ولماذا تسمى هذه الظواهر كلها مظاهر للارادة ، الإرادة الواحدة التي تبدو في مظاهر عدة ؟ والجواب على هذا يسير . وهو أن كل فيلسوف يجب أن ينفذ من التعدد إلى الوحدة المختفية وراءه ، فيرد كل القوى المؤثرة في الطبيعة إلى قوة واحدة : « أن تعرف الواحد في الظواهر للمتعددة ، والمختلف في التشابهات ، ذلك شرط للتفلسف كما قال ذلك مراراً أفلاطون » . أما لماذا اختار لها اسم الارادة ، فما ذلك إلا من باب التعميم ، تعميم الأهم أو الأكثر يقيناً ووضوحاً والأعلى مرتبة في الكمال ، والارادة الانسانية أوضح من غيرها من قوى الطبيعة بالنسبة إلى الانسان ، لأنه يدركها عن طريق المعرفة الباطنة للباشرة ، وأعلى درجة لأنها خاصة بأعلى الكائنات مرتبة في الوجود . وقد يقال له حينئذ إن كلمة « القوة » ، وهي التي تستخدمها العلوم الطبيعية ، أعم ؛ لكنه يرد على هذا فيقول : « لقد اعتاد الناس حتى الآن أن يردوا فكرة « الارادة » إلى فكرة « القوة » ، أما أنا فعلى

العكس من هذا أعدّ كل قوة طبيعية «إرادة» . ولا يحسبن للراء أن هذا من باب الجدل اللفظي الصرف : بل هو على العكس مهم إلى الغاية ، لأن فكرة « القوة » تقوم على أساس المعرفة العيانية للعالم الموضوعي كغيرها من الأفكار ، أعني أنها تقوم على الظاهرة والامتثال ، ومن هنا تنشأ . وهي منتزعة من ميدان تسوده العلل والمعلولات وتمثل ما هو أعظم جوهرية في العلة ، والنقطة التي يقف عندها التفسير . أما فكرة الإرادة فعلى العكس من هذا هي الفكرة الوحيدة ، من بين جميع الأفكار ، التي لا تستمد أصولها من الظاهرة ولا من الامتثال العياني الصرف ، ولكنها تصدر من باطنه ، من ضمير كل إنسان وشعوره ، حيث يتعرف كل ذاته كفرد بطريقة مباشرة ، بلا شكل ، بل وبلا شكل الذات والموضوع ؛ لأن العارف وموضوع المعرفة هنا واحد . فاذا كنا نرد فكرة القوة إلى فكرة الإرادة ، فإنا بهذا إنما نرد المجهول إلى شيء معلوم بدرجة أكبر جداً ، نرده إلى الشيء الوحيد المعروف مباشرة ، مما من شأنه أن يزيد دائرة معرفتنا . أما إذا فعلنا العكس ، حدث حتى الآن ، فقمنا برد فكرة «الإرادة» إلى فكرة «القوة» ، فإنا نفقد حينئذ المعرفة للمباشرة الوحيدة لدينا عن العالم ، وندعها تقنى في فكرة مجردة منتزعة من الظواهر ، لا نستطيع بواسطتها أن نتعداها إلى ما وراءها « أي إلى الشيء في ذاته .

ألا فلننظر الآن في خصائص هذه الإرادة ، مادامت هي كلمة السر التي تكشف لنا عن حقيقة الوجود . خاصية الإرادة الأولى والرئيسية هي أنها بلا شعور ، وبلا عقل . لأن الشعور مشروط بوجود العقل ؛ والعقل بدوره شيء عرضي صرف بالنسبة إلى جوهرنا وما هيتنا ، لأنه وظيفة للمخ . والمخ مع الجهاز العصبي بأسره فضول على الكائن العضوي الحي ، لأنه لا يدخل في صميم هذا الكائن العضوي ، ولا قيمة له إلا في تنظيم الروابط بيننا وبين العالم الخارجي . أما الإرادة فإنها هذا الكائن نفسه ، بعد أن تحققت موضوعياً ، كما أثبتنا ذلك من قبل حين قلنا إن الإرادة والبدن أو الكائن العضوي الحي ، واحد . والحق أن الإرادة هي الأولية ، والعقل ثانوي ؛ هو ظاهرة صرفة ، وهي وحدها الشيء في ذاته ؛ هي الجوهر ، وهو العرضي ؛ هي ميتافيزيقية وهو فزيائي وهاك البيئات :

١ - فقد قلنا إن الإرادة هي العنصر المدرك في المعرفة للمباشرة ، أعنى أنها موضوع المعرفة والذات هي العارفة . لكن يلاحظ في كل معرفة أن العنصر الجوهرى والأولى هو موضوع المعرفة بينما العارف ثانوي ، لأنه ليس كالمرآة تعكس موضوعاً مرئياً . وواضح أن الموضوع أعلى درجة في الوجود من المرآة التي عكس عليها . وإن شئت تشبيهات أخرى ، فقل إن الإرادة

كالجسم المضيء بذاته ، والمعرفة ، أو الذات الطارئة بين حيثة من عارفة أعنى من حيث هي عقل ، كالجسم العاكس للضوء ، أو قل بطريقة أوضح وأدق إن الإرادة كالجذر في النبات ، والمعرفة أو العقل كالتويج ، والأول جوهرى والآخر ثانوى ، لأن بالأول حياتها ، وليس الثانى كذلك ، ففى وسعها الاستغناء عنه . ونستطيع أن نتوسع فى هذا التشبيه الأخير فنقول إن التويج الكبير ينشأ دائماً عن جذر كبير ، وكذلك الحال فى الإنسان ، تقوم الملكات العقلية على إرادة قوية عرمة .

٢ - ولنتقل من هذه التشبيهات إلى المعرفة الدقيقة ، فنقول إن الوعى أو الشعور يوجد فى الحيوان على هيئة رغبات ، تارة تشبع وأخرى تظل على عرامها : من سرور وغضب ، أو رغبة ورهبة ، أو حب وكراهية . وهذا العنصر النزوعى مشترك بين جميع الحيوان والإنسان ، ولهذا فإنه الأساس والجوهر لكل وعى أو شعور ، على اختلاف فى الدرجة . وهذا الاختلاف فى الدرجة راجع إلى المدى الذى يمتد إليه مداركهم ، لأن بواعث هذه الحالات العاطفية توجد فى الإدراك والمعرفة . وكل ما يصدر عن الحيوان من حركات أصلها الإرادة نستطيع أن نفهمه فى يسر ، وإنما الذى يفرق بيننا وبينه هو العقل ، على تفاوت فى مراتبه ، ومن هذا كله نستطيع أن نستنتج بوضوح أن الإرادة فى جميع أنواع الحيوان

— بما في ذلك الإنسان — هي العنصر الجوهرى الأولى ؛ بينما العقل عنصر مضاف ثانوى ، أو بالأحرى ليس العقل إلا أداة للإرادة ، أداة وآلة تختلف في درجة التعقيد والدقة تبعاً لما تقتضيه تلك الوظيفة . وهكذا لا يفترق العقل في شيء عن الأجنحة بالنسبة إلى الطيور ، أو المخالب إلى الحيوان ، أو القرن إلى الثور . وهنا نجد الأساس للمذهب الفعلى الذى قال عن العقل إنه آلة يستعين بها الإنسان على الفعل فحسب ، والذى سيبلغ أوجه على يد وليم جيمس وبرجسون .

٣ — ويؤيد هذا أيضاً ما نراه حين ننظر في سلم الحيوان من أعلى إلى أسفل ؛ فهنا نرى العقل يقل شيئاً فشيئاً كلما هبطنا في سلم الكائنات الحية ويصير أكثر نقصاً ؛ ولكننا لا نجد نقصاً يقابله في الإرادة ، بل نجد هذه على العكس من ذلك واحدة في كل الدرجات ، وتظهر بنفس الخصائص : من تعلق شديد بالحياة ، واهتمام بالفرد والنوع ، وميول أساسية تتشعب منها وجدانات وعواطف فرعية . فالحشرة مثلاً عندها الإرادة ، كاملة كمالها في الإنسان ؛ وليس ثمة من فارق إلا في موضوع الإرادة ، أى في البواعث عليها ، لأن هذه من شأن العقل ؛ أما من حيث درجة الإرادة وقوتها فالحال واحدة في الإنسان وأدنى الحيوان . لأن الإرادة إذا فعلت فعلت بتأثيرها ؛ وهي بسيطة ، فلا تقبل وجود درجات في أفعالها من حيث

جوهرها ، وإنما توجد درجات فيها من حيث الحالة التي تتأثر على نحوها ، وهي حالة تبدأ من أضعف الميول حتى أقواها عُرَافاً . أما العقل فله درجات ، إن في طريقة التأثر أو في جوهره ؛ ففي التأثر يبدأ من التخدر ويصل حد الحماسة والجدّة ، وفي الجوهر يختلف ابتداء من الحيوان المنحط الذي لا يدرك إلا بصعوبة حتى نصل إلى الجنس البشري ، ابتداءً من الأبله حتى العبقري . والعلة في هذا أن الإرادة بسيطة كل البساطة لأنها عبارة عن رغبة أو لارغبة ، ولا تحتاج من أجل التنفيذ إلى مشقة ؛ بينما العقل له وظائف عدة كلها شاقة مضية : من انتباه وتحديد لموضوع المعرفة وتجريد ، ولهذا فإن العقل أو المعرفة قابل للتهذيب باستمرار . فهذا العقل الذي يكاد ويمجد في الوصول إلى حل مشكلة من المشاكل وينفق في الحل أقصى الجهد والعنت ، يقدم النتيجة بسيطة إلى الإرادة ، وهذه بحركة بسيطة واحدة توافق أو ترفض ، ثم تستمر في سكونها وراحتها العميقة .

٤ — ولهذا فإن العقل يتعب ، بينما الإرادة لا تعرف للتعب معنى . فالأول يقوم بهذا الجهد العنيف في الموازنة والتقدير ؛ بينما الإرادة تؤدي كل شيء في بدءاً ويُنسر . والعقل ككل موضوع طبيعي خاضع لقوة التصور الذاتي ، فلا يعمل إذا دفعته الإرادة التي تسوده وتقوده وتحدده وتقويه . ولهذا فإنه ميال إلى الكسل

بطبعة ، ولولا الإرادة لاستغرق في الكسل واستمرأ الراحة
واطمأن إلى الحمول .

ولعل هذا أن يكون السبب في تعريف بعضهم للانسان بأنه
حيوان كسول : فهذا الكسل إنما هو من شيمة ما يميز الانسان ،
ألا وهو العقل . ونحن نجد في الواقع أن كل عمل عقلي متصل
يحدث تعباً شديداً بسرعة ، ويحتاج من أجل استمرار المزاولة إلى
فترات استجمام ، وإلا انتهى إلى زمانة في الفطنة وبلادة قد تنتهي
آخر الأمر ومع امتداد السن إلى العتة أو الجنون ، وليس ذلك
ناشئاً عن الشيخوخة أو السن كسن ، بل هو ناشئ من هذا الإجهاد
العقلي المستمر . فليس بغريب إذاً أن نجد كثيراً من العباقرة قد
انتهت حياتهم العقلية بالعتة والجنون : فان أسوِفت ، الكاتب
الإنجليزي الساخر ، ضار مجنوناً ، وكنت استحال إلى طفل ،
وولتراسكوت ووردزورث وآخرين كثيرين من أقربهم نيتشه ،
قد انتهوا إلى الجنون أو إلى خمود فكري مطلق . أما جيته فقد
استمر حتى اللحظة الأخيرة محتفظاً بقوة عقله ونصاعة روحه ونشاطه ،
لسبب بسيط ، هو أنه رجل دنيا ورجل بلاط ، فلم يجهد نفسه
مطلقاً في عمل ذهني مجرد . ومثل هذا يقال أيضاً عن رجل مثل
فولتير أو فيلند أو كنيبل . أما الإرادة فعل العكس من هذا
لا تسكل ولا تحتاج ، بل هي قوة مندفعة مستمرة ، فاعلة دائماً ،

لا يعوقها السن عن طلب كل ما كانت تطلب ، بل بالعكس تكون في الشيخوخة أشد صلابة وعناداً في رغباتها منها في سن الشباب .

٥ - وهل هناك دليل على وضاعة شأن العقل من حيث أهميته بالنسبة إلى الإرادة ، مما نراه في موقف الواحد بإزاء الآخر في الفعل ؟ ألسنا نرى العقل لا يستطيع أن يؤدي وظائفه على النحو الأتم إلا إذا أسعدته الإرادة ، بينما الإرادة في غنى من هذه الناحية عن العقل ؟ وبيان ذلك أن أحوال الإرادة من عواطف وشهوات يمكن أن تقوم عقبة في سبيل العقل ؛ كما هو مشاهد في حالة الفزع الكبير ، نجد أنفسنا عاجزين عن التفكير والتدبير . فقد نجد أنفسنا وسط طريق هائل فلا نعرف كيف نتخلص ولا نفكر في طريقة للخلاص ، بل على العكس من هذا يحدث أن ندفع بأنفسنا في النار ، دون وعي منا ولا شعور ، لأن هذه الحالة قد أفقدتنا كل تفكير وكل شعور . وكذلك الحال بالنسبة إلى أحوال الإرادة . ولهذا فإننا حينما نريد أن نفكر جيداً ونحن في مواجهة مشكلة عظيمة ، نحاول قدر المستطاع أن نطرح عنا كل هذه العواطف والانفعالات والشهوات الهائجة ، كي نفكر في هدوء وأمن . وما الهدوء إلا سكوت الإرادة لندع مجالاً فسيحاً أمام العقل . ولا نطيل في بيان هذا ، لأنه مألوف معروف .

٦ — تلك عقبات الإرادة إن شاءت . وهاك ما تقدمه للعقل من عون على أداء وظائفه إن طواعته وكانت في خدمته . وهذا ما يعبر عنه المثل الشائع : الحاجة أم الاختراع . إذ يلاحظ دائماً أنه إذا أضيف الشوق والعاطفة إلى الإدراك قوى وازداد عمقاً . ونحن نعلم جيداً ما للشوق من أثر في الفهم والتذكر والقدرة على الملاحظة الجيدة وغير هذا من العمليات العقلية . ولكن العكس ليس بصحيح ، أعني أن العقل لا يقوى الإرادة إلى حد كبير أصيل والشاهد على ذلك ما تعلمه بواسطة الأخلاق ، ولكننا لانحقيقه في السلوك .

٧ — ولو كانت الإرادة صادرة عن العقل كما يزعمون ، لكان ازدياد درجة الارادة مصحوباً بزيادة في المعرفة والتمييز والتعقل ولكن الحال ليست كذلك مطلقاً : فنحن نعرف كثيراً من الناس ذوى الارادة للماضية الثابتة العتيدة القوية والذهن الضعيف معاً . ومثل هؤلاء مصدر لتعب كبير لأن التفاهم وإياهم شاق ، وإخضاعهم لمنطق العقل عسير . ونحن نجد كثيراً من الحيوان يجمع بين ذهن مفرط في الضعف وإرادة مسرفة في القوة والعناد . ومن الظواهر التى تفسر على هذا الأساس ما يلاحظه الانسان فى المناقشات التى تدور بين خصمين : فقد يكون أحدهما قوى الحجة واضح البيان على حق بئين فيما يقول ، وأمامه خصم عنيد الارادة ضعيف العقل

فتجد الأول يكاد أن يحن وهو لا يرى الآخر يقتنع ، ولكن العلة في هذا هي أنه لا يخاطب في الواقع عقله ، بل إرادته العنيفة العمياء .

٨ — وإذا نظرنا في محاسن العقل ومساوئها وقارناها بمحاسن الإرادة ومساوئها ، وجدنا أنه ليس هناك اقتران بين الناحيتين: ففي الشخص الواحد قد تجتمع محاسن العقل ومساوئ الإرادة معاً ، وللمثل التاريخي المشهور على هذا فرنسيس بيكون الذي كان ممتاز العقلية جداً ، ولكنه بالقدر نفسه كان سيء الإرادة . والروابط بين الناس تقوم غالباً على الإرادة أكثر جداً مما تقوم على العقل ، وما يقوم منها على العقل يكون مصيره التفكك السريع . فأكبر الصداقات أو الروابط الزوجية دواماً تلك التي تقوم على ائتلاف القلوب لا على اتفاق العقول .

٩ — والتفرقة بين العقل ، أو الرأس والقلب ، إن هي إلا تعبير عن التفرقة بين العقل وبين الإرادة . فالقلب رمز الإرادة ، لأنه إليه تنسب العواطف والانفعالات في اللغات المختلفة ، بينما الرأس رمز العقل ، لأن الرأس يرتبط في اللغات بما يتعلق بالمعرفة .

والذي يميز الشخصية ويجعل لها طابعاً مستمراً طوال وجودها ليس مادة الجسم ولا صورتها ، لأنهما يتغيران سنة بعد سنة ، وإنما

الارادة ؛ فهي وحدها عنصر الثبات الذى يخول لنا أن نتعرف شخصاً بعد أن طال المهده على رؤيته فاستحال شكله وتغير تركيبه الخارجى ؛ ولا يمكن أن يكون العقل أو الشعور ، لأن العقل يقوم على الذاكرة ، وتلك قد تقضى عليها الأمراض جسمانية كانت أو عقلية . والارادة هي التي تعطى لتعبير نظرات الشخص ثباتاً وبقاء . « والانسان بقلبه ، لا برأسه » . فالارادة إذن هي الثابتة باستمرار ، لأنها الشيء في ذاته ، ولأنها الجوهر الأصيل في الانسان .

١١ - إن عدم الحياة خير من حياة السوء ، وهذا ما يقوله العقل ؛ ولكن خبرني عن هذا الذى يعمل به ؟ إن هذا التعلق بالحياة لا أساس له في الواقع إلا تلك الارادة العمياء ، إرادة الحياة وإلا لأسرع كل منا إلى التخلص منها بكل ما يستطيع ، فإنها خطيئة وشؤم كلها . وهذا التعلق لم ندركه بواسطة العقل ، بل أحسنا به في قرارة نفوسنا ، وهذه القرارة هي الارادة . فكل انتحار إنما يصدر عن العقل ، أما إرادة الحياة فسابقة على كل عقل .

١٢ - وأخيراً نشاهد أن العقل غير مستمر ، بل يأتي عمله على فترات متقطعات ، وما ذلك إلا لأن عمله ثانوى ؛ بعكس الإرادة التي تستمر في عملها دائماً . ففي النوم العميق مثلاً تنقطع للمعرفة والامتثال ، ولكن الوظائف الحيوية الجسمانية أو وظائف الإرادة - لأن الإرادة والجسم كما قلنا سيان - لا يمكن أن تقف دون

أن نموت ، بل تظل الإرادة تعمل وحدها تبعاً لطبيعتها الأولية الحقيقية ، وبلا أدنى تأثير يأتي إليها من خارج ؛ وهذا هو السبب في أن الشفاء يأتي عادة ، أو على الأقل النوبات الهادئة ، في حالة النوم لكن يجب ألا نتخذ من هذا دافعاً يدعونا إلى إطالة النوم من غير داع ، لأنه يفقد من ناحية العمق ما يستفيد من ناحية الامتداد فيصبح إضاعة للوقت فحسب ؛ بل علينا أن نقول لنوم الصباح ما قاله جيته في « فاوست » : « إن النوم قشرة فاقدف بها بعيداً »

كل هذه بينات تشهد بأن الأولية للإرادة لا للعقل . وفي هذا قلب للوضع الذي وضعنا فيه الفلاسفة حتى شوبنهاور ، فيما يحسب هذا الأخير . إذ يقول عن نفسه إنه أول من قال بالترعة الإرادية ؛ أعني تلك التي تجعل من الإرادة ، لا من العقل والمعرفة ، الجوهر الحقيقي الباطن للشخصية . وقبله كان ينظر إلى العقل على أنه هذا الجوهر . وهذا يظهر بوضوح أول ما يظهر عند انكساغورس الذي مجد العقل فجعله الأصل في الوجود ، لأنه منظم الكل ؛ وإن لم يحسن استخدامه في تفسير الأشياء ، كما أخذ عليه ذلك سقراط ، الذي ارتفع بالعقل إلى للرتبة الأولى في الوجود ، حتى إنه أرجع إلى فعله ومقاييسه كل ما يجري في الوجود ، ومن بينه الأعمال الأخلاقية ؛ وفي إثره جرى أفلاطون وأرسطو ، اللذان كونا الصورة العليا لما يسمونه الترعة العقلية . والعصور الوسطى كانت ترى في العقل جوهر الإنسان ، وإلا ففي

الإيمان ، وهو الآخر نوع من الحكم ، والتيار الوحيد الذي يقترب في تلك العصور من النزعة الإرادية هو التيار الصوفي ، الذي أراد من وراء مجاهدة النفس بالإرادة الوصول إلى الاتحاد بالله . ثم جاء العصر الحديث وعلى رأسه ديكرت الذي أعلن في عبارة «أنا أفكر ، فأنا إذن موجود» الأولوية للفكر أو للعقل ، ليس فقط في النفس ، بل وأيضاً في الوجود بمعنى عام ، حتى كاد أن يجعل الفكر الجوهر الباطن لكل الوجود . ومن هنا قال ، وقال من بعده أتباعه ، إن جوهر الذات في التفكير ، وما الذات إلا جوهر مفكر مستقل في وجوده عن الفعل الصادر عنه في الموضوعات الخارجية : ولو أن في هذا القول صعوبة خلف ديكرت حلها لا أتباعه ، وتلك هي الصلة بين الذات للمفكرة وبين الجسم الممتد المتحيز في المكان : أعني كيف تحدث هذه الذات المفكرة تأثيراً في الأجسام ؟ ولم يستطع هؤلاء الأتباع حلها ، وإنما ساروا في الطريق إليه ، فقال مالبرانش إن الفعل للمباشر بين الذات للمفكرة والجسم للممتد غير ممكن ؛ وإنما يأتي الله ، حين نريد إحداث فعل في الأجسام ، فينتج بقدرته هذا الأثر مباشرة ، فهو وحده إذن الذي يباشر الفعل . وهذا حل يمكن أن يفسر ، إذا كشفنا عنه غطاءه اللاهوتي ، على أن الإرادة ذات جوهر مستقل قائم بذاته ؛ ولكن مالبرانش لم يكن يقصد عمداً إلى هذا أو إلى شيء منه . ثم تلاه ليبنتس ، نخطا خطوة جديدة

في هذا السبيل حين نسب تغيرات النفس إلى علة باطنة ؛ أي أنه
أضاف إلى الذات قدرة على التأثير والفعل . ومع هذا كله فلا هذا
ولا ذاك قد استطاع أن يفسر الصلة تفسيراً حقيقياً ، بل اضطر كل
منهما إلى إنكار أن تكون الصلة بين الجسم والنفس صلة علة
ومعلول وإلى افتراض القروض الخيالية من أجل تفسير هذه الصلة ،
فقال مالبرانش : « بالمقارضة » أو العنان الافتراضية ، بمعنى أن
الحوادث إن هي إلا فرص ومناجسات لمباشرة الله لقدرته ، وقال
ليننتس بالانسجام الأزلي ، أي أن الله قدر الأشياء على نحو من
شأنه أن يحدث تأثير الواحد في الآخر بطريقة ثابتة معينة
من قبل .

لكن ، هل صحيح أن شوبنهاور هو أول من قال بوضوح
بهذا المذهب الإرادي ؟ إذا نظرنا في المذاهب من حيث هي مذاهب
وجدنا أن مذهب شوبنهاور هو أول المذاهب الإرادية الواضحة ،
أي تلك التي تقوم على فكرة الإرادة ، فتكون الفكرة السائدة
فيها والمحور الذي يدور من حوله كل للمذهب . ولكن الباحث في
تاريخ المذاهب يستطيع أيضاً أن يجد بدور مذهب شوبنهاور هذا ،
أولاً عند الرواقيين الذين أرجعوا كل شيء إلى الفعل ، ولما كان الفعل
لا يتم إلا بالأجسام ، فهي وحدها التي تؤثر ، فقد قالوا إن كل شيء
جسماني ؛ ثم قالوا إن الجزء الأعلى أغنى الملكة العليا للعقل مقرها

القلب ، والشعور حس باطن تدرك به النفس توترها أى فعلها في الأجسام. ثم نجد هذه البذور أيضاً من بعد عند كليانس الإسكندري كما لاحظ شوبنهاور نفسه ، فقد قال كليانس إن الإرادة تسبق كل شيء ، وما الملكات العقلية غير إماء يخدمن الإرادة . وفي العصور الوسطى ظهر المذهب في شيء من الوضوح عند دنس اسكوت ، الذى قال إن الإرادة وحدها هى العلة الكاملة للمشيئة في الإرادة ؛ أى أن الإرادة هى الأصل في كل فعل ، لا المعرفة أو العقل . أجل ، تتوقف أفعالنا إلى حد كبير على المعرفة بمعنى أننا نريد الشيء لأننا نعرفه ، ولكن يجب أن يلاحظ مع ذلك أننا إذا كنا نعرف هذا الشيء دون ذلك الآخر فما ذلك إلا لأن إرادتنا قد شاءته دون الآخر ، ففعل الإرادة إذن سابق حتى على فعل التعقل . وليس هذا في الأفعال التى لا نستلزم تفكيراً فحسب ؛ بل وفي الأفعال التى تقوم كلها على التصميم والتأمل النظرى السابق ، نرى فعل الإرادة واضح الأثر منذ البدء وفي النهاية ، لأن الإرادة هى وحدها التى تتحمل كل مسئولية التصميم والعزم . بل ونجد هذه البذور نفسها عند أتباع ديكارت أنفسهم ، مثل اسبينوزا فقد قال ، كما لاحظ شوبنهاور أيضاً ، « إن الرغبة (أو الإرادة) هى طبيعة كل منا وماهيته ؛ ولهذا تختلف رغبة كل منا عن رغبة الآخر بقدر ما تختلف طبيعة الواحد عن طبيعة الآخر » ، («الأخلاق» ، القسم الثالث ، القضية

رقم ٥٧) ويؤكد في مواضع أخرى (مثل الحاشية الملحقمة بالقضية رقم ٩ ، القسم الثالث) هذا المعنى ويفصل القول فيه بصراحة . والواقع أن في اسبينوزا ناحية حركية لم يوجه إليها حتى الآن ما تستحقه من عناية ، مع أنها خليقة بأن تعطى عن اسبينوزا فكرة تختلف كثيراً عن الفكرة المألوفة لدى الناس عنه . فعنده نزعة إرادية إلى جانب النزعة العقلية تظهر لا في نظريته في النفس وحدها ، بل وكذلك في نظريته في الله .

كل هذه بذور للمذهب الإرادى، ولكنها لا تكفي لإقامة مذهب إرادى كامل . فن الحق إذن أن يقال إن شوبنهاور لم يسبقه فليسوف في عصر متقدم عنه قد قال بهذا المذهب كاملاً وبوضوح . أما فيما يتصل بعصره فإن المشكلة تزداد تعقيداً ، لأننا سنجد هنا مذاهب بأكملها تقوم على فكرة الإرادة ، أو بالأحرى مذاهب واحداً . فأمامنا في هذا العصر فشته وشلنج ، ثم مين دي بيزان . أما فشته فيقول إن المثالية الحقيقية — وهى المذهب الصحيح الوحيد عنده تنظر إلى العقل بوصفه فاعلاً لا منفعلاً ، لأن العقل أول الأشياء وأعلاها مرتبة ، وصفة العقل الأولى ليست مجرد الوجود والبقاء وإنما الفعل . فالعقل فعل وفعل فحسب ، بل ويجب أن لا نقول عنه إنه ذات فاعلة ، لأن هذا من شأنه أن يجعلنا نتصوره جوهرأ من حواصه الفعل ، وإنما العقل فعل أو جوهر هو فعل . وفي البيان

العقلي الذي به يدرك العقل ذاته يكون هذا الإدراك باعتبار أنه فاعل
 في العقل إذن تكون تجربة إدراك الذات لنفسها . وفي هذا انفعال
 حياة الفعل . كذلك نجد شلنج يقول بوضوح إن العقل أو الروح
 فعل فحسب، أعنى إرادة: «ولا وجود للروح إلا باعتبار أنها تريد» .
 والروح إرادة أصيلة . وهذه الإرادة يجب من أجل هذا أن تكون
 لامتناهية بقدر الروح . والعيان العقلي للذات أو الأنا هو إدراك
 الأنا لنفسه باعتباره إرادة مطلقة . وهكذا نرى أن الإرادة عنده
 هي القوة المطلقة وهي الفعل الخالق المستمر وتمتاز هذه الإرادة المطلقة .
 عند شلنج منها عند فشته بأنها عندها عاقلة أخلاقية ، ولكنها عند
 شلنج لا عاقلة ولا معقولة ، وغير فانية ، وهي بطبعها لا تقوم على
 أساس عقلي إطلاقاً ، أو على حد تعبيره - وهو التعبير الذي
 سيستخدمه شوينهور في مواضع عديدة - هي بلا أساس : والمصدر
 الذي صدر عنه شلنج وفشته معاً هو كنت ، الذي لم يستطع أن يجد
 « الشيء في ذاته » في العقل وبالعقل ، فوجده في الفعل الأخلاق
 وبواسطة الشعور بالحرية ، فكان بهذا نقطة البدء للمذهب الارادي
 في العصر الحديث . إلا أنه يلاحظ مع ذلك وعلى الرغم من التشابه
 الكبير جداً بين شلنج وشوينهور أن شوينهور قد فاقهم جميعاً في
 إقامة مذهبه في الوجود بأسره على أساس فكرة الإرادة ، فاستحق
 بهذا اسم المؤسس الأول الحقيقي للمذهب الارادي في العصر الحديث .

وليس من شك في أن شوبنهاور تأثر كلا من فشته وشلنج، وخصوصاً هذا الأخير ، لأنه عرف مذهبهما تمام المعرفة .

لكن هذا لا ينطبق على الشخصية الثالثة التي قلنا إنها أقامت مذهبها على الارادة ، ونعني بها شخصية مين دي بيران (سنة ١٧٦٦ - سنة ١٨٢٤) هذا الفيلسوف الفرنسي الممتاز ، على الرغم من أن شهرته حديثة ، حتى إن دراسته دراسة حقيقية لازالت في مستهل الطريق وإن كنا نشاهد نهضة بيرانية تشمل فرنسا اليوم خصوصاً في علم النفس - نقول إن مين دي بيران كان صاحب مذهب إرادى خالص فقد أخذ على التجريبيين بحمهم عن الأنا في الخارج ، في الألياف العصبية ومادة المخ ، مما أدى بهم إلى المادية وإنكار الروح باعتبارها قائمة بذاتها أو على الأقل نسيج وحدها . وأخذ على القبليين ، وعلى رأسهم ديكارت ، نظرهم إلى الأنا باعتباره تصوراً وفكراً صرفاً حتى اضطروا إلى إنكار الارادة والاختيار ، وإلى القول بجوهر مفكر مستقل عن الجسم ، ولا اتصال ولا تأثير متبادلا بينه وبينه . وبعد أن تقدم آتى بمنهجه الجديد فطبقه . وهذا المنهج هو منهج الاستبطان أو التجربة الباطنة للذات في إدراكها لنفسها . فإن الذات هي وحدها التي تظهر بوضوح للادراك ، ويمكن فهمها مباشرة وبيقين . ولذا يجب أن يبدأ البحث بها . فما المظهر الذى يبدو عليه الأنا حين التجربة الباطنة ؟ أو بعبارة أخرى ما هي الواقعة الأولية ، (م ١٤ - شوبنهاور)

التي يجب يقوم عليها إدراك الذات لنفسها ؟ إنها المجهود . فحينما يتأمل الأنا نفسه ، لا يستطيع أن يدركها إلا في الفعل العضلي الذي به يشعر بالمقاومة من جانب المادة . فهذا الإدراك الذاتي يتم إذا بعنصرين : قوة لامادية هي الذات الفاعلة ومقاومة مادية هي الجسم الخارجي ، وتحقق تجربته في الشعور بالمجهود . فحينئذ يرى الأنا ذاته كقوة فاعلة حرة ، تريد وتفعل ما تريد . لهذا نرى بيران يستبدل بمقالة ديكارت : « أنا أفكر ، فأنا إذن موجود » ، مقالة أخرى هي : « أنا أريد ، أنا أفعل ، فأنا إذن موجود » . وأنا حين أفكر لأفكر في الفكر أولاً وبالذات ، بل أفكر في الفعل فأشعر بنفسى كعلة وكقوة فاعلية . والذات إذن إرادة تظهر نفسها في المجهود ؛ وهي واحدة ، حرة ، علة ، قوة . والعقل يقوم على الإرادة ؛ بل العقل هو الإرادة نفسها ولا يختلف عنها إلا في التعبير فحسب .

غير أن مين دي بيران لم يقم مذهباً فلسفياً محكم البناء ؛ ولم يستخدم فكرة الإرادة هذه في وضع مذهب في الوجود ؛ بل كان طالما نفسياً أقرب من أن يكون فيلسوفاً ميتافيزيقياً . ولهذا كان أثره في علم النفس أكبر منه فيما بعد الطبيعة . فعلى الرغم من أنه أكد الإرادة وانتبه إلى خطرهما ، فإنه أعوزته الروح الفلسفية العامة ، فلم ينتفع بها جيداً . ووجه الشبه بين مذهبه ومذهب شوبنهاور في الإرادة وأوليتها على العقل والمعرفة ، واضح كل الوضوح ؛

يل ويمتاز بيران خصوصاً بعمق ودقة التحليل للجانب النفساني من هذه للسألة فهل نقول إن شوبنهور تأثر ببيران؟ من العسير جداً أن نقول بالإيجاب ، وذلك لأسباب . إذ يلاحظ أولاً أن بيران لم ينشر من مؤلفاته إبان حياته غير رسالة صغيرة عن «تأثير الإرادة» (سنة ١٨٠٢) ، ومقالتين إحداهما عن فلسفة لا روجيير والأخرى عن ليبنتس ؛ وبقاى مؤلفاته لم ينشر إلا بعد وفاته ؛ إذ نشر له فكتور كوزان جزءاً مهماً منها سنة ١٨٣٤ ، وتوالت بعد ذلك النشرات . ورسالته عن تأثير الإرادة فيها صورة ساذجة أولية لمذهبه الذى عرضناه . فن الصعب إذن أن نقول إن شوبنهور — على افتراض أنه قرأها — قد تأثر ببيران فى مذهبه الحقيقى . ويلاحظ ثانياً أن شوبنهور — فيما نذكر — لم يشر إليه مرة واحدة . ونحن نعلم أن شوبنهور قد كون مذهبه سنة ١٨١٨ ؛ فن غير الممكن إذاً أن نقول إن شوبنهور قد تأثر به .

وإنما نحن نريد أن نقول من وراء اشارتنا هذه إلى مذهب مين دى بيران إن للمذهب الإرادى قد تكون فى عصر شوبنهور ؛ وتوفر على تكوينه شلنج ومين دى بيران وشوبنهور . لكن صورته العليا الكاملة لم تظهر بوضوح وشعور قوى وكذهب فى الوجود إلا عند الأخير . فكيف نعلل إذاً ظهور هذا المذهب فى عصر واحد ، هو أوائل القرن التاسع عشر بالدقة ؟

نرى نحن أن مرجع هذا إلى منطق الحضارة والتطور الروحي داخل كل حضارة . ففي دور الحضارة — بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة — تكون الأولية للعقل على بقية الملكات ؛ وفي دور المدنية تكون الأولية للإرادة على العقل . ونستطيع أن نبرهن على هذا بما نشاهده في تطور الحضارات الروحي . ففي الحضارة الهندية نجد أنها حين تنتقل إلى دور المدنية ابتداء من العصر البوذي تكون الأولية للإرادة، وبالتالي للناحية الأخلاقية على الناحية العقلية المتمثلة من قبل في العصر الفيداوي . وفي الحضارة القديمة (اليونانية الرومانية) يبدأ دور المدنية بالرواقين وقد رأينا من قبل كيف نظروا إلى الإرادة ، وجعلوا مذهبهم إرادياً يقوم على الفعل ، وعنوا بالتالي بالأخلاق ، بل تكاد فلسفتهم كلها أن تتلخص فيها ، لأن بقية أجزاء الفلسفة الرواقية إن هي إلا مقدمة وعلوم مساعدة فقط لعلم واحد هو الأخلاق . وهذه الظاهرة هي بعينها تلك التي نشاهدها في القرن التاسع عشر ، وهو القرن الذي بدأ به انتقال الحضارة الأوربية من دور الحضارة بالمعنى الدقيق إلى دور المدنية . فظهور المذهب الإرادي في هذه الفترة بالذات ضرورة يقتضيها منطق التطور الروحي للحضارات .

(راجع كتابنا « اشبنجلر » ص ٢١٠ — ٢١١) .

ولمذهب شوبنهاور في الصلة بين الإرادة والعقل ناحية أخرى

تستنتج مباشرة من قوله بسيادة الارادة وأوليتها بالنسبة إلى العقل وتلك هي النزعة إلى اللامعقول . فانه لما كان العقل شيئاً ثانوياً مضافاً لم يكن من الممكن إذن أن يفرض العقل قوانينه عليها . ولهذا نجد أنه قد نعت الارادة بنعوت تسلبها كل معقولة . فقال عنها إنها عمياء ، بلا أساس ولا تمييز ، ولا تعرف للنظام معنى ولا للغائية مدلولاً وإنما هي قوة مندفعة عرمة دائمة الهياج لا غاية لها ولا نهاية لتيار تغيراتها المستمرة . ويظهر هذا بوضوح من جعله الارادة خارج سلطان مبدأ العلة الكافية ، فهذا المبدأ مبدأ المعقول المنتظم والغائي ، لأنه يرتب الأشياء كلها على هيئة علة ومعلول مرتبطين بدقة وإحكام . وهو إن عزاً إلى الارادة الحرة والاختيار ، فاذلك إلا لكي يؤكد اللامعقول أكثر فأكثر ، لأن المعقول هو الذي يسير على قواعد ثابتة مرسومة ويجرى في نطاق محدود ، أي يكون مسلوب الحرية ، لأن شوبنهاور يفهم الحرية بمعناها الحقيقي ، أي بمعنى أنها القدرة على فعل الخير والشر معاً ، أو المتضادات ، هي إمكانية القول بنعم ولا ، لا باحداها فحسب ، كما زعم المثاليون المعاصرون له .

وهنا نجد النقاد يأخذون على شوبنهاور أنه لم يكن منطقياً في استخدام المنهج الذي اتبعه من أجل القول بأن العالم إرادة . فان هذا المنهج - منهج إدراك العالم الخارجي على أساس عالم الذات -

كان من شأنه أن يقول له إن الإرادة الانسانية ليست لا معقولة ، لأن الإرادة الانسانية كثيراً ما تسلك سبيل العقل فتصدر في أفعالها عن منطق عقلي سليم دقيق ، فليس له إذاً أن يتصور كل الإرادة على أنها لاعاقلة . فالقول بالإرادة لا يستلزم بالضرورة القول باللامعقول . ومن هنا يرون في قول شوبنهاور بلا معقولية الإرادة بأسرها « خطأ ميتافيزيقياً شنيعاً » على حد تعبير فولكلت . ولكن الرد على هذا يسير . إذ أن سير الانسان في بعض أفعاله بحسب المنطق لا يدل على أن إرادته في جوهرها عاقلة ، كما يلاحظ زمل . ذلك أن في الإرادة ، كما لاحظ شوبنهاور بحق ، عنصراً لامعقولا باستمرار ، حتى لو جرت الأفعال تبعاً لاستدلال منطقي . فإن مضمون الامتثال وسلاسل البراهين تستلزم قوة من أجل إحداث الترابط بينها وبين بعض كعمليات نفسية ، قوة تحيا وراء الروابط المنطقية العقلية الخالصة : أجل إننا حينما نستخلص نتيجة من مقدمات ، نشعر بأن هذا الاستنتاج صادر عن ماهية التصورات نفسها وما بينها من روابط وعلاقات منطقية ، ولكن عملية هذا الاستنتاج كفعل نفسى تربط فيه بين تصور وتصور آخر ، عملية ليست متضمنة في التصورات المنطقية كتصورات ، لأن التصورات المنطقية ليس فيها قوة تجعلنا نربطها بعضها ببعض ، وإنما هذه القوة في الإرادة ، وهي قوة خارجة عن العقل كمقل منطقي . هذا إلى أن أية قضية مهما

كانت منطقيتها تحتاج من أجل أن تصير حقيقة واقعية نفسية إلى حامل لها، هو في ذاته لاصلة له بالمنطق . والنتيجة لهذا كله كما يعبر عنها زمل هي أن الإرادة عند شوبنهاور ليست « ضد » العقل، ولكنها « خارجه » فحسب ، وبالتالي أيضاً خارج نقيضه .

وهذه النزعة إلى اللامعقول هي الفارق الأكبر بين الإرادة عند شوبنهاور والارادة عند فشته وشلنج . فان الأنا عند فشته ، وإن كان إرادة خالصة ، فان هذه الارادة طاغاة ، لأنها والعقل سيان: فهي تستضيء به وتستمد منه صورتها ، إن لم يكن مضمونها كذلك . أما شلنج فقد كان له موقفان ، أحدهما في الدور المتأخر من أدوار تطوره الروحي : في الأول كان يؤكد معقولية الارادة مثل فشته سواء بسواء ؛ ولكنه في الدور الثاني كان يميل إلى سلبها شيئاً من المعقولية ، لأنه وجد فيها اندفاعاً قوياً وغرثاً شديداً وسُعاراً مبرحاً إلى الوجود والبقاء ، أو الحياة كما سيقول شوبنهاور وأضاف إليها الحرية بالمعنى الحقيقي ، أي بمعنى القدرة على قول نعم ولا . وهذا الدور الثاني قريب كل القرب من تفكير شوبنهاور؛ أما الدور الأول فبعيد عنه بشدة تفكير فشته . وأياما كان، فان شوبنهاور يمتاز من حيث أنه قال دائماً إن الارادة لاعاقلة ، وأكد هذا المعنى بقوة واستمرار ، على النحو الذي رأيناه .

وبهذه النزعة للمتطرفة بدأ شوبنهاور تياراً جديداً قوياً في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، وهو التيار الذي قضى على سيادة العقل وجعل للإرادة السيادة في الحياة النفسية وفي الوجود كله بوجه عام . فلم يعد الوجود تطوراً للفكرة المطلقة أو اللوغوس كما هي الحال عند هيجل ، الذي كان في تعارض حاد مع شوبنهاور — وفي هذا تفسير لكراهية هذا الأخير له كراهية زرقاء متطرفة . ولم يعد ينظر إلى الوجود على أنه يسير على قواعد منطقية عقلية محكمة ، باعتبار أن العقل يحكمه ويسوده ، كما كان الليل إلى هذا واضحاً كل الوضوح عند العقليين ومن بينهم كنت نفسه ، الذي كان مع ذلك نقطة ابتداء اللامعقول حينما جعل الشيء في ذاته غير خاضع للعقل ، وإن لم يستخلص المضمون النهائي لهذا القول ، بل ظل على نظرة العقليين إلى العقل باعتبار أنه هو الواقع الموجود ، والشيء في ذاته قد قال عنه إنه « فكرة » أي مسألة نظرية فحسب . وهذا التطور في الاتجاه نحو اللامعقول نجده كذلك في المدرسة الهيكلية ، وبخاصة عند كارل ماركس الذي تساءل فقال : هل العقل هو الذي يضع الوجود ، أو الوجود هو الذي يضع العقل ؟ وأجاب بأن القول الثاني هو الصحيح ، معتمداً في هذا على نظرياته في نشأة الجماعة والاقتصاد . وبهذا كان انحلال المدرسة الهيكلية ، وإن كانت بذور هذا الانحلال في هيجل نفسه حينما قال بأن العالم يخضع في

تطوره لقانون « السلب » ، لأنه رأى أن العقل يمتاز دائماً بأنه في الوقت الذي فيه يوجب ويضع ، يسلب أيضاً ويرفع ، وهذا السلب الكائن في طبيعة العقل وبالتالي في طبيعة الوجود ليس في الواقع ، إن فحصناه بدقة ، غير عنصر اللامعقول . ولكن هذا الاتجاه لم يبلغ أوجه حقاً ويتخذ صورته العليا من إنكار العقل إلا عند نيتشه كما فصلنا ذلك في كتابنا عنه (ص ١٩٢ - ص ١٩٨ من الطبعة الثانية) - وفي إثره جرى أصحاب للمذهب الفعلي وبرجسون واشبنجلر (راجع كتابنا عنه وخصوصاً للمقدمة) .

وتمت خاصية أخرى للإرادة إلى جانب اللامعقولية ألا وهي والوحدة . وقد رأينا في مستهل هذا الفصل أن الليل إلى اكتشاف الوحدة وراء التعدد هو الطابع الرئيسي لكل تفكير فلسفي . فمن الطبيعي إذن أن يؤكد شوبنهاور هذه الناحية وبكل قوة . ونحن نجد في الواقع يسير في هذا السبيل - كماداته دائماً - حتى نهاية الشوط ، فينتهي إلى القول بوحدة الوجود على طريقة القيدا والإيلين واسبينوزا ثم معاصريه من الألمان ، خصوصاً شلنج . وقد كانت مقدمات مذهبه تؤول بالضرورة إليه : أو لم يقل بأن الإرادة باعتبارها الشيء في ذاته لا تخضع لمقولات الذهن ؟ وما الوحدة بالمعنى العددي والكثرة غير مقولتين من مقولات الذهن ، فلا يمكن بالتالي أن تخضع لهما الإرادة . وذلك لأن الوحدة

والكثرة العدديتين لا وجود لهما إلا في المكان ، إذ هو كم ، والكم ما يقبل لذاته القسمة والمساواة واللامساواة ، ونحن قلنا إن صورة المكان لا تخضع لها الإرادة ، فهي خارجة عن المكان ، وبالتالي لا ينطبق عليها ما لا ينطبق إلا مع ما هو موجود في مكان ، وهو الوحدة والكثرة العدديتان . فما الإرادة إذن ؟ إنها وحدة ، ولكن لا بالمعنى العددي ، ولكن بالمعنى الوجودي : والمعنى العددي هو الذي لا يقال إلا في مقابل الكثرة ، أما المعنى الوجودي فيقال إطلاقاً لا نسبياً ، ويدل على البساطة وعدم القابلية للتجزئة والانقسام ، والحضور في كل مكان وبنسبة واحدة في الشيء الضئيل كما في الشيء العظيم ، إذ لا معنى لهذه التفرقة بالنسبة إليها ، فإن هذه التفرقة لا تقوم إلا بالنسبة إلى الممتد في المكان ، وهي ليست ممتدة ولا متحيزة ، فلا يمكن أن يقال إذن إن مقداراً صغيراً منها يوجد في الحجر ، ومقداراً أكبر في الإنسان . وإنما هي حاضرة بالفعل في كل جزء وبنسبة واحدة وبلا تجزئة ولا انقسام ولو استطعنا أن نتصور — من باب تصور المستحيل — أن جزءاً مهماً كانت ضآلته قد فني فناء تاماً ، فإن العالم يفنى حينئذ بأسره .

فشوبنهاور إذن من القائلين بوحدة الوجود ، بالمعنى الفلسفي الخالص ، لا بالمعنى الديني ؛ أعني بمعنى أن هذا الوجود له مبدأ واحد وحدة مطلقة في ذاته ، وإن تعددت للظاهر التي يتحقق عليها

موضوعياً ؛ وهذا للبدأ هو الارادة ، الارادة العمياء المندفعة .
 وزاه ينكر وحدة الوجود بالمعنى الدينى ، أى بمعنى أن العالم
 هو الله الواحد وما الأشياء الحسية غير مظاهر متعددة لوحده
 للطلقة . أولاً لأن الله غير للشخص ليس ياله ، بل هذا تناقض فى
 الحدود غير معقول ولا مفهوم . ولهذا فإن وحدة الوجود بالمعنى
 الدينى هى فى نظر شوبنهاور « تعبير مؤدب » وتلفظ مذهب لكلمة
 إلحاد . وثانياً لأن هذا يتنافى مع الكمال الواجب لله ؛ وإلا ، فما
 هذا الاله الذى يظهر على صورة هذا العالم الفاسد الرهيب ، وفى
 شخص للملايين التسعة المعدية وكانهم زواج عبيد محكوم عليهم
 بأشق الأعمال بلا غاية ولا فائدة ! وثالثاً لأن الأخلاق لا مبرر
 لوجودها داخل مذهب يقول بوحدة الوجود ، فلم يكن فى وسع
 شوبنهاور ، واتجاهه الأصيل أخلاقى ، أن يقول بمثل هذا المذهب .
 فهو إذن يقول بوحدة الوجود ، لكن بمعنى خاص ، هو المعنى
 الفلسفى الخالص .

الارادة إذن وحدة ، فكيف تصير تعدداً وكثرة ، على هيئة
 الظواهر التى يتكون منها الامتثال ؟ أو بمباراة أخرى ، ماهو مبدأ
 الفردانية ، وعلى أى نحو يتم الانتقال من الوحدة إلى التعدد ؟ وتلك
 مشكلة من أخطر المشاكل التى تعنى بها ما بعد الطبيعة ، خصوصاً
 كل المذاهب التى تقول بمبدأ عال على الوجود . فان هذه المذاهب

مضطرة إلى تفسير الانتقال من العلو إلى المحايثة والوجود في العالم،
ومن الوحدة إلى التعدد . وبقدر ما يغالى المذهب في توكيد العلو
والوحدة ، تزداد هذه المشكلة تعقيداً وصعوبة . وحل هذه
المشكلة قد اتخذ اتجاهين : أولها الثنائية ، والآخر التوسط .
أما الثنائية فهي القول بمبدأين وجعل أحدهما في المرتبة الأولى
والأصل الحقيقي للوجود . وأظهر مثال لهذا الاتجاه أرسطو : فإنه
قال بأن الأصل والوجود الحقيقي هو وجود الصورة ، والصورة
أخص خصائصها الوحدة ، ولكنها تلبس ثوب الفردية وتتكرر
بدخول المادة أو الهيولى فيها . فكان الهيولى إذن هي الفردانية
أو الكثرة في الأشياء . أما التوسط فهو مذهب لا بد أن يلتجئ
إليه القائلون بوحدة الوجود ، ويقصدون به وجود وسائط في
النزول من الأول أو الواحد حتى الأشياء المادية المتعددة ، ولذا
يترتب العالم عندهم على شكل تصاعد . وأوضح الأمثلة للقائلين به
أفلوطين . وثمت اتجاه ثالث يجمع بين الاتجاهين وإن كان أميل إلى
الأخير ، وهو اتجاه أفلاطون في قوله بعالم الصور المتوسطة بين
صورة الصور ، أى صورة الخير ، وبين المحسوسات .

وبهذا الاتجاه الثالث أخذ شوبنهاور . فقال بالصور باعتبارها
الشكول الأبدية للظواهر أو الأنواع المعقولة التي تشارك فيها
المحسوسات . وهي أول درجة من درجات التحقق الموضوعي

للإرادة الواحدة الكلية . وقد تحدثنا عنها في شيء من التفصيل في الفصل السابق على هذا مباشرة ، فلاحاجة بنا إلى الإطالة في بيان خصائصها . ونكتفي هنا بأن نبين الصلة بينها وبين الإرادة ، وكيف يتم تحقق هذه الأخيرة موضوعياً بواسطتها . فنقول إن كل كائن مفرد في هذا العالم الممثل ينتسب إلى نوع معين في عالم الصور ، فيه يجد نموذج الأول الأصيل . ولا تستطيع الإرادة الكلية أن تتحقق في الكائنات المفردة إلا من خلال عالم النماذج الأصلية هذا أو عالم الصور . ولولا توسط الصور بين الإرادة والظواهر ، لما أمكن التحقق الوجودي للإرادة . والإرادة تميل بطبعها إلى التحقق موضوعياً ، لأنه لا وجود لها إلا في هذا التحقق الموضوعي ولأنها قوة مندفعة متعطشة إلى البقاء والحياة والوجود ، وفي كلمة واحدة إلى التحقق الموضوعي .

وأول مظاهر هذا التحقق الموضوعي يبدو في القوى الطبيعية العامة - فهنا أحط درجاته . وهذه القوى إما أن تظهر في كل الأشياء مثل الثقل والملاء (أي عدم قابلية النفوذ في الجسم) ، وإما أن تختلف نسبتها بحسب للواد مثل الصلابة والليونة والمرونة والمغناطيسية . وهذه القوى مظاهر مباشرة للإرادة ، كما أن أفعال الإنسان مظاهر لإرادته ، ولهذا فإنها لا علة لها : فلا يقال مثلاً ما العلة في الصلابة أو الثقل أو للمغناطيسية أو الكهربية . أجل إن

آثارها تنتج عن مبدأ العلية وتسير على هذا القانون؛ أما هي فليست آثاراً لأية علل، بل إن كل قوة طبيعية هي خارجة عن سلسلة العلل والمعلولات، ولما كانت كذلك، فإنها خارجة عن الزمان كذلك. والقوة الطبيعية العامة تظهر بتامها في كل ظاهرة، وليست لها شخصية أو فردية، بل هي نوع خالص. ولكننا كلما ارتفعنا في سلم الصور، بدأ طابع الشخصية أو الفردية أكثر ظهوراً فنجد الشخصية لأول مرة في عالم الجراد على هيئة التبلور، فإن في البلورة محاولة للحياة، وبالتالي للفردية. والقانون الطبيعي هو الرابطة بين الصورة وبين شكل ظاهرها. وهذا الشكل هو الزمان والمكان والعلية التي ترتبط فيما بينها وبين بعض ارتباطاً ضرورياً وثيقاً. وبواسطة الزمان والمكان تظهر الصورة في مظاهر متعددة والنظام الذي تسير عليه هذه المظاهر في اتخاذها شكول هذا التعدد يحدده بالدقة قانون العلية. وكل هذه القوى الطبيعية مظاهر للإرادة، وكل ما يجري من أحداث في الطبيعة اللاعضوية هو أيضاً مظاهر للإرادة: لأنه نزوع أو انجذاب وفرار أو تنافر. وهذه شكول فيها يبدو نزوع الإرادة الأصيل إلى البقاء والحياة والوجود. فالاتحاد الكيأى بين العناصر مصدره هذا الانجذاب أو النزوع؛ وعدم قابلية بعضها للاتحاد مع البعض الآخر علته التنافر؛ والجاذبية واضح ما فيها من انجذاب ونزوع.

وفي هذا التفسير للقوى الطبيعية نجد الطابع السائد هو إضافة نوع من الحياة إلى المادة كلها ، حتى اللاعضوية منها ، فذهب إذن مذهب حيوى كامل . ولهذا نجد شوبنهاور يحمل بعنف على التفسير الآلى للظواهر الطبيعية ، مرجعاً كل شيء إلى قوى أصيلة تختلف في جوهرها عن الصفات المكانية الصرفة ؛ ويرى في التفسير الآلى فكرة سابقة لا أصل في الواقع الحقيقى لها . فنراه يرفض مثلاً التفسير الآلى للضوء ، هذا « الذى يضىئ السرور على كل شيء » - ونعنى به التفسير الذى يرجع الضوء إلى ذبذبات في الأثير ؛ ويعده خرقاً وحماقة ، لأنه لا يفهم كيف أن الاهتزازات اللانهائية للأثير يخرق بعضها بعضاً وفي كل اتجاه وتتقاطع في كل مكان ، دون أن يفسد بعضها بعضاً ؛ وكيف أنها على الرغم من هذا الخليط الهائل والاضطراب الضخم يمكنها أن تحدث النظرة الهادئة العميقة للفن والطبيعة . كما أنه يرفض النظرية الذرية بأكملها ، لأنه يرى مع كنت أن كتلة الجسم متصلة ، فكيف نقول إنها مكونة من جواهر فردة أو ذرات ؟ وإنما التفسير للممكن الوحيد في نظر شوبنهاور هو التفسير الديناميكي ، وهو الذى يفسر الظواهر بواسطة قوى أولية مختلفة كل الاختلاف عن قوى الضغط والثقل والمقاومة وهي من أجل هذا في درجة أعلى ، لأنها ، أعنى هذه القوى الأولية تحققات موضوعية أجل لتلك الإرادة التى تكشف عن نفسها في جميع الأشياء .

ثم ترتفع درجة التحقق للموضوعي للإرادة حينما تنتقل من
لعالم اللاعضوي إلى العالم العضوي . وهنا نجد بدلا من القوى
الطبيعية الأجناس والأنواع النباتية ، والفارق بين كلا النوعين
فيما يتصل بتحقق الصورة هو في أن القوة الطبيعية تظهر دائما في
صورة بسيطة ، ولكن النوع النباتي أو الحيواني يحتاج من أجل
ظهوره إلى عملية تطور معقدة تعقيدا تختلف درجته بحسب
مرتبة النوع في سلم التصاعد الحيواني أو النباتي . ويعزو شوبنهاور
إلى النبات درجة ضئيلة من الشعور ومرتبة دنيا من الشعور باللذة
أو الألم ، ولكنه لا يضيف إليه المعرفة . ويسوق دليلا على هذا
أن النبات يعرض أمام النظر أعضاءه الجنسية . بينما نجد أنه حينما توجد
المعرفة ، كما في الحيوان ، تحتل هذه الأعضاء أخفى الأمكنة وأبعدها
عن النظر . وبين الحيوان والنبات مسافة واسعة حتى إن الارتفاع
من النبات إلى الحيوان يتم عن طريق حادث ميثافيزيقي قوى يدل
مجرد حدوثه على تغير كبير في هيئة العالم وطبيعته . ذلك لأن
عنصرا جديدا يدخل هنا ألا وهو العقل ، احتاج إليه الحيوان
من أجل أن يستعين به في حفظ الفرد والنوع الحيواني ، وكلما تعقد
بالتالي ، كان العقل ألطف وأدق . إذ تتعدد الحاجات فتطلب اتساعا
في أفق النظر ودقة في الإدراك وسلامة في التمييز بين الأشياء .
فلا بد من أجل إشباعها من وجود عقل يستطيع الوفاء بها كلها .

وهكذا نرى أن العقل عند شوبنهاور أداة ووسيلة لحسب من أجل حفظ الفرد واشباع حاجاته . أعنى أنه نشأ عن حاجة عملية صرفة . ولذا ينعتة شوبنهاور بأنه حيلة ووسيلة وعكازة . وفي هذه النظرة إلى العقل نجد الأصول الحقيقية لمذهب الفعلين .

وبالعقل في صورته العليا نصل إلى الإنسان الذي تبلغ فيه الإرادة أعلى درجة من درجات تحققها ، وتتخذ الفردية أوضح رسومها ومعالمها . فتظهر الخصائص الفردية بكل تمييز ووضوح ، وتعبر عن نفسها باطناً وخارجياً ، فترى السيء قد تميزت إلى حد كبير جداً مما كانت الحال عليه حتى عند الحيوانات العليا ، حتى لا نكاد نجد اثنين من بني الإنسان يتشابهان تمام التشابه . أما في الحيوان فلا زال النوع يسود طابعه ، ومن هنا كانت السيء ضعيفة وكذلك الخلق النفساني يزداد فردية في الإنسان عنه في الحيوان ، ومن هنا تزداد الصعوبة في معرفة سلوكه . فالحيوان من السهل إلى حد ليس بالقليل أن تتبين سلوكه وأن تتوقعه ، أما في الإنسان فإن من الصعب جداً أن نعرف ما سيفعله ، وذلك لأنه قد حصل مع للعقل القدرة على إخفاء أمر سلوكه ونواياه : وهذا الفارق يبدو من الناحية الفسيولوجية فيما يشاهد من أن الثدييات والتلافيف المخية مفقودة في الطيور ، ضعيفة في القوارض ، أكثر تماثلاً وانسجاماً في الحيوانات منها في الإنسان ، ثم في طريقة إشباع الغريزة الجنسية فالحيوان (م ١٥ - شبنهور)

لا يكاد يختار بين الموضوعات التي تشبع هذه الغريزة ، بينما الانسان حريص كل الحرص على التأنيق في الاختيار بين ما يشبع الغريزة الجنسية من موضوعات وعواطف .

وبهذا تنهى درجات تحقق الإرادة موضوعياً . وهنا يلاحظ أن هذا التحقق لا يتم دون نضال ؛ وإنما الأولى أن يقال إن الإرادة في صراع مستمر مع نفسها ؛ ولذا نجد في الطبيعة النزاع والنصال وتبادل الانتصار . فكل درجة من درجات التحقق الموضوعي للإرادة تنزع الدرجة الأخرى المادة والزمان والمكان . وللمادة تغير صورتها باستمرار ، لأن الظواهر الآلية والفزيائية والكيميائية والعضوية تتنازعها مدفوعة بقانون العليا إلى الظهور والتحقق ، بأن تكشف كل منها عن صورتها . فينشأ عن هذا كله صراع أبدي مستمر هو المظهر لصراع الإرادة الجوهري مع نفسها . ويبدو هذا الصراع أوضح ما يكون في عالم الحيوان الذي يتغذى على حساب المملكة النباتية ، وفي داخله يتغذى بعضه على حساب بعض أعنى أن كل حيوان لا يستطيع البقاء والحياة إلا على حساب غيره ، حتى إن إرادة الحياة تقتات بنفسها ، وجورها هو قوتها . وهكذا نجد في الطبيعة كلها تنازعا على البقاء مستمرا ينتصر فيه الأعلى على الأدنى ويحيا على حسابه ؛ وهو تعبير عن مشاققة الإدارة لنفسها بطبيعتها ومن هنا كان عذابها الذاتي وتناقضها مع نفسها تناقضاً أصيلاً جوهرياً .

والعلة في هذه المشاقة الذاتية التي تتصف بها الإرادة هي أن الإرادة نزوع وعيمة وقرم متصل . ولما كانت الإرادة هي الكل ولا شيء خارجها، فإنها في هذا النزوع إنما تتجه إلى نفسها ؛ فكأنها إذن تأكل نفسها بنفسها ، مادامت لا تجد في الخارج ما تأكله . ثم إنها من ناحية أخرى لا متناهية ، فلا يمكن نزوعها وموضوعها إلا أن يكونا لا متناهيين هما الآخران . ولذا نراها دائبة السعى إلى إشباع نزوعها ، فلا تكاد تُشبع رغبة حتى تندفع نحو أخرى ولا تكاد تشعر بشيء من الرضا حتى تنتابها موجات من السخط متوالية ؛ فيها حنين كظيم ، واشتياق بالعذاب ممزوج . فما عساها أن تصادفه من رى لصدائها وتسكين لأوامها إنما هو موقت وهي سرعان ما يزول تاركاً مكانه لما هو أشد لُؤاباً واحتداماً . وهي في هذا الاندفاع الحركي لا تستقر بلحظة حاضرة ، بل تصبو إلى ما بعدها ، فتعبر الزمان اللانهائي في قوة وسرعة هائلتين ، كالقذيفة الشديدة الانفجار . وليس لهذا الاندفاع غاية ولا هدف ، فهو بنفسه غاية نفسه . أجل ، قد يعلم الإنسان علة هذه الرغبة أو تلك ، ومرضى هذا السعى أو ذاك ، أي يعلم أسباب الأفعال الجزئية ؛ لكنه لا يمكنه مطلقاً أن يعرف لماذا هو يريد بوجه عام . يقول : أنا أريد هذا لكذا ؛ ولكنك حين تسأله : ولماذا هو يريد ، مطلقاً إرادة - فلا تظفر منه بجواب . ومصدر هذا أن

الإرادة المطلقة خارجة كما قلنا عن قانون العلية ، فلا تنطبق عليها أحكامه ولا كفياته . والحال هنا كالحال في الحركة : نحن نعرف مصدر هذه الحركة المعينة وما لها ؛ لكن لماذا كان بالوجود حركة ، هذا ما لا علم لنا به . فنحن نعلم إذن العلة في الأفعال للفردة والمضامين المختلفة ، ولكننا في جهل تام بالعلة في الإرادة المطلقة .

وهكذا نرى الإرادة قد خرجت عن الوحدة إلى الازدواج ، فصارت تبعاً لهذا ميداناً للنزاع ، وإلا فإنها لو بقيت على وحدتها ، إذن لسادها السلام والانسجام ؛ ولكانت الإرادة إرادة محبة ووافق ، بدل أن صارت إرادة كراهية وشقاق . ذلك لأن إرجاع الظواهر المتعددة إلى الوحدة والقول بمبدأ الوجود واحد هو في ذاته يحمل طابع التفاؤل كما لاحظ زميل ؛ نظراً إلى أن الاختلاف سينحل إذن في الوحدة الحقيقية ويكون ظاهرة عرضية فحسب ، أما الجوهر ففيه اتحاد وفيه انسجام . وما هنالك من مذاهب تقول بالتعدد وبالتفاؤل معاً ، فما استطاعت ذلك إلا بقولها إن هذه العناصر المتعددة ليس بينها تأثير متبادل ، بل يحيا كل منها في عالم مستقل بذاته مغلقاً عليه في داخل نفسه ، كما هو مشاهد في الذرات الروحية عند كيبيننتس : فهنا نجد التأثير المتبادل قد زال ، فزال بزوال تناوب الحرب والسلام والشقاق والانسجام . ومن هنا نجد المذاهب القائلة بوحدة الوجود أو بالواحدية بوجه عام تنحو نحو إشاعة السلام

في صورة العالم التي تضعها ، وما عسى أن تقول به مع ذلك من صراع بين العناصر المكونة للوحدة ، لا يلبث أن يفنى في حُضن الوحدة المطلقة ، فتتعم هذه العناصر بالسلام الإلهي كما يقول اسينوزا ، أو تحيا في وفاق جمالي وتآلف انسجامي كما عند شلنج أو شوبنهاور فقد قال بالوحدة في الصورة ، صورة الإرادة ، لا في المضمون ؛ فلم يكد ينتهي من توكيد الوحدة نظرياً حتى أسرع فأكد الثنائية وللشاقّة في التحقيق للموضوعي للإرادة ، وانتهى آخر الأمر إلى تعدد لم يسلبه صفة التأثير للتبادل ، بل أكد فيه ، فقال إن كل تحقيق موضوعي للإرادة مستقل في ذاته ، ويميل إلى إظهار ماهيته بطريقة مستقلة كاملة ، ولكنها مرتبة فيما بينها وبين بعض وتتناوب الشيء الواحد وتتنازع معاً بإزائه ، ويبلغ الصراع أقصى درجاته حينما يكون بين قوى تلتبس إلى درجات متفاوتة من درجات التحقيق للموضوعي للإرادة . فيبدأ أولاً بين القوى الطبيعية على صورة بسيطة ، كما هو مشاهد في الصراع بين قوتي الجاذبية والمغناطيسية بالنسبة إلى قطعة من الحديد معلقة في مغناطيس ؛ ثم يزداد شدة ونكراً حينما تنتقل إلى الكائنات العضوية فنرى الأعلى يلتهم الأدنى ، كما هي الحال في الحيوان . ويبلغ أوجه الشنيع وقتها الرهبة عند الإنسان ، فإنه لا يقتصر على اتهام النبات والحيوان ، أي وهو أدنى منه ، بل يحاول ما استطاع أن يستأصل شأفة أخيه

الإنسان ، ومن هنا قيل « الإنسان للإنسان ذئب » . وأكثر من هذا يبلغ به جنون الحياة حد القضاء بنفسه على حياته ، بالانتحار ، الذى تتمثل فيه معركة مُشاقَّة الارادة لنفسها على النحو الأكل وفى صورتها المروعة العليا . ولكن لهذا الصراع وجهه الآخر : فليس انتصاراً خالصاً للأعلى على الأدنى ، بل هو تناوب للظفر بين الاثنين . فما يلبث الأدنى ، مسوقاً لمح الأقدم ، أن يثور وينتقم لنفسه من هذا الأعلى ، أيا ما كانت درجته ، فنرى الذراع للممتدة التى صارت الجاذبية وانتصرت عليها أولاً قد انتهت هى بالانتصار عليه فارتخت ونزلت بعد أن كانت عالية مشرعة ، ونرى النوم قد تغلب على يقظة العقل فسادت القوى الحيوانية المقهورة فى حال اليقظة على القوى العقلية العليا ؛ ونرى الموت ينتصر على الحياة . وهكذا نرى دائماً أن كل كائن عضوى لا يمثل صورته إلا بعد اقتطاع نصيب من نشاطه يضطر إلى استخدامه فى إخضاع « الصور » الدنيا التى تنازعه المادة . وهذا ما يبدو أن يعقوب بيمة ، هذا للتصوف الغارق بنظراته فى أعماق سرالسر ، قد أدركه بعض الإدراك ، حينما قال إن الأجسام الانسانية والحيوانية ، بل وأجسام النبات ، نصفها ميت ؛ ويقصد بهذا أنه موجه إلى شىء آخر غير التحقيق الخالص لصورته ومثاله ، وبالقدر الذى ينتصر به الكائن العضوى على القوى الطبيعية التى تعبر عن الدرجات الدنيا للتحقق الموصوعى .

للإرادة ، بهذا القدر يكون مقدار تعبيره عن صورته ومثاله ، أى بقدر ما يقترب من للمثل الأعلى أو يعتمد عنه .

الإرادة إذن اندفاع أعمى بلاغاية ولاهدف . لكن نحو ماذا ؟

تأمل هذا العالم ومايجرى فيه ، فإذا ترى ؟ ترى اندفاعاً إلى الوجود ، وتدافعاً من أجل البقاء ، وكائنات تتوثب في نشوة وحماسة فائضة مؤكدة لذاتها في العيش ، وصائحة ملء فيها : الحياة ، الحياة ! إنها تعبر إذن عن شعور واحد هو الشعور بالحياة ، وتنساق في تيار واحد : هو سياق الحياة ، ويحدوها ويدفعها دافع واحد هو دافع الحياة . فهي إذن لا تمثل غير إرادة واحدة ؛ ألا وهي إرادة الحياة ، وإن تعددت للمظاهر التي تتخذها والشكول التي تعلن بها عن نفسها ، واللغات التي تتحدث بها . وإلا ، فقل لى يربك : علام كل هذا الجزع ولماذا كل هذا العذاب والألم ، والصراع والدفاع ، والعطف والاشفاق ، وأقول لماذا نشاهد هذا كله مرتبطاً بمحادث أو ظاهرة في غاية البساطة هي شعور حياة فردية بأنها مهنددة بالفناء ؟ أرأيت إلى صاحبها حينئذ وهو يبذل قصارى جهده فى الدفاع عنها والنضال ، متخذاً فى هذه السبيل من الأدوات ما يهينؤه له عقله ؟ أرأيت إلى من يشاهدونه فى هذا الوضع وقد ذهبت نفوسهم

شعاعا وارتفعت قلوبهم حتى كادت أن تخرج من صدورهم حينما ينظرون إليه وهو في خطر الموت ، حتى إذ مازال الخطر وأنقذت حياته فسرعان ما علىء نفوسهم بنشوة السرور ؟ لما ذا هذا كله ؟ لسبب واحد ألا هو إرادة الحياة ، وقد سادت كل كيانهم حتى خيل إليهم جميعاً أنه بهذه الظاهرة الفردية وحدها سيفنى العالم بأسره إلى غير رجعة .

قد تقول إن هذا الشعور ذاتي ، فهات لي دليلاً موضوعياً على ما تقول . وجوابي أن أدعك تتأمل ببصرك موضوعياً في الطبيعة بجميع درجاتها ، فلن ترى حينئذ في الطبيعة غير غاية واحدة هي حفظ النوع . فما نشاهده من إفراط شديد في إنتاج البذور ، وعنق قلق في الغريزة الجنسية ، ومهارة قائمة في تكيف هذه الغريزة مع جميع الأحوال والظروف والتجائها إلى أغرب الوسائل وسلوكها أوعر السبل من أجل تحقيق مقاصدها حتى لو اضطرت إلى الإنسان المهجين في أعجب صوره ، وما يبدو في حب الأمومة من إيثار يكاد أن يصل عند بعض الأنواع الحيوانية حد تفضيل الابن على الذات ، كل هذا إن دل على شيء ، فما ذلك إلا على أن غاية الطبيعة في كل سيرها ونضالها غاية واحدة هي حفظ النوع . أما الفرد فلا تكاد الطبيعة أن تحفل به في ذاته ، وإنما كل قيمته عندها أنه وسيلة من أجل الاحتفاظ بالنوع ، حتى إذا ما أصبح غير

تأدر على تحقيق تلك الغاية ، قذفت به إلى الفناء . تلك هي العلة
 في وجود الفرد . فما العلة في وجود النوع ؟ هذا سؤال لا تقدم لنا
 الطبيعة عنه أى جواب . فن العيب أن ينشد المرء في هذا التدافع
 للمستمر والاضطراب للتصل في حومة الحياة غاية يمكن أن يوفض
 إليها شيء من هذا الصراع . لأن زمان الأفراد وقوتهم ينفقان
 بأسرها في الاحتفاظ بالبقاء ، بقاء الفرد في نفسه وفي ذريته من
 بعده ، أى في الاحتفاظ بالنوع . وما عسى أن يبقى بعد ذلك من
 فراغ تافه — لا يوجد إلا عند الكائن العاقل ، أعنى الإنسان —
 فيزجى في تحصيل فائض من الفن أو المعرفة . ولن يزعم زاعم أن
 هذا له من القيمة ما يخول له أن يقول إن هذه غاية الحياة أو غاية
 الطبيعة من الحياة . إنما غايتها شيء واحد هو ألا تدع واحداً من
 أنواعها أياما كان ، يفنى ويفقد ، إذ يبدو أنها قد أعجبت ورضيت
 بما أنتجه من « صور » أى أنواع دائمة ، فحرصت كل الحرص على
 أن لا يضيع منها شيء ، وجعلت من هذا الحرص على البقاء الغاية من
 وجودها ولا غاية عداها .

وإن شئت دليلاً أوضح وأقوى ، فانظر إلى حياة كل نوع في
 الطبيعة ، ترأنها حياة لو كانت لغاية معقولة ، لأسرع كل نوع في
 الخلاص منها بكل قواه . وإلا فأية غاية تلك التي ينشدها حيوان مثل
 الخلد ، تلك الدابة العمياء التي تعيش تحت الأرض ، ولا عمل لها

طوال حياتها غير أن تحفر بمشقة الأرض بواسطة أقدامها الضخمة
الفلطاحه ، وتحيا في ليل مستمر ، لأن عيونها الجنينية لا غاية منها
إلا الفرار من الضوء ، ، حتى إنها لتعد الحيوان الليلي الأول ؟
ليس لها غير هدف واحد: الغذاء والجماع ، أى ما يحفظ النوع فحسب
فيهيء لهذه الحياة التمسمة العجيبة أن تتكرر على الدوام . وأعجب ما فى
الامر أن كل عضو فيه قد بلغ الكمال فى التضافر من أجل تحقيق
هذه الغاية العجيبة حتى أنه ليؤديها على الوجه الأتم . ومثل بقية
الحيوان مثل الخلد المسكين : براعة فى إيجاد الوسائل ، ونشاط
دائب جبار وفن كامل وتنوع فى الأشكال ، ودقة التركيب الجسمانى
لكن هذا كله من أجل غاية واحدة هى الاحتفاظ بالنوع على
حساب مجهود هائل يبذله كل فرد ولا يتناسب إطلاقاً ، ولو من
بعيد جداً ، مع تلك الغاية . حتى إن « الحياة عمل دخله بعيد عن أن
يغنى نفقاته » .

وياليت كلا منها قام بعمله فى أمن . بل إنها كلها خاضعة لأخطار
لا نهاية لها ، فلا تستطيع العيش إلا فى نضال مستمر ينتهى دائماً
وبالضرورة بالظفر للقهور ، إن صح هذا التعبير ؛ لأن الظفر
يأتى بالنسبة إلى الأعلى ، ولكنه لا يلبث أن يصح هزيمة بالنسبة إلى
الأدنى ، ولما كانت الطبيعة كلها على هيئة نظام تصاعدى ، فشكل

ظفر من ناحية لا بد أن يكون قهراً من ناحية أخرى . فيشاهد مثلاً في جاوة أن هناك سهولاً فسيحة مغطاة بعظام ؛ وهذه العظام عظام عدد كبير من نوع السلحفاة الضخمة تسلك هذه السهول في طريقها إلى البحر إلى حيث تضع بيضها ؛ وحينئذ تهاجمها كلاب وحشية تقلبها على ظهرها وتنزع منها بطنها وتأكلها حية ؛ ثم يحدث غالباً أن ينقض على هذه الكلاب نمرفيمزقها ؛ وهكذا باستمرار تحدث هذه العملية المحزنة . فهل من أجل هذا خلقت السلحفاة ؟ وماذا جنت حتى تستحق كل هذا العذاب ؟ ولم كل هذه المناظر الرهيبة ؟ لا يوجد غير جواب واحد على هذا السؤال ألا هو : هكذا تتحقق إرادة الحياة . وكل هذا يدل على أن إرادة الحياة هي المعنى الحقيقي للوجود . وهي سر الواقع ، وليست كلمة جوفاء من نوع ما يتشدد به أصحاب التهاويل والمخاريق ممن يقولون بأن هذا « هو الفكرة في كينونتها غير نفسها » كما فعل هيجل . فمثل هذا عبث لفظي عجيب . ولسنا في حاجة إلى الذهاب بعيداً من أجل إدراك الغاية من هذه للأساءة الهزلية ، لأنها عدت النظارة وللشاهدين ؛ وللمثلون أنفسهم مقضى عليهم يتحمل أنواع من العذاب لا حد لها ولا نهاية ، إلى جانب ما يمكن أن يتحقق لهم من لذة هزيلة كلها سلبية «

ولكن إرادة الحياة ، خلال هذا الظفر والانتصار والقهر

والاندحار تؤكد نفسها بكل قوة وجسارة . فما تبادل الانتصار والاندحار بالنسبة إليها إلا كالإطراف بالنسبة إلى العين : ظواهر عرضية تنتابها دون أن تمس الجوهر في شيء . أستغفر الله ، بل فيها يكشف الجوهر عن خصبه وثرائه وما يشتمل عليه من قوى حية متوثبة . فلا تحسبن موت الأفراد يؤثر في الإرادة ، هذا الشيء في ذاته ؛ إنما هو تجديد مستمر للشكول التي تبدو عليها والصور التي تعرض نفسها فيها . أما هي فموجودة دائماً ، خالدة لأنها خارج الزمان ، أو إن كان لنا أن نتحدث عن زمان بالنسبة إليها ، فهذا الزمان حاضر سرمدى .

وهنا نجد شوبنهاور يكرس للموت صفحات طوالاً عالج فيها مشكلته لأول مرة في شيء من التفصيل ، من الناحية الميتافيزيقية الخالصة . وقد بدأ هذا البحث بملاحظة نفسانية تتعلق بالموقف الشعورى الذى يقفه الكائن الحى بازاء الموت : فقال إن الظاهرة النفسية الأولى فيما يتصل به هي « الجزع » منه . فكل كائن حى يخشى الموت مهما كانت مرتبته في سلم التصاعد الوجودى . وإنما يختلف الواحد عن الآخر في معرفته للموت . فالحيوان يشعر بالجزع من الموت ، ولكنه لا يعرف هذا الموت الذى يخشاه . وما ذلك إلا لأن الجزع مستقل عن المعرفة : فالأول مصدره الارادة ، والمعرفة مصدرها العقل . ولعل أقوى شعور يعانىه الكائن الحى هو هذا الشعور : سواء بالنسبة إلى نفسه وبالنسبة إلى الآخرين : فأخوف

ما يخافه على نفسه الموت ؛ وأعظم شر يشعر بتهديده إياه هو الموت ؛ ولذا نراه يحاول ما استطاع تجنبه ، وإن لم يكن ، فتأجيل ميعاده ؛ ويلجأ من أجل هذا إلى أنواع من التحايل والمصانعة لا حصر لها ولا تحديد . كما أن العطف على الآخرين لا يبلغ من القوة والحدة والحرارة درجة أعلى من تلك التي يثيرها منظر إنسان في خطر الموت ، ناهيك بها في معاينته إياه وهو يموت .

فما مصدر هذا التعلق الشديد بالحياة ؟

ليس مصدره العقل والتفكير . فقليل من التأمل كافٍ لإقناعنا بأن الحياة ليست خليفة بشيء من الحب والاستمرار ؛ وليس من المؤكد أن الوجود خير من اللاوجود ؛ بل لعل العكس أن يكون هو الصحيح ، كما يبدو لنا لو أمعنا النظر بعض الامعان . ولو استطعت أن تسعى إلى قبور اللوثى وتقرع أبوابها سائلاً إياهم هل يريدون العودة إلى الحياة ، إذن لرأيتم ينغضون إليك رؤسهم رافضين . وإلا فعلام التعلق بهذه البرهة القصيرة التي يقضيها للمرء في الوجود والتي لا تبدو شيئاً وسط تيار الزمان اللانهائي ؟ « إنما هذا التعلق بالحياة حركة عمياء غير حاقة ؛ ولا تفسير لها إلا أن كياننا كله إرادة للحياة خالصة ؛ وأن الحياة تبعاً لهذا يجب أن تعد الخير الأسمى ، مهما يكن من مرارتها وقصرها واضطرابها ؛ وأن هذه الإرادة في ذاتها وبطبيعتها عمياء خالية من كل عقل

ومعرفة أما المعرفة فعلى العكس من ذلك أبعد ما تكون عن هذا التعلق بالحياة ، ولهذا تفعل العكس : تكشف لنا عما لهذه الحياة من ضالة قيمة ، وبهذا تحارب الخوف من الموت . وأصدق شاهد على ذلك أننا نجد من يقبلون على الموت في شجاعة وثبات ، بعد أن أقنعهم العقل بأن الحياة عبث لا يليق بالمائل الاستمرار فيه ، وتنكر فعل من لا يتغلب العقل عنده على إرادة الحياة ، فيتعلق بها بأى ثمن ، ويمتلىء جزعاً وخوراً واضطراباً حينما يتعرض له ، بئله لخطره .

ولو كان الخوف من الموت صادراً عن الشعور بالجزع بازاء فكرة اللاوجود ، إذن لشعرنا بمثله ونحن نفكر في الزمان الذي لم نكن بعد فيه . فليس ثمة فارق بين العدم الذي سأصير إليه بعد الموت وبين العدم الذي كنت فيه قبل الميلاد . ومع هذا فنحن لانجد في هذا العدم الأخير ما يثير فينا عاطفة الجزع . وهذه ما عبر عنه زعيم المتشائمين لدينا ، أبو العلاء ، أجمل تعبير فقال :

لقد أسفتُ ، وماذا ردّ لي أسفى ا

لما تفكرتُ في الأيام والقَدَم

في العدم كنا ، وحكمُ الله أوجدنا ،

ثم انفقنا على ثانٍ من العدم

سيانِ عامٍّ ويومٍ في ذهابهمـــــــا ،

كأنَّ ما دامَ ، ثم انبَتَ ، لم يدُمِ

ولعلك تقول حينئذ : إني لم أكن قد بلوت الحياة بعد ، فلما بلوتها فضلتها على كل شيء عداها . ولكن هذا القول مردود : فما في الحياة من شر كقيل بأن يبعث في نفسك ، على العكس من هذا ، الحنين إلى جنة العدم التي كنت فيها قبل هذا الوجود . وإلا فما بالك تنشد الخلود بشرط أن تكون الحياة الثانية أسعد حظاً من هذه الحياة ؟ أليس هذا دليلاً على أن الوجود الحالي لا يساوي شيئاً ؟

غريب منك إذن أن تأسف على عدم كنت فيه أو بالأحرى زمانٍ لم تكن بعد به وطالم سلك سبيله من دونك . ولو أنصفت لقلت بواحد من اثنين : إنك غير آسف على عدم كان ، ولن تكون آسفاً على عدم سيكون ؛ أو إنك كنت موجوداً دائماً وستكون موجوداً إلى الأبد . ولا تعارض بين القولين : فكلاهما منقضى إلى نتيجة واحدة ، هي أن الموت ليس شيئاً يستحق الجزع والخوف .

ذلك أنه من الحق الغريب أن تحسب عدم الوجود شراً ؛ لأن كل شر وكل خير يقتضى بالضرورة الوجود ، ولا يمكن أن يتصف المعدم بشيء ؛ بل ويقتضى أكثر من هذا المعرفة وأسعور .

ولكن هذا الشعور وذلك الوجود ينتهيان بالموت ؛ فلا مجال
 للتحدث عن الشر إذن بالنسبة إليه ؛ وفقدان الشعور ليس شيئاً
 خطيراً في ذاته ، لأن المسألة مسألة لحظة فحسب . وهذا مادما أيقور
 إلى القول بأن « الموت لا يعنينا في شيء » ، لأنه ، كما يقول ، طالما
 كنا موجودين ، لا يوجد الموت ، وإذا وجد ، لم تكن نحن بعد
 موجودين ، ولهذا لم يعننا عدم وجودنا من قبل كما يجب أن
 لا يعنينا عدم وجودنا من بعد . فكل شيء في هذا يتوقف على
 الشعور وبالتالي على الوجود ، وما دام هذا منعديما في كلتا الحالتين ،
 فما يعنينا من اللاوجود شيء . ولهذا فليس العقل في الإنسان هو
 الذي يجزع منه ؛ وإنما الإرادة العمياء ، إرادة الحياة التي لا تعرف لها
 غير غاية هي الوجود والوجود باستمرار ، فاذا ما هدت في جوهرها ،
 ثارت وتعلمت واهتاجت في عنف وارتياح . . فهل هي على صواب
 في هذا الاهتياج المرتاع ؟

لننظر في موقف الطبيعة بعد أن نظرنا في موقف الفرد بازاء
 الموت . فماذا نرى ؟ نرى التقيض . فبينما نجد الكائن الحي الفرد يسرف
 في الفزع ، نجدها هي تغالي في عدم اكتراثها لموت الأفراد .
 والبينة على هذا أنها لا تحفل مطلقاً بمحاييتهم منه ، بل تدع حياتهم
 فريسة لأشده أنواع الاتفاق والصدفة نزاء وتقليباً . فالحشرة التي
 تصادفك في الطريق تحت رحمة أدنى انحراف لقدمك ؛ وحلزون

الخشب فريسة سهلة جداً لكل عابر؛ ثم انظر إلى السمكة وهي تلمب غير مهمومة بشيء في داخل الشباك، والطيور وهو لا يشعر بالصقر المعلق فوق رأسه. كل هذه الكائنات تحيا في عالم مليء بأخطار تهدد كيانها في كل آن، أخطار لم تحمل الطبيعة مطلقاً بدرئها عنها. تلك حياة الكائنات العضوية، فإذا نظرت إلى الكائنات اللاعضوية وجدت أنها، على الرغم من كونها في أدنى درجات سلم الكائنات، تنعم ببقاء في الوجود أطول، حتى إن الطبيعة المجردة ذات استمرار لا نهائي. فهل من المعقول أن تكون الكائنات الدنيا خالدة باقية، والكائنات العليا زائلة فانية؟ الجواب قطعاً بالنفي؛ بل يجب على العكس من ذلك أن تؤكد البقاء والاستمرار لهذه الأخيرة، فنقول إن الموت ليس بالنسبة إليها غير ظاهرة عرضية تمر على السطح دون الجوهر، الذي يبقى دائماً في مأمن من كل اعتداء على كيانها؛ وإنه نقاب يسدل عليها يحول بيننا وبين رؤية الحقيقة، نقاب من صنع العقل الإنساني، ولا وجود له إلا به. أجل! إن الوجود واللا وجود اللذين نشاهدهما في الأفراد ظاهرتان نسبيتان، زائلتان، بل وهمتان اخترصهما العقل، الذي لا يستطيع أن ينفذ من وراء الظواهر إلى الشيء في ذاته، هذا الجوهر الحقيقي للوجود.

وإنما نحن نضيف إلى الموت قيمة جوهرية لأننا نطبق مقولة الزمان على الشيء في ذاته: فنجعل الزمان، وهو رمز الفناء، يلحق (م ١٦ - شبنهور)

الإرادة في جوهرها ، مع أن الزمان كما قلنا من قبل مراراً
 لا حقيقة له إلا في الذهن ، ولا ينطبق إلا على الظواهر التي هي
 امتثالاته ، أما الفناء في ذاته فلا يخضع لسلطانه . فاذا نظرنا إلى
 الموت من هذه الناحية ، فاننا نراه لا يلحق الإرادة ، وإنما يس
 ظواهرها ، وما مثله إلا كالنوم الذي يطوف برأس الإنسان دون
 أن يقضى على كيانه ، أو الليل الذي يبدد العالم وكأن قد فني فيه
 على الرغم من أنه لا يقف لحظة واحدة في سيره ووجوده . وإن
 الوجود في الزمان ليدو لنا على هيئة سلسلة متصلة من الظواهر
 تتلو الواحدة منها الأخرى في تتابع مستمر ، وكأن السابقة قد
 فنت وحلت محلها التالية وهكذا باستمرار إلى غير نهاية ،
 لكن وراء هذه الظواهر تحيا باستمرار وثبات الإرادة التي هي
 جوهر الوجود كقوس قزح يخلق فوق الشلال . وذلك هو الخلود
 في الزمان . وبفضل هذا الخلود لم يضع شيء مطلقاً ولم تكن ذرة
 من المادة ، ولا بالأحرى أية بضعة من الوجود الحقيقي الذي يبدو
 لنا على هيئة الطبيعة ، على الرغم مما مضى من الآلاف المؤلفة
 من السنين الحافلة بالموت والفساد . ولذا نستطيع أن نصيح في كل
 لحظة ، وقلوبنا عامرة بالسرور : « على الرغم من الزمان والموت
 والفساد ، فلا زلنا هنا مجتمعين » .

كل شيء خالد إذاً ، فما البدء والنهاية إلا من شأن الزمان ،

والزمان لا انطباق له على الجوهر ، أى الإرادة . ولاداعى للجزع من الموت : فصدر هذا الجزع شعورنا بأننا سنفتى إلى غير رجعة ، بينما العالم باق ، لكن العكس هو الأولى أن يكون الصحيح فالعالم هو الذى يفتى ، عالم الامثال ، أما جوهره الباطن أغنى الإرادة ، فباقية باستمرار . ومما يثير الدهشة حقاً ، بل والسخرية ، أن نرى الانسان ، سيد العالم ، الذى يعلم كل شيء كيانه ويهب كل شيء وجوده ، يترنح ويحجن خشية الموت والفتناء فى هاوية العدم الدائم . فما ياله يحجن ، مع أن كل شيء فى الواقع يدين له بالوجود ، ولا مكان إلا وهو به ؟ إنه حامل الوجود ، وليس الوجود هو الذى يحمله . ولكنه ، كفرد ، لا يزال فريسة لمبدأ العردانية ، ولا يزال يحيا فى الحلم الخفيف ، حلم إرادة الحياة . وخير ما يقال للمحتضر هذا القول : « إنك لن تكون بعد ذلك الشيء الذى لو أحسنت صنعاً لم تكنه » .

ألا إن الزمان هو الحاضر ، وليس الماضى ولا المستقبل ، فهذان لا وجود لهما إلا فى الذهن والتجريد ، حينما ترتبط المعارف تبعاً لمبدأ العلة الكافية ، والإنسان لا يحيا فى الماضى ولن يحيا فى المستقبل وإنما هو يحيا فى الحاضر ، لأنه لا يوجد طالما لم يكن حاضراً ، وهذا الحضور جوهرى لديه ، فلا يستطيع شيء أيا كان أن يسلبه إياه . الحاضر صورة الحياة ، والحياة جوهر

الإرادة ، ؛ فالإرادة في حضور مستمر . والحاضر هو الوجود ؛ وإنما الوم هو الذي يصور لك الحاضر على نوعين : نوع ينتسب إلى الموضوع وآخر إلى الذات ، مع أن كليهما واحد ؛ « لأن الحاضر هو نقطة التماس بين الموضوع ، وصورته الزمان ، وبين الذات التي لا صورة لها من بين تلك التي يضعها مبدأ العلة . والموضوع هو الإرادة وقد صارت امثالاً ، والذات هي للتضاييف الضروري للموضوع ؛ ولكن للموضوعات الحقيقية لا وجود لها إلا في الزمان ، لأن للماضي وللستقبل لا ينطويان إلا على تجريدات للعقل وأشباح : فالحاضر إذن هو الصورة الجوهرية التي لا يمكن أن تنفصل عن ظاهرة الإرادة . والحاضر وحده هو الوجود دائماً والذي يظل ثابتاً باستمرار ... وينبوع مضمونه وحامله هو إرادة الحياة ، أو الشيء في ذاته ، أو بعبارة أخرى هو نحن أنفسنا . . . ولهذا يستطيع كل منا أن يقول : أنا مالك للحاضر على الدوام ، وسيرافقتي كالظل خلال الأبدية : ولهذا ، فليس لي أن أتساءل من أين أتى الحاضر ، وكيف يتأتى أنه يوجد في هذه اللحظة بعينها ... إن الحاضر هو الصورة الوحيدة التي تظهر عليها الإرادة بالنسبة إلى نفسها : وهذه الصورة لن تعوزها أبد الدهر ، وهي الأخرى لن توجد بدونه . وإن من يجب الوجود كما هو ، ومن يؤكد الحياة بكل قواه ، يستطيع آمن السرب أن يعدّها بلا نهاية ، وأن

يطرح الجزع من الموت باعتباره وهماً يثير في نفسه الخوف بلا مبرر؛ الخوف من أن يفقد الحاضر يوماً ما ، ويعطيه صورة خداعة لزمان بلا حاضر .. وما مثل من يخاف الموت باعتباره فناً ، إلا كمثل الشمس إن قدر لها أن تصبح حين الغروب فتقول : « أواه ! ها أنذا أفنى في الليل الأبدى » .

وخلاصة هذا كله أن الموت لا يصيب إرادة الحياة ؛ وإنما يتعلق بمظاهرها العرضية الزائلة كي يجددها باستمرار . أما هي فخالدة أبد الدهر ، والطبيعة قد ضمنت لها الخلود بواسطة أداة قوية تلعب الدور الأكبر في الحياة العضوية هي الغريزة الجنسية . ففيها مظهر من أوضح وأعنف مظاهر توكيد إرادة الحياة لنفسها ؛ لأن معناها هو أن الطبيعة مهمومة بحفظ النوع باستمرار ؛ وإن في شدة هذه الغريزة وكونها أقوى الغرائز ، ما يدل بجلاء على أن توكيد إرادة الحياة هو سر السر في الطبيعة . أجل ، إنها ليست الأساس في الإرادة ومصدرها ؛ ولكنها العلة المهيئة لظهورها وتحقيقها في الأعيان والموضوعات . ومن هنا كانت أهميتها الكبرى ، وكان حرص الطبيعة على أن تيسر لها الإشباع بكل الطرق ، حتى إذا حققت الكائنات غاية الطبيعة منها وهي حفظ النوع ، لم تكترث لوجودهم أو لفنائهم ، لأن ما يعينها هو النوع لا الفرد .

وتعاً لهذه النظرية ، يقدم لنا شوبنهاور نظرة في الحب تمتاز

بالعمق والبراعة في التحليل ، كما تمتاز أيضاً - أو يعيها - أنها حسية إلى أقصى حد . فهو لا يفهم من الحب إلا جانبه الجنسي الخالص ، لأنه يراه مرتبطاً كل الارتباط بالغريزة الجنسية ، وهذه الأخرى بارادة الحياة على هيئة حفظ النوع . فما تأوهات العاشق وزفراته ، وقشعريرة قلبه ونبضاته ، غير حنين صادر من أعماق إرادة الحياة ممثلة في الغريزة الجنسية ، وما النظرات الرفافة المتهبة يتبادلها المحبان إلا بريق متأجج لعيني الطفل الذي يرنو إلى النور ، وما سؤرة الوجد المتوثبة في روح العاشقين غير انتفاضة الجنين المقبل وهو يتطلع إلى الوجود

فليس بغريب إذن أن نراه يختص الحب ، مفهومأ على هذا النحو ، بنصيب وافر من العناية ، آخذأ على الفلاسفة المتقدمين إهمالهم أو تغاضيهم المصطنع عن هذا الجانب الخطير من جوانب الوجود . وحتى الذين عنوا به لم يستطيعوا أن يضسوا أيديهم على السرفيه . وأفلاطون الذي كان أكثرهم احتفالا له في محاورتي « المأدبة » و « فدرس » لم يقل شيئأ ثابتا صادراً عن تحقيق علمي « تدقيق فلسفي . بل هام هنا في أتاويه الأساطيروخلق في سماء الخيال ، ودار عن أنه لم يتناول غير ناحية شاذة من نواحيه كانت شائعة عند اليونان . وكنت ، الذي عالج مسألته في القسم الثالث من بحثه « في عاطفة الجميل والسامى » ، جهل موضوعه ، فجاء تحليله إياه سطحيا

غير صحيح في بعض أجزاءه . بينما الشعراء والقصاص قد أسرفوا في التغنى به وإرجاع كل أحداث الحياة إلى يده الخفية ، حتى جعلوا منه الموضوع الرئيسي الذي يدور عليه كل ما أتتجوه من آثار . لكنهم أكدوه ولم يفهموه ، وشعروا بقوته دون أن يدركوا السر في هذه القوة . ولم يكونوا مغالين كثيراً في بيان خطره وأهميته حين جعلوه ينتهي غالباً بانكار الحياة والتضحية بالوجود ، فان أمثال فرتر لا يوجد في قصة جيته فحسب ، بل الحياة تقدم لنا كل يوم مئات الشواهد من هذا القبيل ، وإن كانوا مغمورين في هاوية النسيان . أفليس مما يثير العجب إذن أن ينصرف عن دراسته الفلاسفة ؟

جاء شوبنهاور فكرس له فصلاً من أروع فصول كتابه الرئيسي ، حتى نعته هو بأنه « لؤلؤة » في عقده . قال إن الحب مهما تسام ولطف يذبح من الغريزة الجنسية ، أو هو الغريزة الجنسية نفسها واضحة محددة مشخصة . فإن الغريزة الجنسية إذا لم تكن ذات موضوع معين كانت إرادة الحياة ، وإذا بدت مرتبطة بشخص معين فهي الحب . ومع أنها في هذه الحالة صادرة عن حاجة ذاتية خالصة ، فإنها تعرف كيف تلبس نقاباً من الموضوعية الزائفة فتوهم العقل بأنها ظاهرة من كل شهوة حسية . ولكنها الطبيعة ، هذا اللاسرك الأكبر ، هي التي تتخذ هذا السبيل للتلوي كي نحقق أغراضها كما

تشاء ، دافعة الإنسان بقوة صمياء تمتاز مع ذلك بالخبت والدهاء .
ولكن الذى يستطيع أن يهتك هذا القناع ويكشف عن هذا
التلبس ، لا يلبث أن يرى فى وضوحٍ وقوة الغريزة الجنسية من
وراء كل هذه الألوان السامية والمظاهر الطاهرة العالية التى تستتر
من ورائها . وأصدق بينة على ما نقول هى أن المهم فى الحب ليس تبادل
بين المحبين ، بل امتلاك الواحد للآخر امتلاكاً حسيّاً بواسطة المتعة
الشهوانية ، ولا يغنى فى شيء أن يكون فى الجانب الآخر صدى
للعاطفة وترديدٌ للغرام ، ولهذا نرى أيضاً أن الذى لا يثير الحب
عند الآخرين نحوه ، يقنع بالامتلاك أو بالمتعة الحسية . والشواهد
على هذا عديدة فى الزواج المغتصب ، وفى الخطوة التى يشتريها المرء
لدى المرأة بقليل من الهدايا أو الترضيات ، ثم هذه العناية الشديدة
التي يوجهها كل من الخطبين إلى الآخر وهما مقبلان على الزواج .
وما نماء العاطفة بين المحبين غير إرادة الحياة عند انفراد الجديد الذى
يريدان إنتاجه ، وإن فى التقاء النظرات المليئة بالشهوة لاشتعالاً
لوجوده المقبل ، وفى رغبتهما فى الاتحاد حتى الفناء فى شخص واحد
تعبيراً عن حاجتهما الملحة إلى الاستمرار والبقاء فى هذا الوليد ،
ولهذا فانهما يمزجان بين خلقتيهما ويصبان هذا المزيج فى النتائج :
فيرث الطفل عن أبيه الإرادة أو الخلق ، وعن الأم الذكاء ، وعن
كليهما تركيبه الجسماني . وهكذا نرى دائماً أن الوجد الغرامى فى
جوهره يتجه إلى شيء واحد هو ولادة الطفل .

وإذا كنا نرى في الحب إثارةً ومحاولةً للقضاء على الآثرة ، فما ذلك إلا من فعل الطبيعة التي تريد أن تضحى بالفرد في سبيل النوع ، فتزور له الحب وكأنه آثرة وفائدة شخصية ، بينما هو في الواقع تضحية وإيثارة قصد به النوع ، فيخيل إليه أنه يسمى نحو غاية فردية ، وهو لا يسمى في الحقيقة إلا إلى غاية نوعية . وهذا الوهم هو الغريزة الجنسية بما يباحها من متعة عظمى . وكل شيء موجه في الحب نحو تحقيق هذه الغاية ، أغنى الولد الذي به يستمر النوع . فالجمال الفاتن الذي ينجذب لب الرجل إنما يحدّثه عن النوع كما يندبني أن يستمر ، وحرص الرجل على اختيار المرأة التي توافق ميوله ورغباته لا يصدر إلا عن حرص على إيجاد النسل الكامل كما يراه أو بالأحرى تراه غريزته في شيء من اللاشعور . وما فطرت عليه المرأة من ثبات في الحب ، بعكس الرجل الذي يميل إلى التنويع والتقلب ، يدل على أنها هنا إنما تصدر عن وحى من الطبيعة التي تريد منها أن تقتصر على رفيقها حتى يكون في وسعها العناية بالولد . ومن هنا كانت الفضيلة الأولى والمعظمى في المرأة الأمانة الزوجية ، حتى إن الزنا يعتبر بالنسبة إليها مخرجاً لها عن طبيعتها وجوهرها ونازلاً بها إلى أحط درجات السقوط وأشنع ما يمكن أن تقترفه من إثم ، لأن في هذا خروجاً على ما رمت إليه الطبيعة من وجودها ، بعكس الرجل ، فإن هذه الأمانة عنده مصطنعة لا أساس لها من الطبيعة ، ولذا كانت خيائته أقل جرماً وأهون إثماً .

والرجل والمرأة في اختيارها الواحد للآخر إنما يحدوها حادي
الغريزة الجنسية: غريزة الولد وحفظ النوع. والصفات المنشودة
بيدهما على نوعين: نوع جسماني، وآخر نفسي.

ففي النوع الجسماني نميل إلى تفضيل السن الأكبر تحقياً لمعنى
الولد، فلا نختار للمرأة إلا في السن المتراوح بين الثامنة عشر
والأربعين: لأن هذه الفترة هي التي يبدأ بها الحيض وينتهي.
ونعتبر ثانياً الصحة، حتى يأتي النسل قوياً. وثالثاً تركيب البنية،
وفي هذا المعنى يقول صاحب سفر «الجامعة» (٢٦: ٢٣):
«إن المرأة الحسنة التكوين الجميلة الساقين كعمود من الذهب
على قاعدة من الفضة»، لأن حسن التكوين يهيء للولد تكويناً
أقوى وأحسن. ورابعاً امتلاء البدن، حتى يكون غذاء الجنين
أوفر، وهذا أظهر ما يكون في الجاذبية المائلة التي تحدثها النهود
الممتلئة، لأن النهود الممتلئة تيسر تغذية الطفل على النحو الأحسن.
أما المرأة الهزيلة فلا تثير الاغراء، كما أن البدينة تثير الكراهية
لأن هذا التركيب دليل على هزال الرحم وبالتالي على العقم. وأخيراً
نعتبر في المرأة جمال الوجه، ويقودنا في هذا الاعتبار غريزة الولد
نفسها. فنعني خصوصاً بجمال الأنف، لأن فيه أجلى تعبير للوجه
عن النوع، حتى إن انحرافاً ضئيلاً في الأنف، نحو أعلى أو نحو
أسفل، ليتحكم في مصير آلاف الفتيات؛ ويتلوه جمال القم بأن

يكون صغيراً في سببته وفي فكيه ، لأن هذا طابع خاص بالوجه
الإنسانى فى نوعه ، بخلاف الحيوان ؛ ثم الذقن ، لأن الذقن الهاربة
تلك التى تبدو كأنها مقطوعة ، تشير الأشمزاز ، لأن بروز الذقن
سمة خاصة بالنوع الانسانى وحده ؛ وأخيراً جمال العين والجهة ،
وهذا على ارتباط وثيق بالصفات المعنوية كل هذا من جانب
الرجل أما من جانب المرأة فإنها بوجه عام تفضل الرجال فيما بين
الثلاثين والخامسة والثلاثين ، ويقودها فى هذا الاختيار الغريزة التى
تهديها إلى أنه فى هذه السن تكون قوة الإنتاج عند الرجل أقوى
ما تكون . ولا تحفل كثيراً بالجمال خصوصاً جمال الوجه ؛ وإنما
الذى يجذبها بوجه خاص هو قوة الرجل وما يلزمها من شجاعة ،
لأن فى هذا ما يخول لها أن تلد أطفالا أقوياء ، ولهذا تختار
من بين صفاته الجسمانية ما يعبر عن هذه القوة أجلى تعبير .

أما الصفات المعنوية أو النفسية فإن ما يجذب المرأة منها على
الأخص هو صفات القلب والخلق لأن الطفل يرثهما عن أبيه .
ويحددها فى الرجل خصوصاً مضاء العزيمة وقوة الإرادة والشجاعة
وفى كلمة واحدة كل الصفات المكونة للرجولة بالمعنى المحدود .
بينما لا تكاد تحفل مطلقاً بالصفات العقلية فلا تؤثر فيها بطريق
مباشر ، لأنها لا تنبع من الأب ، بل من الأم ، فلا تنتقل إلى الولد ؛
حتى إننا نرى العبرى نفسه يبدو لها على شىء من الشذوذ فيشير

فيها البغض أو النفور . وتلك هي العلة في أننا نرى غالباً تفاوتاً شاسعاً بين المرأة والرجل المقترنين ، من ناحية الذكاء . والسبب الحقيقي في هذا كله هو أن الذي يلعب دوره هنا ليس الاعتبارات العقلية بل الغريزية . فما يندش في الزواج ليس متعة الروح ، بل إيجاد الولد ، « والزواج ائتلاف بين القلوب لا بين الرؤوس » . وعلى العكس من ذلك لا نجد الرجل معنياً بالخلق ، بل بالصفات العقلية ، لأن هذه هي التي تنتقل إلى الولد عن طريق الأم ، وعلى الرغم من هذا فإن الصفات البدنية ذات أثر أكبر في اختياره لأن فعلها مباشر في تحقيق الغاية ، أعني الولادة .

وليس الأمر مقصوراً على الاختيار فحسب ، بل نجد في الطريقة التي يتم بها الحب الشاهد الصادق على أن كل شيء يصدر عن الغريزة الجنسية المتجهة إلى حفظ النوع . إذ نلاحظ أولاً أن مما يدل على أن الحب لا يصدر عن تقويم وتقدير للصفات العقلية هو أن الحب العالي كثيراً ما يقوم مع جهل العاشق بمعشوقته كما هي الحال بالنسبة إلى بتركة ، الذي لم ير حبيبته لورا إلا نادراً ومن بعيد ، كما أنه يتم من من أول نظرة ، وما ذلك إلا لأن الإنسان يصدر فيه عن وحي الغريزة التي تتوسم بسرعة في الموضوع الذي أمامها تحقيقاً لأغراض النوع . وبهذا المعنى يقول شكسبير : « من ذا الذي أحب ولم يكن ذلك من أول نظرة ؟ » . وهو معنى حله كثير من

الروائيين ، نخص بالذكر منهم القصصى الأسباني الشهير ماتيوا أليمان في قصته المشهورة « جزمان الفاراقى » حين قال : « لا حاجة من أجل الحب إلى الانتظار طويلا والتأمل كثيراً ، بل يكفى من نظرة واحدة أن يتفق وجود وفاق متبادل ، وهو مانسميه في الحياة العادية باسم المشاركة في الدم ، مما ينشأ خصوصا عن تأثير للكواكب خاص » . وما يشعر به المرء من جزع هائل لفقدانه معشوقته ، سواء بامتلاك الغير لها وبموتها ، مصدره أن المرء يشعر في هذه الحالة بأنه فقد ذريته الحقيقية أى بقاءه واستمراره إلى الأبد . وأتات الحب التى لا يحلو للمحبين أن يبتثوا غيرها ليست تصدر إلا عن النوع ، فهو الذى يئن فيهم . وعبقرية النوع هى التى تضحى بكل الاعتبارات المفرقة بين المحبين : من تفاوت في المركز الاجتماعى أو الثروة وما شابه ذلك ، فلا تحسب لها حسابا ، بل تسلك سبيلها قدما غير حافلة بشيء . وما يشاهد من غرابة في سلوكهما يرجع إلى أن روح النوع قد سيطرت عليهما تمام السيطرة ، فلم يعودا مالكين لأنفسيهما ، بل سلوكهما هو سلوك النوع في مجموعة لا كأفراد . وهذا هو السبب أيضا فيما يصدر عنهما في سورة الوجد ونشوة الهوى من سمو فى الخيال : لأن النوع أقوى بكثير جداً من الفرد ، وفى الحب يستحيل الفرد إلى نوعه . وهذه القوة هى التى تدفع بالعاشق البائس إلى الانتحار ، لأن قوة النوع

حينما لا تجد منفذا لتحقيق إرادتها، تنقلب إلى قوة هدامة
كأعنف ما يكون الهدم

فالحب إذن لغز مفتاحه الوحيد إرادة الحياة ممثلة في حفظ
النوع . وهذا ما سيعبر عنه نيتشه فيقول : « كل شيء في المرأة
لغز ، ولكن لهذا اللغز مفتاحا هو الولادة ، فالرجل بالنسبة إلى
المرأة وسيلة ، والغاية دائما هي الولد » ، ثم اشبنجر حين يقول :
« سياسة المرأة الأبدية هي أن تجد الرجل الذي تستطيع عن طريقه
أن تكون أما لأولاد ، وبالتالي تاريخا ومصيرا ومستقبلا »
(راجع كتابنا عنه : الطبعة الأولى ، ص ٢٥٧ ص - ٢٦١) .

والزواج هو الآخر لا يقوم إلا من أجل تحقيق تلك الغاية ،
حفظ النوع . وواهم كل الوهم هذا الذي يزعم أنه يقوم أو يمكن
أن يقوم على الحب الخالص الذي يؤدي إلى السعادة الشخصية لكلا
الطرفين . أجل ، إن الخطيبين يعمنان في الحلم ويفرقان في خيال رفاف
يوههما بأن خاتم الخطبة قد وقع وثيقة سعادتهما الأبدية ، لكن
ما يلبث هذا السراب الزجاج أن يتبدد ، حين يتم الزفاف وتنقضى
ذبوله وحواشيه ، فإذا بهما بعد قليل أمام خيبة أمل لا يبلغ مداها
التعبير ، تؤدي إلى الانفصال عند النفوس الحاملة ، وإلى القنوط
العاجز عند النفوس للمسألة : إذ يكتشف كلاهما أنه كان فريسة لوهم
صريع ، وهم السعادة والنمو الروحي المتبادل ، وما كان في الواقع

غير أداة بأتسة في أيدي إرادة الحياة ممثلة في حفظ النوع . وهذا هو السر في أن كل زوج يقوم على الحب الخالص ينتهي عادة بالإخفاق الشنيع ، وهو ما عبر عنه المثل الأسباني الذي يقول :
« زواج الغرام حياة السقام » .

تلك نظريه شوبنهاور في الحب : عرضها في وضوح قاس ، غير عابى بما ستثيره في النفوس الحاملة الرقيقة من رعدة ، هو أول من يتوقع حدوثها ، وأول من يعلم أصلها ومآتها . لكنه لا يريد أن ينساق في تيار أحلامهم ، بل يمضى في تشريحه لتلك العاطفة غير حافل بما قد ينشأ عن هذا التشریح من آلام وأوصاب . ومتى كان لعالم التشریح أن يحفل بالآلام الجسم ! ومهما قيل في حسية هذه النظرة ، فإن المرء لا يسهه إلا أن يعترف بأنها منطقية مع مذهبه الى أقصى حد ، وأنها تلتقى على هذا المذهب ، كما يقول هو ، ضوءاً ساطعاً في ناحيتين : الأولى عدم قابلية جوهر الإنسان الحقيقي للفناء ، مما يتمثل في قوة الغريزة الجنسية واندفاعها وتحطيمها لكل العقبات في سبيل تحقيق غايتها ، وما كان هذا ليكون ، لو أن الإنسان كان مخلوقاً عابراً زائلاً يمكن أن يحل محله على مدى الزمان جنس يختلف عنه كل الاختلاف . والثانية هي أن جوهر الإنسان الحقيقي هو في النوع أكثر منه في الفرد ، والا فما السر في أن العاشق يتعلق بشدة بمن اختارها في ذلة وخضوع ، وأنه على أتم

أهبة للتضحية من أجلها بكل شيء ؟ السر بسيط ، وهو أن الجانب الخالد من وجوده هو الذي يريد تملك المرأة ، بينما بقية شهواته ونوازعه تصدر دائماً عن الجانب القانى وحده . فما نشعر به من سبق هائل نحو امرأة بالذات هو وحده الضمان المباشر لعدم قابلية جوهر الوجود فينا للفناء ، والكفيل ببقائه مستمراً فى النوع ، هو إرادة الحياة التى تريد أن تكفل لنفسها البقاء والخلود ، وتؤكد كيانها على مر الزمان . ولهذا نرى الحياة أماننا صاحبة بهذه القوى الثائرة فى أعماق الإنسان والتى تريد أن تؤكد تلك الإرادة بأى ثمن ، وإن كانت لا تستطيع ذلك وبالأأسف إلا لمدة من الزمان ضئيلة ، مهما أنفقت فى هذا السبيل من طاقة واستنفدت من جهود .

وخلال هذا الاضطراب تبصر نظرات المحبين الملتهبة بالشوق تتلاقى فى هيبة وإيهام ، وسر وخشيان ، فلماذا هذا كله ؟ « لأن هذين المحبين خائنان ، يريدان فى خفايا نفوسهما أن يخلدا كل هذا الشقاء وكل هذه الأحزان التى لولاها لانتهدت وزالت ، ولكنهما يجملان هذه النهاية مستحيلة الوقوع ، كما ساهم فى هذا أيضاً أسلافهم المتقدمون » .

الوجود خطيئة

« أكبر خطايا الانسان ميلاده »

كلدرون

في البدء كان الإمكان ثم نفذ إليه الزمان ، فاستحال إلى وجود الانسان .

والزمان ينبوع الفناء، والزمان أصل لكل شقاء ، فالشقاء جوهر هذا الوجود .

وما اتخذ الامكان صورة الزمان إلا باختيار لا باضطرار ، ولذا كان الوجود هو الخطيئة ، ولم تولد الحياة يوماً وهي بريئة .

تلك حقيقة شعر بها الانسان ، من أقدم الأزمان : فلم يشأ أن يصور وجود إلا مرتبطاً بالخطيئة . فأدم ، هذا المسكين ، ماخطبه وماذا دهاه ؟ إنه وجد ، وكفى بالوجود إثماً وخطيئة .

وكان للتعبير عن هذا الشعور مظهران متعارضان، أو بالأحرى متفاوئان : ألا وهما الازعان ، والعصيان . مثلهما من بين الملائكة جبريل وإبليس ، ومن بين البشر قابيل وهابيل . فمن هو إبليس ، ومن هو قابيل ، إن لم يكونا ذلك الرمز الأعلى للثورة التي يحملها كل موجود على مجرد وجوده ، تلك التي عبر عنها بيرن أجل التعبير في (م ١٧ - شوبنهور)

هذا الخطاب الذي وجهه قابيل إلى إبليس فقال: «لم وجدتُ؟ ولماذا أنت شقي؟ ولم انتظم الشقاء كل موجود؟ يجب أن يكون بارينا هو الآخر شقياً، ما دام قد خلق هكذا الكائنات، فإن الشقاء لا يمكن أن يكون من عمل السعادة. ومع هذا فإن أبي يقول عنه إنه قادر قدرة مطلقة. فإن كان خيراً، فلم إذن وجد الشر؟ سألت أبي هذا السؤال: فأجاب بأن هذا الشر ليس إلا سبيل الوصول إلى الخير. يا عجباً لهذا الخير الذي لا يولد إلا من خصمه الدود!». يقولون إن خطيئة آدم هي السبب في شقاء الإنسان، «ولكن ماذا فعلت أنا؟ لم أكن قد ولدت بعد، بل ولم أطلب هذا الميلاد». إنما فرض على الانسان أن يظل شقياً دائماً وأن يورث هذا الشقاء أبناءه جيلاً بعد جيل، طالما استمر مرتكباً هذه الخطيئة، خطيئة الميلاد. ولذا يقول قابيل لزوجته: «إن جمالك وحبك، وإن حبي وسروري وكل ما تتعشقه في أبنائنا وما يهواه كلانا في الآخر، كل هذا لن يفيدهم إلا في أن يقضوا، كما قضينا نحن، سنوات مليئة بالخطيئة والألم، قد تكون طويلة وقد لا تكون، لكنها دائماً قاسية ألّمة، تتخللها بين الفينة والفينة لثأذ قصيرة حتى يأتي الموت، هذا المجهول!». حياة شقاء إذاً تلك التي وهبها إياه الإله فهل يمكن أن يكون عليه بازائه واجبات؟ «كلا، فلماذا أكون مسالماً؟ الآن مضطر دائماً أن أصارع العناصر قبل أن تقدم لنا الخبز الذي

نقتات به ؟ ... ولماذا أكون شاكرًا أسبح بحمده ؟ ألانى تراب
يزحف فى التراب ؟ ... وعم أ كفر ؟ أعن خطيئة أبى التى كفر عنها
من قبل ما عايناه جميعاً واحتدنا ، وسينتقم من عيشنا لأجلها
أضعافاً مضاعفة فيما سيمر من قرون ؟ . ويطلب منى بعد هذا
كله أن أدعو وأن أصلى ؟ لا ، ليس على إلا أن أتمرد وأن ألعن :
« تمسأ لمن اخترع الحياة، التى تفضى إلى الموت ! » .

فخطيئة آدم إذن هى فى ميلاده ، كما يقول شاعرنا العظيم
أبو العلاء :

سعى آدم ، جد البرية ، فى أذى
لذرية فى ظهره تُشبهه الذرأ
تلا الناس فى النكراء نهج أبيهم
وغر بنوه فى الحياة كما غرأ

ومن وهبنا الوجود لم يقدم لنا ما يمن به علينا :
وهال تظفر الدنيا على بمنة
وما ساء فيها النفس أضعافاً ما سرأ

وكان من الخير لآدم ألا يكون :
خير لآدم وأخلق الذى خرجوا
من ظهره أن يكونوا قبل ما خلقوا

فهل أَحَسَّ ، وبألى جسمه رِمَمٌ
 بما رآه بنوه مِنْ أذى ولَقُوا ؟
 والمعجب كل المعجب لهؤلاء الذين يفتبطلون لاستمرار تلك
 الخطيئة ، فينسلون ويخلفون لنسأهم الشقاء :
 بدا فَرَحٌ من مَعْرِسٍ : أفما درى
 بما اختار من سُوءِ الفِعالِ وما جَرَّأ ؟
 أفأيس الأجدر بهم أن يقطعوا حبل هذا الشقاء ؟ :
 أيا سارحاً في الجوّ : دنياك معدنٌ
 يفور بشرتّه ، فابغِ في غيرها وَكُرا
 فإن أنت لم تملك وَشيكَ فِراقِها
 فِعْفٌ ، ولا تَنكِحِ عَواناً ولا بَكراً
 وألقاك فيها والدك فلا تَضَعُ
 بها وَلدًا ، يلقى الشدائدَ والنُّكرا
 وقبل هذا ، أليس في الموتِ الخِلاصُ ؟ :
 أما الحِياةُ فقُورٌ لا غنى معه
 والموتُ يُغنى ؛ فسبحان الذي قَدَّرا !
 وثورة أبي العلاء هنا لا تقل في عنفها عن ثورة بيرن : فالدينا

والدهر عنده إنما تدل على الباري ، فلا يجب أن نخدع إذا بهذه الألفاظ عن هدفه من كل تلك الثورة ، والفارق بين الاثنين في طريقة التعبير والأداء : فيبرن عبر عن ثورته في حرارة وصور قائمة أضفت عليها طابعاً فنياً من الطراز الأول ؛ بينما ثورة أبي العلاء قد امتازت بالقسوة والجفاف الصادرين عن غيظ مكظوم في قوة وتعمق وهدوء ، فكانت أقل فنية في التعبير وحرارة في العاطفة ، حتى جاءت في معظم الأحيان أقرب ما تكون إلى الكلام التعليمي للمنثور ، وبالجملة ، كان بيرن ثائراً مشبوب العاطفة ، وكان أبو العلاء متمرداً عنيد العقل .

وتقرب من ثورة بيرن ثورة الخيام : ففيها صراحة حادة وسخرية لاذعة وطابع فني واضح ؛ ولكنها أقل من ثورة بيرن جموحاً وحماسة وحرارة ، لأنها صدرت عن بأس باسم كاد أن يصل حد الاستهتار ، بينما بأس بيرن يأمر غضوب قوى المخالب حاد الأظفار ؛ وإن شئت فقل إن بأس بيرن يأمر القوي للمحتاج ، وبأس الخيام يأمر الرقيق الهاديء للزاج . ولئن قرب هذا بين الخيام وبين أبي العلاء ، - فكلاهما هاديء الطبع - ، فإن في هدوء الخيام رقة وعدوية ، وفي هدوء المعري قسوة ومرارة ؛ الأول كهدهو النسيم ، والآخر كهدهو الصقيع ، ولعل مصدر الهدوء عند الاثنين إيمانهما بالجبر المطلق . أما بيرن فكان ثائراً مع إيمان بإمكان قلب الأوضاع ،

أى كان نائراً مع شعور بالحرية وقوة الإرادة المبدعة الهدامة ، ومن
 هنا كان بيرن إيجابياً في ثورته أكثر من الآخرين ، فكان يلعن
 ويحذف في صراحة قاسية ، أما ما فقدنا بالتلميح كما هو أظهر
 عند أبي العلاء ، أو بالتصريح الرقيق الباسم ، كما هو أوضح عند
 الخيام ، وبين الطرفين المتناعدين موقف وسط اتخذه الفرد دثني .
 فيه ثورة ، لكنها ما تلت أن تنتهي بالإذعان الرواقى ، وفيه
 صراحة ، لكنها غير مسرفة في صب اللعنات ، وفيه هدوء ،
 لكنه صادر من الأعماق ، كهدوء الماء في لجة المحيط .

فاذا قال بيرن على لسان إبليس وهو يجيب قابيل حين سأله عن معنى
 الموت ، هذا الجبار الذى لا بد منه : « اسأل الهدام . - من البارى ؟
 سمع ما شئت : فإنه لا يخلق إلا ليهلك » - قال أبو العلاء :

جَدَّثَ أُرَيْحُ وَأَسْتَرِيحُ بِلِحْدِهِ

خَيْرٌ مِنَ الْقَصْرِ الَّذِي آذَى بِهِ

وَجَذِبْتُ مِنْ مَرَسِ الْحَيَاةِ مُغَارَهُ

فَالآنَ أَخْشَى الْبَتَّ عِنْدَ جِذَابِهِ

وَلَأَشْرَبَنَّ مِنَ الْجَمَامِ كَثُوسَهُ

مَا بَيْنَ جَامِدِهِ وَبَيْنَ مُذَابِهِ

عَذْبٌ يَمُذَّبُنِي الْبَقَاءَ وَالرَّدَى

يَوْمٌ يَخْلَصُ مِنْ فَنُونِ عَذَابِهِ

ويقول الخيام : « حتام تمضى العمر في عبادة نفسك أو التأمل في الوجود والعدم ؟ ألا فلتشرب الخمر ، فأخلق بالعمر الذى ينتهى بالموت أن ينقضى في السكر أو في النعاس » . أما دثنى فيقول : « علواً بالأبصار إلى ما فوق التراب . إن موت البراءة سر بالنسبة إلى الإنسان : لكن لا تعجب منه ولا تلق بطرفك إليه . فإن رحمة الإنسان ليست رحمة السماء ، وما أبرم الله مع البشر ميثاقاً فمن خلق بلا حب ، يهلك بلا حقد ولا بغضاء » .

وفي سؤال كل منهم عن الموت ما يكشف عن طابعه في التمرد . فيبرن مخاطر يمتحن الموتى في عنف فيقول : « في جولاني المتوحدة غصت إلى أعماق الموت . . . وفي وسعى أن أدعو الموتى كي أسألهم لماذا نحن نرتاع من الوجود ، وأقسى جوانب لا يمكن أن يكون غير العدم للمائل في القبر ، ولكن هذا ليس بشيء » . وأبو العلاء يتأمل قسوة الموت في هدوء مر :

آلى الزمان يميناً أن سيجمعنا

إلى التراب ، ورُسُلُ الموت تَنْتَقِرِ

● عرفتَ أمراً فلا تزججك حادثة

ما كان مثلك في أمثالها يقر

والخيام يسخر في شك عذب فيقول : « أواه ! أصبحت أيدينا

صفرآ من المال ، وكم من أكباد أدمها الموت ! لم يعد من الآخرة
أحد كي أسأله عن حال من سافروا إليها من هذى الدار . أما دفنى
فيقول فى نصاعته الرقيقة : « أنا أفتح من بين قبور الناس أمعنها
فى القدم : فيتخذ للموت على صوتى صوتاً نبوياً » .

ويبلغ هذا التمرد الذروة عند بيرن حين يصيح : « تعساً لمن خلق
الحياة التى تقضى إلى الموت ! » ، وعند أبى العلاء حين يقول :

وهل تظفر الدنيا على بمنية

وما ساء فيها النفس أضغافُ ماسراً

وعند الخيام حين يقول : « إلهى ! حطمت كأس مداى ، وغلقت
باب النعيم من دونى ، وأهرقت على التراب خمرتى الوردية . تراب
فى فمى ، فهل أنت سكران مثلى ؟ » . أما دفنى فرقيق التمرد حتى
الأنوثة ، فسيحه على جبل الزيتون وفى أشد الحظات المحنة لا يستطيع
الكلام ، بل يقتصر على أن يزفر زفرة حارة هادئة هى أقرب ما تكون
إلى زفرة المحتضر . وصرخاته فى وجه الطبيعة ، وإن اشتدت أحياناً
فانها تنتهى دائماً بالتسليم الوديع : « ألا فلتحجى أيتها الطبيعة
ولتستمرى فى ذى الحياة ، سواء أكان ذلك تحت أقدامنا أم فوق
جباهنا ، مادام هذا قانونك . أحجى وازدرى الإنسان ، هذا العابر
البسيط الذى كان أخلق بالسيطرة عليك ، مادمت إلهه . إبنى

لأثر بالحب جلال الآلام الإنسانية على كل سلطانك بما فيه من رواء زائف وزخرف .

وتبعاً لهذه الفروق بين أنواع التمرد اختلف أسلوب التعبير لدى كل منهم . ففي أسلوب بيرن قوة في الأداء وزُهوف في الألوان وتنوع في الصور؛ لهذا كان من الناحية الفنية الخالصة أرفعهم شأنًا وأعلام منزلة . ويتلوه دفتى الذى امتاز بالركة الناعمة والحزن الساحى وللموسيقى الهادئة ، والألوان التى لا تملها العيون ولا تشعر عندها بالارهاق . أما الخيام فكان رشيقة حتى الرعونة ، بسيطاً حتى السذاجة أما أبو العلاء فله مكانة خاصة ، لأنه أصيب بحالة ميزته منهم فى هذه الناحية إلى حد كبير فقد انعدمت لديه المرئيات وبالتالي كان على شعره بالضرورة أن يخلو من الصور القائمة المحسوسة بالبصر ؛ وقويت عنده المسموعات حتى حاول أن يستمد منها الصور التى يستعين بها فى الأداء ، فأقبل على ألفاظ اللغة يحل مضمونها بطريقة صوتية كى يستخرج من قواينها الصوتية أسرار الوجود التى يتقراها الآخرون بعيونهم فى المرئيات . وهذا هو السر الوحيد فى عنايته الهائلة بالألفاظ ، واحتفاله بالالغة أشد الاحتفال : ففيتها قد وجد ما فقدته فى المبصرات ؛ وإن فى الصوت لما يغنى عن الضوء . ومن هنا امتازت صورته بالتجريد المنفضى إلى الجفاف مما جعل شعره يتسم بسمة تعليمية واضحة . ويخيل إلى أنه لو قدر

له أن يكون مبصراً لزول كيان النفوس بصور رائعة صريحة، لا تقل
في شيء من الفن عن صور بيرن ، إن لم تفقها بكثير ، لأن ماتناثر
في شعره من صور استخلصها من مدلول الألفاظ يبين عن مثل هذه
القدرة في جلاء ووضوح .

تلك ما بينهم من فروق. ولكنهم يتفقون جميعاً في الموضوعات
الرئيسية التي يتخذونها أهدافاً لهذا التمرد أو التشاؤم .

وأولها : سيادة الشر على الخير والألم على اللذة ، كما قال بيرن :
«عُدَّ ساعات سرورك ، وُعدَّ أيامك الخوالي من البلبال ، فأيا
ما كنت ، اعترف بأن ثمت ما هو أحسن منه - هو أن لا توجد»
فما الحياة ؟ إنها كما قال هو أيضاً : «نجمة معلقة على الحدود بين
عالمين ، بين الليل والفجر ، على حافة الأفق» ، كلها مليئة بالسرور
والأحزان والمصاب والآلام :

تعبٌ كلها الحياةُ فما أءُ جبُّ إلا من راغبٍ في ازدياد

لأن الحياة تتذبذب بين الشقاء والنعيم ، ولا يمكن أن تدوم
لها حال ، ولأن العذاب والألم إيجابيان ، أما السعادة واللذة فسلبيان
لأنهما ينتهيان دائماً بالملال :

إذا فرزنا فإن الأمان غابتنا

وإن أماننا فما نخلو من الفرع

وشيمةُ الإنسِ ممزوجٌ بها مَلَلٌ

فما ندوم على صبر ولا جزع

وثانیهما : أن الشر في أصل الوجود ، ولا سبيل مطلقا إلى

الخلاص منه ، فمن الحق أن نحاول إصلاح شيء فاسد بطبعه :

ونحن في عالمٍ صيغت أوئلُه

على الفساد نفى قولنا فسدوا

— فلا تأمل من الدنيا صلاحاً

فذاك هو الذي لا يُستطاعُ

والناس بطباعهم أشرار يسودهم النفاق والغدر والحقد والرغبة

في الأذى والظلم ؛ فالوجود شر والإنسان شر ما فيه ، فهو ذئب

لأخيه الإنسان ، كما يقول هوبز ، وكما قال بمثله تماماً من قبل

أبو العلاء :

يغدو على خله الإنسان يُظلمه

كالذئب يأكلُ عند الغيرةِ الذئباً

ولهذا يجب على الحكيم أن ينشد العزلة ، ويتجنب الناس .

وليس هذا منه بغضاً لهم ، بل اجتناباً لما هم فيه من فساد وضلال .

وهو ما عبر عنه بيرن فقال : « تجنب الناس ليس معناه بالضرورة

بغضهم ؛ إنما ليس في وسع كل إنسان أن يشاركهم في مضطربهم
 وأشغالهم ، وعن قريب منه أبو العلاء :

وفي وحدة المرء ستر له
 فكن مثل سيفك حائف الربد

فافي الوحدة وحشة :

لا تُوحشُ الوحدةُ أصحابها إنْ سهيلاً وحده فاردُ
 وثالثها : فقدان الحرية ؛ فان كل شيء مُسيّر ولا مجال
 للاختيار . فالقول بالجبر من لوازم هذا الموقف الروحي . وكيف
 يكون المرء حراً :

ما باختياري ميلادي ولا هرامي

ولا حياتي ؛ فهل لي بعدُ تخيير ؟

وهو معنى كثيراً ما رده الخيام . فقال من بين ما قال :
 « باضطرار آتى بي إلى هذا الوجود ، فلم أزد إلا حيرة في ذي
 الحياة » ، « ولو كنت مختاراً في المجيء لما جئت » . وهو النعمة
 السائدة في شعر دقبي والموضوع الوحيد في مجموعة أشعاره
 المسماة باسم « المصائر » .

ورابعها : سوء تقسيم الحظوظ ، وتحكم الصدفة والاتفاق

في مصائر الناس ، ثم حقيقة الموت الرهيبة ، ذلك الذي يسوى
بين الناس أجمعين :

والفقرُ أروحُ في الحياة من الغنى
والموتُ يحملُ خائلاً كمخول

والعقل الذي ظن به الإنسان خيراً فعده وسيلته المثلى ضد
خطيئة الوجود ، لا يعنى شيئاً ، فكما يقول الخيام : « أولئك
الذين همهم الجهد من طريق العقل ، هيهات ! إنهم يحبون ثوراً .
الأخلق بهم أن يكونوا بلهاء ، فان العقل لا يساوى عودة من
العشب » . فماذا علمنا بهذا العقل ؟ « ماذا تعلم ، اللهم إلا أنك
قد ولدت لتموت » ، كما يقول بيرن ، أو كما يقول المعري :

تفارق العيش لم نظفر بمعرفة
أى المعانى بأهل الأرض مقصود

وخامساً : أن الزمان قاض على كل شيء ، ولا حقيقى منه
غير الحاضر :

خُذَا الْآنَ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ وَجَلِيَا
غداً فهو لم يقدم ، وأمسٍ فقد مر
فلا داعى إذن للجزع من الماضى أو من المستقبل : « لا تذكر

يوماً مضى ولا تجزع من يوم لم يأت بعد ، ولا تذهب نفسك
حسرات على ما كان وما سيكون ، كما يقول الخيام . واهتف
مع دفتى قائلاً : « أَحِبَّ ما لن تراه مرتين ! »

تلك هي المعاني العامة التي حام من حولها هؤلاء الشعراء
المتشائمون . وهي ، وإن عبرت عن موقف روحي واضح اتخذوه
في نظرتهم إلى الوجود ، فإنها لا تكون مذهباً وجودياً محكم
الاجزاء دقيق التركيب ، يستمد أصوله من ينبوع الميتافيزيقي لهذا
الوجود . إنما هي معان امتلاً وإحساساً بها فأكدوها ، ولم يوهبوا
عقلاً فلسفياً ليبرهنوا عليها وينسقوها : رأوا سيول النور ، لكنهم
لم يروا الشمس ، وأدركوا المظاهر المتعددة ، لكنهم لم يضعوا أيدهم
على الحقيقة الواحدة والسر ، فبدأ لهم العالم خليطاً هائلاً من الاسرار
والالغاز التي تكاد أن لا ترتبط فيما بينها وبين بعض أدنى ارتباط .

أما الذي فهم كلمة السر وقبض بيمينه على مفتاح اللغز فهو
شوبنهاور . فهو وحده فيلسوف التشاؤم الذي اكتشف ينبوع الشر
في هذا الوجود ، وراح يفسر كل ما فيه من مظاهر تبعاً لهذا
الاصل ، فأقام بناء مذهب فلسفي كامل على أساس مادعاه إليه سر
الوجود من وقوف موقف تشاؤم . وإذا كانت المهمة الأولى
للفيلسوف أن يرجع المتعدد إلى الوحدة والمظاهر المتباينة إلى الحقيقة
الوحيدة فإن شوبنهاور هو وحده من بينهم الفيلسوف . أما هم

فشعراء ، وشعراء فحسب ، مهما تعمق الواحد منهم هذا المعنى أو ذاك أو فصل القول في هذه الناحية أو تلك الأخرى .

لكن يوجد بين تشاؤم شوينهور الفلسفى وتشاؤمهم الشعرى تشاؤم ثالث ، نستطيع أن نسميه باسم التشاؤم النفسانى ، وهو الذى يقوم على التحليل النفسانى الدقيق لمزاج المتشائم وحساسيته بالشر والألم أو الخير والسرور ، وما يثور فى نفسه من هواجس وخواطر ، وما يسود روحه من نعمة مسيطرة وانفعال مستمر . وللمثل الأعلى لهذا النوع ليو بردى ، هذا اللحن الحزين فى ناي القلق العذب . فهو بدون أدنى شك أبرع من حلل التشاؤم نفسانياً ، فاستطاع أن يفصل نسيج نفسية التشائم ، وأن يكشف فى دقة هائلة عن مدلول عواطفه وتأثيراته ، ومضمون انفعالاته ووجداناته ، والأوتار التى تهتز داخل روحه المشبوبة الخيال ، والنعيمات المختلفة التى ترددها تلك الأوتار . فهو يحلل أو هام الناس فى السعادة من حلموح وتفاؤل أهوج وخيلاء وحب . ويبلغ التحليل أوجه حينما يتحدث عن الملل ، فيقول: « إن الملل هو بمعنى من المعانى أجل العواطف الانسانية . لا أقول هذا لأنى أومن بما استخلصه كثير من الفلاسفة فى تحليلهم لهذه العاطفة من نتائج ؛ ولكن عدم إمكان الرضى عن أى شىء أرضى ، بل ولا عن الأرض كلها إن صح هذا التعبير ؛ وتأمل سعة المكان اللانهائية ، وعدد العوالم

الهائلة وضخامتها ورؤية كل شيء ضئيلاً كل الضآلة بإزاء سعة النفس الخاصة ؛ وتخييل عدد العوالم لا متناهيًا والكون لانهائياً ، ثم الشعور بأن النفس ونزوعها لازالاً أكبر من هذا الكون المتخيل ؛ واتهام الأشياء دائماً بالنقص والعدم والشعور بالموز والخلاء وبالتالي بالملال ، كل هذا يبدو لي أنه أعظم دليل على العظمة والنبيل في الطبيعة الانسانية . ويتناول أحوال الناس في طباعهم واجتماعهم فيفضح ما اشتملت عليه من خسة ونفاق وغرور وإدعاء ، لكنه لا يتحدث عن مخازي الانسان ومساويه حديث الناعمي لها النامح على ماهي فيه من بؤس وشقاء. فهو تشاؤم صادر عن إفراط في الحب . بينما تشاؤم شوبنهور والشعراء الذين تحدثنا عنهم يستوحى الكراهية للناس ويستلهم شيئاً من التشنى مما هم فيه. ولذا كان في لهجته حزن المشارك في الألم ، لا تمرد المحقق المنتقم . فهو أقرب ما يكون شهباً بسكال ، كما لاحظ لويجي تونلي بحق ، وأبعد ما يكون عن هؤلاء الأخلاقيين الذين يجدون لذة ومتعة في التلهي بذكر نقائص الانسان ، أو إشباعاً لعاطفة الانتقام في سردهم إياها في قسوة وبرود . فان شئنا أن نعد التمرد عنصراً جوهرياً في التشاؤم ، فمن الخير - كما ذهب اليه كثير من النقاد المحدثين - ألا نعد ليوبردي من بين المتشائمين الحقيقيين ، والا دخل في عدادهم بسكال وأمثال بسكال . وأيا ما كان الرأي في تشاؤمه

فاننا قد وجدنا لهذا التشاؤم سداً تربيع على قمته بيرن وتلاه أبو العلاء ثم الخيام ثم دفتى ، وفي نهاية درجاته ليوردي ، فعنده ينفصل التشاؤم عن المالنخوليا .

ففي أية درجة نضع شوبنهور ؟ من غير شك إلى جوار بيرن فانهما يكونان الصورتين العليين للتشاؤم: الصورة الشعرية والصورة الفلسفية ؛ وكلاهما إذاً مظهر لشيء واحد هو الوجود كخطيئة . ونحن قلنا إن شوبنهور هو وحده الذي اكتشف مصدر هذه الخطيئة ، فما هو إذاً هذا المصدر ؟ هو الإرادة . لما انبثقت الإرادة من عمائق اللاشعور كي تستيقظ على الحياة وجدت نفسها ، كفرد في عالم لانهاية له ولا حدود ، وسط حشد هائل من الأفراد المجهدين المتألمين الضالين ؛ ولما كانت منساقة خلال حلم رهيب ، فانها تهرع كي تدخل من جديد في لاشعورها الأصيل . - وحتى تصل إلى هذه الغاية كانت رغباتها غير متناهية ودماواها لا تنقضي ، وكل إشباع لشهوة يولد شهوة جديدة . ولا مرضاة أرضية قادرة على تهدئة جموحها ونوازعها ، أو القضاء نهائياً على مقتضياتها ، أو تملئة هاوية قلبها السحيقة . فالإنسان يسعى جهده طوال محياه ، محتملاً أشد صنوف العذاب والآلام ، محفوفاً بالمتاعب والعراقل ، باذلاً كل ما في وسعه من طاقة - وكل ما يحصله بعد هذا العناء كله هو أن يحافظ على هذا الحياة (١٨٢ - شوبنهور)

البائسة التافهة ، بينما الموت مائل نصب عينيه في كل فعل وفي كل آن . ألا يؤذن هذا كله بأن السعادة الدنيوية وهم يجب الاعتراف به ، وبأن الحياة بطبعها شر ، وبأن جوهر هذا الوجود الشقاء ؟ أجل ، فإن السعادة النسبية التي قد يخيل إلى البعض أنهم يشعرون بها إن هي إلا أخرى إلا وهم ، فما هي إلا إمكانية المعلقة التي تضعها الحياة أمامنا على سبيل الإغراء بالبقاء في هذا الشقاء ، وهي السراب الكاذب الذي يحثنا على الحرص عليها ويحدونا إلى التعلق بما فيها . إنها تعبت بنا عبثاً منكر أمر وعبثاً : تعد ولا ترعى العهود ، وتغري لكي تشعر بخيبة الأمل : وتلوح بالسعادة ، حياشة لنا إلى مهاوى الشقاء . فلا نبلغ المأمول ، حتى يتولد حنين إلى المجهول ، وملال من الموصول ، واندفاع نحو التغيير والتبديل ، وإذا بكل آن حاضر في زوال « كأنه السحابة الصغيرة القائمة تزجها الرياح فوق السهل المشمس : وراءها وأمامها كل شيء يضيء . أما هي فوحدها تلتقي الظل باستمرار ، ولهذا كان ناقصاً على الدوام ، بينما المستقبل غير مشهود ، والماضي ليس بمردود » . أليست الحياة خليقة إذاً بالانصراف عنها وعدم الإقبال عليها ؟ أجل ، فاذل هذا الوهم على شيء فهو أن فيه إيداناً لنا بعدم النزوع ، ودفعاً لنا نحو الخلاص من الحياة ، بأن نमित فينا كل رغبة ونقضى لدينا على كل طموح ونضع حداً نهائياً لكل سعى وكل مجهود . هل في ذلك شك لدى عقل ؟ كلا ، فما الحياة إلا عمل لا يغطي نفقاته .

وإن كنت في شك من أمرها فهل تتأمل أولاً الزمان . أليس الزمان هو الذي ينشب أظفار الفناء في كل موجود ؟ ألا يحيل كل سرور وكل سعادة إلى عدم وفقدان ؟ « إن الزمان هو الصورة التي تعطى لهذا العدم المائل في الأشياء مظهر البقاء الزائل ، وهو الذي يقضى على ما بين أيدينا من مسرة واغترباط ، بينما نحن نتساءل مذهولين مُبْتَلِسِينَ: إلى أين ذهبنا؟ ألا إن هذا العدم نفسه هو العنصر الموضوعي الوحيد في الزمان ، أعني ما يقابله في الجوهر الباطن للأشياء ، وهو بهذا الجوهر الذي يعبر هو عنه » . . وما أشبه الحياة ، كما يقول ، بمبلغ يدفع درهما درهما نقوداً صغيرة ولا بد من تقديم إيصال عنه : أما النقود فهي أيا من التي نقضتها في الحياة ؛ أما الإيصال فانه للموت . وللموت ، هذا الذي لا يمكن أن يفر منه كائن ، علام يدل ؟ على « أن إرادة الحياة نزوع قصد به تحطيم نفسه » . فهو البيان الذي تقدم فيه الحياة عند النهاية حساباً عنها يصرخ في وجه من أمضاها بأنها لم تكن غير حق وضلال .

ولننظر ثانياً في طبيعة هذه اللذة المزعومة وهذه السعادة التي يتحدثون عنها . فإذا نرى ؟ « نحن نحس بالألم ، لا بالخلو من الألم ، وبالهم ، لا بالصفورة من الهم ، وبالجزع ، لا بالأمن ، ونحن نشعر بالرغبة ، كما نشعر بالجوع والعطش ، لكن ما تلبث الرغبة أن تشبع إلا ونصير مثل تلك القطع من الحلوى التي تتذوق طعمها في

الغم ثم لا يكون لها وجود بالنسبة إلى الإحساس حينما تبتلع ؛
ونحن نعاني في أشد الألم الخلو من الملاذ والمسرات ، فنأسف عليها
في الحال ، أما زوال الألم فعلى العكس من ذلك لا نحس به مباشرة
حتى لو لم يغادرنا إلا بعد مدة طويلة ، وكل ما نقدر عليه هو أن
نفكر فيه لأننا نريد التفكير فيه عن طريق التأمل . فالألم
والحرمان هما وحدهما إذن اللذان يمكنهما أن يحدثا تأثيراً إيجابياً
وبالتالي يكشفنا عن ذاتيهما بأنفسهما . أما التمتع فعلى العكس من
ذلك سلبي خالص ، ولهذا لا نستطيع أن نقدر الخيرات العظمى
الثلاثة التي نحظى بها في الحياة وهي الصحة والشباب والحرية
طالما كنا مالكين لها ولكي ندرك قيمتها ، لا بد لنا من فقدتها
أولاً ، لأنها هي الأخرى سلبية . فكل ألم إذاً إيجابي نشعر
بوجوده حاضراً بقوة فينا ؛ بينما اللذة سلبية صرفة لأنها خلو من
الألم فحسب ، أي عدم مطاق ، ولهذا نحس بلذع ألم واحد أقوى
بكثير مما نحس بامتاع آلاف اللذات ، وهو ما عبر عنه بتركة
فقال : « ألف متعة لا يعادل عذاباً واحداً » . كما أننا نشعر بساعات
السرور تَمْضى بسرعة أكبر من ساعات الألم ، لأن العنصر الإيجابي
واضح في هذه الأخيرة فنشعر بها بقوة تجعلنا نحس بها طويلاً ،
وشعورنا بالزمان أقوى ما يكون في حالة الجزع أو اللال ؛ بينما
لا تكاد نشعر بمضى الزمان إبان اللهو والسرور . « وهاتان

الحقيقتان تدلان على أن الجزء الأسعد في وجودنا هو الذي يكون فيه إحساسنا بالوجود قليلا ، وهذا يدل على أن الأفضل عندنا ألا نكون موجودين . ثم إن المتعة الكبيرة لا تأتي إلا بعد ألم شديد ، ولذا نرى الشعراء في مسرحياتهم يضعون أبطالهم في مواقف خطيرة أليمة كي يخلصوهم منها فيما بعد ، فيكون السرور أقوى وأتم ولو أجرينا الموازنة بين ما يصيب الإنسان في الحياة من لذة وما يحظى به من متعة ، لكنت كفة المتعة من غير شك هي الشائلة وكفة الألم هي الجانحة وبكثير . وقبل هذا ، يكفي أن يوجد عذاب واحد لكي يقضى على آلاف اللذات ، ولن تستطيع اللذات كائناً ما كان عددها أن تمحو ألماً واحداً .

وكل لذة تتذبذب بين حالتين : حالة الألم قبل أن تدرك ، وحالة الملل بعد أن تشبع ، وكلتا الحالتين عذاب . ففي الملل يشعر الإنسان بالخلاء ، وعدم الاكتراث ، والضجر . ونضال الملل أشق من نضال الألم ، لأنه مجهول للموضوع فلا يعرف الإنسان كيف يصدده ، ولأنه مشير للتراخي وعدم الإقبال على شيء . فلا يقوى الإنسان على الخلاص منه ، وإن تخلص منه فما ذلك إلا باثارة رغبات جديدة تولد بدورها ألم الحرمان . فنحن ندور إذن في عجلة الألم باستمرار فطبيعي إذن أن نرى الألم مائلا في كل موجود ، وأن نتبين الشر في أصل الحياة ، فكل كائن ناقص خداع ، وكل لذة ممزوجة

بألم ، وكل سلوى مصدر: لأوصاب جديدة ، وأقدامنا تظأ في كل حين أرضاً مبتلة بالدموع المرة ، والدنيا كلها شرور ، والينبوع لهذه الشرور هو الإنسان ، كما عبر عن ذلك أيضاً أبو العلاء فقال :

قد فاضت الدنيا بأذناسها على برآياها وأجناسها
وكلُّ حَيٍّ فوقها ظالمٌ وما بها أظلمٍ من ناسها

فإنك لن تجد فيهم غير الظلم الفادح والقسوة الباهظة والرغبة في الإيذاء، — هذا في سلوك بعضهم بإزاء بعض . ويكفي أن تدخل مصنعاً من المصانع أو محل أعمال أيا كان لتشهد ظلم الإنسان لأخيه الإنسان . والأخبار الطيبون نادر ما هم ! وما أشبههم بالسجناء التبلأ وسط المجرمين العاديين في سجن كأنه الجحيم ! أجل ، قد يكون بعض الناس أقدر على شغل هذا المنصب وأداء هذا العمل أو ذاك ، ولكنهم مشتركون جميعاً في أنهم يسعون إلى غاية واحدة هي الشقاء للجميع ، ويسلكون سبيلاً واحدة ، هي الإيذاء للجميع : مهما اختلفت الدرجة ، ابتداء من هذا القائد القاسى الذى يكذب ملايين الكتل البشرية ويصيح في وجوههم : « احتمال الآلام وللموت ، ذلك مصيرنا ، والآن ، هيا أطلقوا أشد النيران من كل بنادقكم ومدافعكم بعضكم على بعض ، » ويطيع الكل هذا الأمر — حتى ذلك الراهب الذى يحول بين أخيه

وبين تناول القربان ! والإنسان « هو الحيوان الوحيد الذي يحدث للآخرين آلاماً ، لا لغاية منها إلا هذا الايلام بعينه » . وهل يفوق جحيم ذاته في شيء هذا العالم الذي نعيش فيه ؟ كلا ! وألف مرة كلا ! لو نظرت إليه من الناحية الجمالية لوجدته متحفاً للصور الهزلية ، ولو تأملت من الناحية العقلية ، لشهدته بيار ستاناً ، ولو فكرت فيه من الناحية الأخلاقية ، لأبصرته ملجأً لقطاع الطريق والداعرين والمحتالين . والغريب من أمر هذا العالم أن الناس فيه شياطين وصرعى شياطين في نفس الآن . فكان المستشفى وسكان السجن كلاهما من بنى الانسان .

وليت هناك أملا في صلاح الإنسان ! وكيف يرحى لهم صلاح والشر في طبيعهم مغروز ؟ لو كان طارضاً لأملنا الخلاص على مدى الزمان ، لكنه أصيل ، فكيف نؤمل في التقدم ؟ وهل هناك دليل على فساد الانسان من أنه طالما حارب هداته وأنكر للمصلحين والراغبين في تقويم سقطاته ؟ فكما قال المعري :

فلا تأمل من الدنيا صلاحاً فذاك هو الذي لا يُستطاع

لا أمل إذن في مستقبل الأجيال : « فاخلف سيكون دائماً وبالدرجة عينها في الدناءة والحق مثل السلف ومثل المعاصرين في كل زمان » . وستظل الانسانية دائماً على ما هي عليه من لؤم وفساد ، اللهم إلا نقرأ نادراً جداً ، هم كبار المفكرين والعباقرة

وقد رأينا ما فى حياة هؤلاء من عذاب وشقاء . وتفصيل هذا أن الانسان من الناحية الأخلاقية لا يمكن أن يتناوله التغيير ؛ وكل ما يتبدل هو الأسماء والعادات والآيين والظروف ، أما الجوهر الفاسد بطبعه ، فباق دواما على حاله . وليس فى التاريخ اتجاه نحو غاية ، كما ادعى هيجل وأمثاله من « مدرسى الفلسفة » ، حين قال إن الانسان فى نوعه يعمل دائما على نفسه مبدعا لصور أعلى وتحقيقات فى الوجود أتم . وإنما التاريخ عند شوبنهر هو التعقيدات الزائلة لعالم الناس المتحرك كالسحاب وسط الرياح أو هو القاص الذى يحكى حلم الانسانية الطويل الثقيل المضطرب المعقد .

انعام كله شر إذا ، فما العلة فى هذا الشر ؟ ولم لم يكن العدم بدلا من هذا الوجود ؟ والجواب على هذا فى إرادة الحياة . فهى عمياء ، فلا تعرف الغاية ، وهى الشئ فى ذاته ، فلا تخضع للعلية ، وبالتالي لا يسأل عن العلة فى وجودها . ولو كانت عاقلة لأدركت منذ البدء أن العمل لا يغطى نفقاته وأن الأولى بها منذ البدء أن لا تكون قد تحققت ، على صورة هذا الوجود . لأن نوازعها القوية وما تبذله من جهود شاقة وتوتر فى كل قواها ، وما يصاحب هذا من آلام وعذاب ، وأوصاب وما لا بد أن تنتهى إليه كل حياة دردية من هلاك ، كل هذا لا يمكن أن يجد جزاءه فى تلك الأيام القليلة البائسة التى يقضيها كل فرد على ظهر

الأرض . عفا الله عنك يا أنكساغورس ، حين حاولت أن ترجع هذا الوجود إلى علة عاقلة مدبرة ؛ فقد كنت واهماً مغرقاً في السذاجة ، أنت ومن يزعمون أن الحياة هبة ونعمة . كلا ليست الحياة هبة ، أيها الضالون المضللون ؛ بل كل ما فيها يؤذن بأنها دين ، دين ثقيل نسدهه أقساطاً على صورة حاجات ملحة أوجدتها هذه الحياة نفسها ورغبات مثيرة لعذاب لا ينتهى وشقاء لا يريم . وعمرنا كله يمضى في تسديد هذا الدين ؛ ومع هذا تبلى الحياة ، ولا نكون قد استهلكنا منه غير فوائده ؛ وللموت وحده هو الذى يسهلك به رأس المال . فمتى اقترضنا هذا الدين ؟ اقترضناه فى الميلاد .

فوجودنا فى هذه الحياة خطيئة ؛ وخطيئة أخرى أن نحسب أننا قد وجدنا لنكون فى هذه الدنيا سعداء . وكلتا الخطيئتين صادرة عن ينبوع واحد هو إرادة الحياة ، تلك التى تريد أن تؤكد نفسها . والآن هل من سبيل إلى الخلاص ؟

سؤال رهيب لم يكن فى وسع كل من هؤلاء للتشائميين إلا أن يضعه لنفسه فى تلهف مغيظ ويأس مضطرب وحيرة رجراجة . ولو كان منطقياً مع موقفه ونفسه لما وضعه ، لأن فى مجرد وضعه أو التفكير فيه خيانة لمذهبه ما بعدها خيانة . فكيف يقول عن الوجود إنه شر بطبعه ، شر لا بد منه لأنه فرض عليه ولم يكن فى الواقع حراً فى ولوجه - وهل ميلاده باختياره ؟ - ثم يتحدث

بعد ذلك عن الخلاص أو إمكان الخلاص ؟ لهذا نجدهم بعد ذلك مضطرين إلى إحداث ثغرة في مذهبهم من أجل أن يسمحوا لأنفسهم بأن تضع هذا السؤال وأن تجيب من بعد عليه . واللبيب منهم سرعان ما يدرك ماسيقع فيه من تناقض ؛ فيحاول قدر الإمكان أن يهون من شأن وسيلة الخلاص ، بأن يثير الشكوك في قيمتها من أجل تحقيق تلك الغاية حتى يصل إلى إنكارها هي الأخرى في نهاية الأمر .

والتناقض الذي يقع الواحد منهم فيه يرجع غالباً ، إن لم يكن دائماً ، إلى اضطراره من بعد إلى القول بشيء من الحرية والاختيار لدى الإنسان . فهذا أبو العلاء الذي أكد الجبر بشدة على النحو الذي رأيناه يعود فيقول :

لاذنبَ للدنيا فكيف نَلُومُها
واللومَ يَلْحَقُني وأهلَ نحاسي
عنبٌ ونخرٌ في الإناء وشاربٌ
فمنَ الملومُ : أعاصيرُ أم حاسي ؟

ولهذا نراه ينشد الخلاص في النسك والزهد بإماتة الشهوات والقضاء على اللذات وما صدرت عنه من حاجات ؛ ثم في القضاء على النسل . وهو لا يستطيع أن يقوم بهذا كله إلا باعتبار ، فعلاً مضاداً لطبيعة الوجود وإرادة الحياة ، أي يؤكد ذاته بإزاء هذه الإرادة ؛ وبالتالي يفترض في نفسه الحرية ، ويقول بالمسئولية . وفي

هذا فناقض واضح شاركه فيه شوبنهاور ، وفي هذه للسألة بالذات ،
أعنى حرية الإرادة . فقد اضطر إلى القول بها ، بل وإلى توكيدها
لدرجة أن قال إن حرية الإرادة « هي الشرط الأول لكل أخلاق
فكر فيها صاحبها بجد » . وكان ذلك لشعوره بالمسئولية وما يتلوها
من المحاسبة ، ثم إيمانه بفكرة الخطيئة والثواب أو الجريمة والجزاء
فيقول إن الواحد منا يوقن في نفسه بأنه هو مصدر أفعاله وأنه
فاعل لما يصدر عنه ؛ وحينما يرى من الآخرين سلوكا منافيا للأخلاق
سرعان ما ينسب هذا السلوك إلى فاعله . وما دمنا نشعر بأننا الأصل
في أفعالنا ، فمعنى هذا أيضاً أننا نشعر كذلك بإمكان السلوك على
نحو آخر ؛ أي نشعر بأننا كنا أحراراً في إحداث الأفعال الصادرة
عنا . فكأن الإرادة الإنسانية إذن حرة ، بل وحررة دائماً وقائمة
بذاتها .

ولكن هذه الحرية يجب أن لا تفهم بمعنى حقيقي ، أي بمعنى
أنها حرية الإنسان في أن يقول نعم ولا ، حسبما شاء . لأننا قدرأينا
في الفصل الأول أن كل شيء خاضع في عالم الامتثال لمبدأ العلية ؛
فكل فعل يصدر منا هو حلقة ضرورية في عالم الظواهر . لكن
ماذا بقي حينئذ من معنى الحرية الحقيقي ؟ هنا ويميز شوبنهاور بين
ناحيتين للحرية : الناحية التجريبية ، والناحية المعقولة . فالإنسان
في أعماله من الناحية التجريبية غير حر ، بمعنى أن لكل إنسان

خلقاً معيناً يصدر كل فعل منه على غراره وتبعاً لطبيعته بالدقة :
« فكل فعل للانسان هو النتيجة الضرورية لخلقه والباعث على
هذا الفعل ؛ فإذا علمنا علم الفعل بالضرورة » . وإن من الحق أن
يؤمن الانسان بمبدأ العلية في نظرية المعرفة ، ثم يقول في الأخلاق
إن الانسان حر في عالم الظواهر . ولكن هو هو حر في عالم غير
هذا العالم ؟ أجل ، إنه حر في عالم الشيء في ذاته . وقد رأينا ذلك
من قبل عند الحديث عن الحرية في الفن ؛ فقلنا إن العبقري يشعر
بأنه حر في عالم الصور ، لأنه بمعزل عن سيطرة قانون العلية كذلك
الحال تماماً في عالم الإرادة باعتبارها الشيء في ذاته : ففي أعماق
الإرادة الكلية توجد الحرية . وهكذا نرى أن الحرية الإنسانية
التي قال بها في أول الأمر ليست هي الحرية بالمعنى المفهوم لدينا ،
بل الأحرى أن يقال إن الحرية عنده سر استتر في ظلمات الإرادة
الكلية ، محتجياً عن الإرادة الإنسانية ، وهي بالتالي ليست بأى
معنى من المعاني حرية .

وكان خليقاً به أن ينكر الحرية بصراحة . بدلا من هذا الالتواء
الذي لم يكن شيئاً . إذن لما تورط في هذا التناقض الذي كفر عنه في
تهاية الأمر أشد الكفارة . لهذا يعجبني موقف الخيام « الذي
لم يضع هذا السؤال إلا في تهكم وابتسام ، فقال : « لو أنني سيطرت
على هذا الفلك سيطرة خالق ، إذاً لقصيت عليه وخلقيت بديلاً منه ،

فيه يبلغ الإنسان مرامه بغير عناء . فقد وضع السؤال في صيغة الشك ؛ ولم يقل بإمكان الجواب ، بل آثر دائماً أن يصرف النظر عن كل خلاص بالمعنى الحقيقي ، لأن الخلاص الذي نشده في كأس الخمر ليس من الخلاص في شيء ، بل هو تخلص اليأس غير للكثرة . أما بيرن فقد توسط بين الطرفين ، فنشد الخلاص عن طريق الحب ، لعل فيه ما يعطى للحياة قيمة أو شبه قيمة . لكنه سرعان ما أدرك وهمه ؛ فإن الحب الذي يمكن أن يكون فيه الخلاص غير ممكن التحقيق على الأرض : « أيها الحب ! لست من سكان هذه الأرض ؛ أنت مَلَكٌ تخفي تؤمن به ؛ أنت دين شهادته القلوب المحطمة ؛ ولكن العين المجردة لم ترك ولن تراك كما يجب أن تكون . إن روح الإنسان هي التي أبدعتك ، كما أبدعت عليين ، بواسطة أحلام تخيلاتهما وإلهوائهما . أما الحب الذي نعانيه على الأرض فإنه حب يكتنفه الألم والعذاب من كل جانب ، وتزفر عليه أجنحة القلق الدائب ، والأمل الخائب . « فهما بدا لنا جيلاً شاباً كله فتنة وكله إغراء ، فإنه من أعماق ينابيع السرور العذبة تنبثق حرارة تفيض بحُبِّها السام على كؤوس الأزهار . فالمرأة طبعها الخيانة ، والرجل لا يستقر على حال . فأين يجد الشاعر إذن ملاذ من هذا القلق والبلبال ؟ ليجده في الطبيعة ، ففيها ، أي في تأملها بعين الفن المجردة من كل إرادة ورغبة ، ما يشيع في نفسه الخائفة أمناً وسكوناً ، وفي روحه

القلقة طمأنينة وسلاوى ؛ حيث لا يلتقى إنساً ولا يضطرب فيما يضطرب فيه الناس : فكلمها ازدادت فقراً ، كانت أجمل وأقدر على التنفيس عن روحه المكروبة : « في الغابات الطاهرة (التي لم يدنسها الإنسان) إغراء ، وعلى الشاطئ المهجور سحر وفتنة ، وعند البحر العميق جماعة لم يمكروصفوها فدم ثقيل ، وفي هدير أمواجه موسيقى عذبة . هنا يشعر بالطبيعة جزءاً منه ، فيحيا في اللانهائي مرعياً سمعه إلى الموسيقى الكلية التي تتجاوب بها أفلاك الوجود ؛ ومذاجحه التي يقدم عليها القربان هي الجبال والنجوم . لقد أصبح هو الكل وتحلل من الفردانية ، فلينعم إذاً بهذه النظرة للمظة على النظام والجمال والانسجام . فخلاصه إذن بالفن .

ولكن شوبنهور لم يكن فناً حتى يجد الخلاص فيه ، بل كان هنا فيلسوفاً أخلاقياً ؛ فأحال حب الطبيعة عند بيرن إلى حب للإنسانية . فكلاهما إذن قال بالحب الكلى : لكن بيرن قال بالحب الجمالى ، ولا عجب فهو فنان ؛ أما شوبنهور فقد قال بالحب الأخلاقى . في هذا الحب يرتفع الإنسان فوق مبدأ الفردانية ، فيشعر بأن الوجود بأسره كل واحد : فما أنت غيرى ، وما أنا إلا أنت ؛ لأن الفردانية زائلة عابرة ما دامت ظواهر للارادة الكلية الواحدة فحسب ؛ أما هي فتأبته واحدة وهي التي تكوّن جوهرك وجوهري وجوهري كل الناس بل وكل موجود . فإذا أدرك الإنسان

هذه الحقيقة ، وهي أن الناس والكائنات جميعاً شيء واحد ، هتك نقاب المايا ، وعرف أن إرادة الحياة لديه هي تلك بعينها التي لدى كل مخلوق في الوجود . فالحب إذاً هو الشعور بوحدة الوجود ، وفي هذا الشعور تتحلل من كل ألم ؛ لأن مصدر القلق والخبث في الإنسان شعوره بأن ذاته للفردة هي التي تتألم وتتعذب . ويحس الإنسان في أعماقه بأن ظواهر الوجود تبسم كلها له ، فيحيا في نعيم مقيم هو وإياها ؛ وبأن سعادة الواحد هي سعادة الآخر ، فيكون الجميع في مشاركة وجدانية عامة . ومن هذا الشعور بالإيثار والوحدة ينبع الخير ، وبه تقوم الفضيلة .

أما الشرف والشعور بالذاتية وتوكيد مبدأ الفردانية، والخضوع لوهم نقاب المايا ، حيث يحس الإنسان بأن بينه وبين الآخرين هوة لا يمكن عبورها ، وبأن ذاته في مقابل غيرها من الذوات التي يظهرها عالم الظواهر متعددة ، وهو يجد في هذا الإحساس لذة ما بعدها لذة ، لأنه طبيعي يجد فيه توكيداً لذاته واتساعاً لنفوسه وتحقيقاً أكبر لنوازعه وشهواته . والعالم يبدو أول الأمر للعقل خليطاً هائلاً من الأفراد المتباينين في الجوهر ، لأنه لا يزال خاضعاً لنقاب المايا ، فبدلاً من أن يرى الشيء في ذاته ، لا يرى غير الظاهرة المتحققة في الزمان والمكان الخاضعة لمبدأ الفردانية ولشكول مبدأ العلة الكافية ، وبدلاً من أن يدرك أن جوهر الظواهر كلها واحد،

لا يدرك غير ظواهر متباينة مختلفة متعددة بل ومتعارضة . وحينئذ يرى أن اللذة تختلف اختلافاً بيناً عن الألم : فيرى في هذا الإنسان جلاداً وفي ذاك الآخر شهيداً ، ويرى في الناس السعيد والشقي . فيتساءل حينئذ : أين العدالة إذن ؟ ولا يجد جواباً لنفسه إلا في الإقبال على اللذات والاقتصار على الشهوات والخضوع لشيطان الإرادة . وبدلاً من أن يرى أن اللذة والألم جانبان لشيء واحد ، يبدو أن متعارضين ، فلا يرى الخلاص من الألم إلا في تعذيب الآخرين ، ومثله مثل الملاح الذي يظل هادئاً وسط بحر هائج صخّاب - يشعر بالثقة في مبدأ الفردانية أى في الطريقة التي يدرك بها العقل الأشياء كظواهر . « والعالم الهائل المليء بالآلام في الماضي السحيق وللمستقبل اللانهائي يبدو كشيء مجهول لديه أو كخرافة ، أما شخصه الذي لا يكاد يرى ، وحاضره الذي ليس إلا نقطة ، وسعادته الزائلة الموقته ، هذا هو الحقيقي وحده ، فلا يدخر وسعاً في الاحتفاظ بشخصه طالما لم تأت معرفة أدق لتزيل الغشاوة التي رانت على عينيه » . ومع هذا فإنه يشعر في بعض اللحظات أن هناك في أعماقه شيئاً يحدثه بأن من الممكن أن يكون كل ما حوله غريباً عن شخصه ، خصوصاً في كل حالة يرى فيها انحرافاً عن مبدأ العلة كما هي الحال حين يبدو له أن حادثاً قد حدث من غير علة أو أن شخصاً مات قد عاد إلى الحياة ، فيهتز كيانه لشعوره بأن تفسيره

للظواهر حتى الآن لم يكن صحيحاً ، هذا التفسير الذي كان يصورها مستقلة بعضها عن بعض . حتى إذا ما تابع التفكير وتعمق النظر ، تبين له أن كل هذه الظواهر ترد إلى علة واحدة . حينئذ يشعر بأن كل ما في العالم من آلام هي أيضاً آلامه ، ويحس بأن صوتاً قوياً ينادى من أعماق الوجود بأن كل شيء مصدره إرادة واحدة وأن كل مظهر من مظاهرها إن أصيب بشيء فقد أصيبت بقية المظاهر .

« وهذا الصوت الباطن يقول له أيضاً إنه هو بكل فساده هذا الإرادة نفسها بأسرها ، وأنه ليس فقط جلاداً ، بل وأيضاً معذباً ، وأن حُلاً خادعاً ، على شكل الزمان والمكان ، هو الذي فرق بينه وبينهم وحرره وحده من آلام ضحاياه ، ولن يختفي الحلم حتى يرى أنه اشترى اللذة بثمن ألم ، وأن كل أنواع العذاب ، حتى تلك التي لا تبدو لعقله إلا باعتبارها ممكنة الوقوع ، تصيبه هو أيضاً باعتباره إرادة حياة . »

و حين يدرك الحقيقة كلها ، يرى أن مبدأ العلية يجب أن لا يأسره ، وأن كل تألم عند الآخرين يصيبه وكأنه ألمه هو ، فيحاول أن يوجد توازناً بينه وبينهم ، بأن يزهد في ملذاته ويفرض على نفسه الحرمان ، « ويعترف بأن الاختلاف بين الآخرين وبينه ، هذا الاختلاف الذي يبدو للشريك أنه هوة سحيقة ، ليس إلا وهماً خادعاً ، ويتبين مباشرة ، وبدون أدنى برهان ، أن حقيقة ظاهرتة ، أعنى إرادة الحياة التي هي جوهر كل شيء ومبدأ الحياة (١٩٢ - شوبنهاور)

فيه ، هي بعينها التي عند الآخرين ، وأن هذه الوحدة في الجوهر تمتد إلى كل الحيوان وإلى الطبيعة بأسرها . وهكذا يتحد في الشعور مع الوجود كله : فيحزن لكل أحزانه ، وكل ألم يعنيه ، ويشعر بالآمال الكاذبة والمشاقّة مع ذاته والألم على الدوام: وفي أية جهة أجال نظره ، وجد الإنسان يتألم ، والحيوان يتألم ، والعالم يفنى . وكل هذا يمسه عن قرب ، كما تمس الآلام الشخصية نفس الأناني . فكيف يتأتى له إذن ، وقد أدرك طبيعة هذا العالم بوضوح ، أن يستمر في توكيد مثل هذا الوجود بواسطة مظاهر دأمة للإزادة ، وأن يتعلق بالحياة ويمسك بمُخَنِّقَتِها بقوة متزايدة باستمرار ؟ ... إن من يدرك ماهية الوجود بأسرها يصبح « خالياً » من كل إرادة ومشية . ومن هذه اللحظة تُشجِّح الإرادة بوجهها عن الوجود الذي أثارته ملذاته الجزعَ توكيداً للحياة . فيصل الإنسان حينئذ إلى حالة الزهد الإرادى والتسليم والطمأنينة الكاملة والخلاص المطلق من كل إرادة ! ، أي يبلغ مرتبة الزهد والتقداسة .

وفي هذه المرتبة العليا للحياة الإنسانية ينكر الإنسان ذاته ، بدلا من أن يقتصر على حب الآخرين وذاته من بينهم ؛ فيرى في إرادة الحياة ممثلة في شخصه خصاله لدوداً يجب القضاء عليه بكل قواه ، ويعزف عن الطبيعة كلها ، فلا يتعلق بأي مظهر من مظاهرها ، لأن فيه تعبيراً عن إرادة الحياة ، عدوه الأكبر ، ويميت

في نفسه كل غريزة جنسية ، لأن فيها استمراراً لإرادة الحياة . ولذا كانت الطهارة الجنسية المطلقة أول درجة في معراج السالكين سبيل إنكار إرادة الحياة . فإذا وصل بعد هذه المجاهدة الشاقة لبدنه ولطبيعته إلى الإنكار المطلق والزهد الخالص في الوجود ، استحال إلى عقل خالص و امرأة صافية باستمرار يتجلى فيها هذا العالم : فلا يهتز لشيء ولا يجزع من أى حادث ، بل يتأمل في نصاعة وهدوء باسم كل هذه الخيالات الدنيوية التي تراءى الآن أوهاماً أمام عينيه وكانت من قبل تثيره وتهز كيانه ؛ وتبدوله الحياة بأسرها كما تحلق أحلام الصباح الخفيفة أمام ناظري الناعس نصف نعاس ، حتى إذا ما استيقظ يقظة كاملة تبددت كما تتبدد الظلال أمام ضوء الشمس . وإذا بالوجود بأسره يخلق في ضباب العدم الكثيف ؛ لأن هذا الوجود هو العدم .

فهلم أيها الإنسان حقق هذا الخلاص ؛ فأنت وحدك القادر عليه ، وكل كائن ينتظره على يديك ؛ وها هو ذا الوجود يتضرع متلهفاً إليك ، راجياً منك أن تنزل وإياه إلى هاوية العدم .

أرتور شوبنهاور

Arthur Schopenhauer

لوحة حياته

١٧٨٨ : ولد أرتور شوبنهاور في ٢٢ فبراير سنة ١٧٨٨ بمدينة دانتسج ، من والد كبير الثراء ، كان صاحب مصرف في هذه المدينة ، يمتاز بمتانة الطبع ووفرة النشاط ، مع ميل إلى الترف ؛ ووالدته هي حنة شوبنهاور ، ابنة للمستشار تروزينر Trosiener . ، وقد عُرِفَتْ كاتبة مشهورة ، ألقت قصصاً وأوصاف رحلات ، وكانت ذكية غزيرة المادة ، حسنة التصرف في الحديث .

١٧٨٨ - ١٧٩٣ : أمضى الطفل أرتور خمس سنوات في مسقط رأسه دانتسج .

١٧٩٣ - ١٨٠٣ : بعد أن فقدت دانتسج حرّيتها في سنة ١٧٩٣ ، لم تشأ الأسرة البقاء في المدينة فغادرتّها إلى هَمْبُرْج .

وفي سنة ١٧٩٧ انتقل به والده إلى مدينة الهافر ، طوال سنتين عند أحد أصدقائه التجار بالمدينة .

ثم عاد إلى همبرج سنة ١٧٩٩ ، وبقى بها حتى
سنة ١٨٠٣ .

١٨٠٣ - ١٨٠٤ : قام برحلة أخرى إلى سويسرة وفرنسا وبلجيكا
وانجلترا ، حيث بقي في لندن ستة أشهر ، عرف فيها
من طباع الإنجليز ما بغضهم إليه .

١٨٠٤ - ١٨٠٩ : بعد أن عاد إلى همبرج وضعه أبوه في عمل تجارى
يملكه ينش Jonisch ؛ ولكنه لم يظهر أى ميل
إلى الأعمال التجارية ، بل صرف كل همه إلى الدراسة
النظرية . وفي أبريل سنة ١٨٩٥ توفى والده ، وقيل
إنه اتحر خوفاً من أن يسىء الحظ إليه ؛ ولكن هذا
القول لم تثبت صحته بعد .

وبعد وفاته غادرت الأسرة همبرج إلى فيمار؛ وهنا استأنفت
والدته نديها الأدبى الذى كان يضم في همبرج نخبة من الأدباء
والفنانين الممتازين ، مثل كلوبستوك Klopstock ؛
أبى الشعر الألمانى الحديث، والرسام تشبين Tischbein
وريمارس Reimarus وبعض السياسيين ، وازدان هذا
الندى في فيمار وبلغ أوج الشهرة بفضل جيته وأعلام
الفكر والأدب في ألمانيا الذين اجتمعت كثرتهم في
فيمار في ذلك الحين .

ولم يشأ شوبنهور الاستمرار في الأعمال التجارية .

وبعد كثير من التشكى أطلق سراحه من التجارة وأرسل إلى المدرسة الثانوية في جوتا .

١٨٠٩ - ١٨١١ : في سنة ١٨٠٦ دخل جامعة جيتنجن ، وعنى خصوصاً بدراسة الطب والعلوم الطبيعية والتاريخ ، كما درس الفلسفة على يد الفيلسوف الشاك جوتلوب أرنست شولتسه Gottlob Ernst Schulze الذي وجهه إلى دراسة أفلاطون وكنت وحدهما ، ونصحه بعدم قراءة أي فيلسوف ، خصوصاً أرسطو واسبينوزا ، قبل اتقان دراسة أفلاطون وكنت ، وهي نصيحة لم يندم شوبنهاور على العمل بها .

١٨١١ - ١٨١٣ : وفي سنة ١٨١١ ذهب إلى جامعة برلين ، وقد جذبته شهرة فشته إليها ، ولكنه سرعان ما تبرم بمحاضراته ، وتبدل الإعجاب به إلى سخيرية واحتقار

١٨١٣ : حاول تحضير الدكتوراه في هذه السنة في جامعة برلين ، لكن الحرب حالت دون هذا التحضير فارتحل إلى بينا ، وظفر بالدكتوراه الأولى من جامعتها برسالة الموسومة بعنوان : « الجذر الرابعي لمبدأ العلة الكافية » .

وفي الشتاء التالي عاد إلى فيار وتوثقت صلاته بجيسته، وتأثره في نظرية الألوان . وهنا أيضاً عرف فريدرش ماير ، المستشرق الذي أدخله في معبد الفكر الهندي ، فعنى بدراسة الفكر والدين عند الهنود .

١٨١٤ — ١٨١٨ : في هذه الفترة عاش في درسدن ، وعكف على للتأليف والمكاتب ودور الفن يدرسها دراسة مباشرة حية .

وهنا كتب أولاً كتابه عن « نظرية الإبصار والألوان » ، الذي أخذ فيه جانب جيته ضد نيوتن «لأن جيته، كما قال، قد درس الطبيعة بطريقة موضوعية، عاكفاً عليها؛ أما نيوتن فقد كان رياضياً خالصاً، همه الوحيد الحساب والقياس، لكن دون أن ينفذ إلى ما وراء السطح الخارجي للظواهر». ولكن هذا الموقف دفع الفزيائيين إلى عدم الثقة بكتابه هذا، مع أنه ثبتت من بعد صحة نظرياته واتفاقها مع نظريات يونج Young وهلمهولتز Helmholtz .

١٨١٩ — وكتب في درسدن كذلك كتابه الرئيسي : «العالم إرادة وامثال» الذي نشره سنة ١٨١٩ .

وبعد أن سلم مخطوطة هذا الكتاب إلى الناشر
ارتحل إلى إيطاليا في خريف سنة ١٨١٨ .

ولكن الكتاب أخفق في الانتشار إخفاقاً عجيباً .

١٨١٨ — ١٨٢٠ : بقي في إيطاليا حوالى سنتين متنقلاً في ربوعها ،
زائراً مدنها ومتاحفها في روما و نابلي والبندقية ، مقبلاً
على روائع الفن فيها ، مشاركاً في اللهمو واللذات ، فكانت
له بعض للمغامرات الغرامية ، خصوصاً في البندقية .

١٨٢٠ — ١٨٢٢ : وفي سنة ١٨٢٠ عاد إلى برلين ، ونال منها
دكتوراه التدريس ؛ ثم صار مدرساً ، ولكنه لم يلق أى
نجاح في تدريسه ، حتى إن عدد الطلاب الذين كانوا
يحضرون محاضراته لم يزد على تسعة . فقد كان لا يزال
مغموراً بينما كان يدرس في الجامعة عينها إلى جواره
هيجل واشليير ماخر وهما في ذروة الشهرة والمجد ؛ مما
ملأ شوبنهور كراهية للتدريس الرسمي للفلسفة ومدرسيها .

ومع هذا ظل رسمياً يدرس في هذه الجامعة حتى

سنة ١٨٣٢ .

١٨٢٢ — ١٨٢٥ : وفي ربيع سنة ١٨٢٢ بعد تجربة التدريس للمرة

عاد إلى إيطاليا ، متوسعاً في دراساته في الجمال والأخلاق .
وبقى بها ثلاث سنوات .

١٨٢٥ — ١٨٣١ : بعد عودته من إيطاليا حاول استئناف التدريس
بجامعة برلين عساه أن ينجح هذه المرة ، لكنه منى أيضاً
بخيبة الأمل والإخفاق : فكان اسمه مسجلاً في برنامج
المحاضرات ، لكنه لم يقيم بإلقائها .

وعاش في مدينة برلين وحيداً لا يحتفل به إنسان ؛
بينما يرى حوالبه ألوية الشهرة ومشاعل المجد تمحوم على
رعوس « الدجالين والمهرجين من للفكرين » .

١٨٣١ — وما يليها : كل هذا جملة على التفكير في مغادرة هذه
المدينة البغيضة إليه ، فانهز فرصة انتشار الكوليرا فيها
سنة ١٨٣١ ، وأوى إلى مدينة فرنكفورت على المين حيث
أمضى البقية الباقية من حياته .

١٨٣٩ — في هذه السنة بدأ اسم شوبنهور يعرف بين الجمهور . فقد
أعلنت الجمعية الملكية للعلوم في النرويج عن مسابقة في
موضوع الحرية ، فاز فيها شوبنهور بواسطة رسالته :
« حرية الإرادة » . فعين عضواً في هذه الأكاديمية .

وفي السنة التالية قدم رسالة أخرى إلى الجمعية الملكية للعلوم في الداينبارك ، بعنوان «أساس الأخلاق» ، ولكنها لم تتزوج ، لأن الأكاديمية قد جزعت من عنف الهجمات التي صباها على فشته وهيجل .
ومنذ هذا التاريخ ونجم شهرته قد بدأ في الصعود .

١٨٤٨ ؛ - في هذا العام كانت الاضطرابات السياسية على أشدها في أوروبا كلها . ثم في مدينة فرنكفورت نفسها ، فلما كان شوبنهور محباً للنظام ، لا يريد أن يعكر عليه صنو حياته الهادئة شيء ، فقد أيد إخماد هذه الاضطرابات بكل قوة وعنفة ، حتى إنه أوصى بثروته لصندوق مساعدة الذين دافعوا عن النظام في سنة ١٨٤٨ و ١٨٤٩ ، لهم ولأبنائهم اليتامى ، وهو الصندوق الذي أسس في براين .

١٨٥٣ - بدأت شهرة شوبنهور في الاستفاضة ، فقد كتبت «مجلة وستمنستر» Westminster Review : مقالة عنه ترجمها لندرن Lindner إلى الألمانية ، ونشرها في مجلة فوس Vosszeitung .

وفي السنة التالية نشر فراونشتيت Frauenstaedt عرضاً كاملاً لمذهبه ، وفي سنة ١٨٥٥ وضعت جامعة ليبستج مسابقة حول فلسفته .

فقرعت شهرته كلَّ الأسماع وظهر بالعديد من
متحمسى الأتباع .

١٨٦٠ - وتوفي محوطاً بأ كليل الشهرة بعد إنكار طويل في
٢٣ سبتمبر سنة ١٨٦٠ إثر سكتة رئوية ، وهو في سن
الثانية والسبعين .

مؤلفاته

١٨١٣ -- « حول الجذر الرباعي لمبدأ العلة الكافية » ، رسالة ،
Ueber die vierfache Wurzel des Satzes vom Zureichenden
Grunde . والطبعة الثانية ظهرت في فرنكفرت
على المين سنة ١٨٤٧ . والطبعة الثالثة بعناية فراونشتيت
في ليبتيسج سنة ١٨٦٤ .

١٨١٦ : « في الإبصار والألوان » Ueber das Sehen und die
Farben ، ليبتيسج ، والطبعة الثانية في سنة
١٨٥٤ ، ليبتيسج ، والطبعة الثالثة بعناية فراونشتيت
بليبتسج أيضاً سنة ١٨٦٩ . أما ترجمتها اللاتينية فقد
ظهرت في مجموعة راديوس Radius الموسومة باسم
« الكُتَّاب الصِّغار في علم العين » Scriptorum
ophthalmologici minores ، ج٣ ، ليبتيسج سنة ١٨٣٠ .

١٨١٩ - « العالم إرادة وامثال » في أربعة أقسام ، مع ملحق
يتضمن نقد فلسفة كنت ، Die Welt als Wille

und Vorstellung . ثم أصدر له طبعة ثانية في
جزئين مزيدة كثيراً ، في ليبتيج سنة ١٨٤٤ ، والطبعة
الثالثة ظهرت سنة ١٨٥٩ . أما الطبقات التالية فكانت
بعناية فراونشتيت .

١٨٣٦ - « حول الإرادة في الطبيعة » Ueber den Willen

in der Natur ، فنكفرت على المين ، الطبعة
الثانية في فنكفرت أيضاً سنة ١٨٥٤ ، والطبعة الثالثة
بعناية فراونشتيت ، ليبتيج سنة ١٨٦٧ .

١٨٤١ - « المشكلتان الرئيسيتان في الأخلاق » Die beiden Grundprobleme

der Ethik (ويشمل : « في حرية الإرادة
الإنسانية Ueber die Freiheit des menschlichen
Willens - كتاب توّجه الجمعية الملكية في
النرويج » ثم : « حول أساس الأخلاق
Ueber das Fundament der Moral كتاب لم تتوّجه
الجمعية الملكية للعلوم في الدانمارك ») ، ظهر في فنكفرت
سنة ١٨٤١ .

١٨٥١ - « الحواشي والبواقي » Parerga und Paralipomena

في جزئين ، برلين سنة ١٨٥١ .

المؤلفات المتروكة بعد وفاته :

« مباحث وتعليقات وأقوال وشذرات » Abhandlungen
 Anmerkungen, Aphorismen und Fragmente نشرها
 يوليوس فراونشتيت في ليبتيج سنة ١٨٦٤ ، ونشرها ر. فون
 كبير R. v. Koeber في برلين سنة ١٨٩١ . وقد نشرت في
 رسائل مفردة هكذا :

١ - « حول النساء » Ueber die Weber . نشرها من جديد
 بندكت فريد ليندر Benedict Friedländer ، في برلين
 سنة ١٩٠٨ ؛

٢ - « حِكْم في الحياة » Aphorismen zur Lebensweisheit ،
 نشرها نشرة نقدية ادورد جريزباخ Grisebach في ليبتيج
 سنة ١٩٠٨ (طبعة ركلام Reclam) :

٣ - « حول الموت الخ » Ueber den Tod ، طبعة شعبية في
 اشتوتجرت سنة ١٩٠٤ ؛

٤ - « ميتافيزيقا الحب الجنسي » Metaphysik der
 Geschlechtsliebe ، طبع في داخا سنة ١٩٢٠ ؛

• - « حول القراءة والكتب » Ueber Lesen und Bücher ،
 ليبتيج سنة ١٩١٤ ؛

٦ - « حول الكتابة والأسلوب » Ueber Schrifstellerei und Stil ليبتسج سنة ١٨٣١ ؛

٧ - ترجمة كتاب جراسيان: كتاب الوحي Gracians Handorakel وقد نشرت كل مخرافات في الطبعة الجديدة لمجموع مؤلفاته التي أشرف عليها دويسن وويس Deussen und Weiss

وله مراسلات مع بكر Joh. Aug. Becker نشرها يوهان كارل بكر Joh. Karl Becker في ليبتسج سنة ١٨٨٣ . وأحاديثه ومراسلاته مع بكر وفراونشتيت وفون دورز Dors ولندز Lindner وأشر Asher وغيرهم في السنوات ١٨١٣ - ١٨٦٠ . قد نشرها جريزباخ سنة ١٨٩٥ ، والطبعة الثانية سنة ١٩٠٤ في ليبتسج (ركلام) .

أما مجموع مؤلفاته فالطبعة الجديدة النقدية العلمية لها هي التي نشرها دويسن في ١٤ مجلداً ، وابتدأ نشرها سنة ١٩١١ عند الناشر ر . پِپِر R. Piper في مدينة مُنشن (مونيخ)

فهرس الأعلام

أفلوطين Plotinus ، ٢٢٠
 إقليدس Euclides ، ١٦ ، ٩٦
 أكسيون Axion : ١٢٩
 إليزابيت نيه Elisabeth Ney
 ٢٥
 انجار Engels ٨٩
 إنكساغورس Anaxagoras
 ٢٠٣
 أوتورنجه Otto Runge ١٤٣
 أوديب Oedip ٢٦
 أوفيد Ovidius ١٦٨

 ب
 بير R. Piper ٣٠٣
 يتركة Petrarca ٢٥٢
 برجسون Bergson ١٩٦ ، ٢١٧
 بركلي Berkeley ، ٥٠ ، ٥١ ، ٨٦
 برومثيوس Prometheus ٣٨
 برونو Bruno G. ، ١٠٩ ، ١٣٤
 بسكال Pascal ٢٧٢
 بك Beck ٨٠
 بكر J. K. Becker ٣٠٣
 بندار Pindarus ٧٧

(١)
 أبرقلس Proclus ١٠٢
 أبليس : ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢
 أبو البقاء ١٢٦
 أبيقور Epicurus ، ١٢٨ ، ٢٤٠
 آدم ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩
 أديل Adele ١٥
 أرتور (شونهور) ٢٢ ، ٤
 أرسطو Aristoteles ، ٦٤ ، ٨١
 ٩٧ ، ١٣٣ ، ٢٠٣ ، ٢٩٥
 اسپينوزا Spinoza ، ٦٤ ، ٨١ ،
 ١٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٧ ،
 ٢٢٩ ، ٢٩٥
 اسوفت Swift ١٩٨
 اشينجلر Spengler ، ٢١٢ ، ٢١٧ ،
 ٢٥٤
 أشر Asher ٣٠٣
 اشليجل Schlegel ، ١١١ ، ١١٢
 اشلاير ماخر Schleirmacher
 ١٢٧ ، ١٢٥
 أفلاطون Plato ، ١٢ ، ٢٩ ، ٦٤ ،
 ٦٥ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٩٢ ،
 ٢٠٣ ، ٢٢٠ ، ٢٦٤ ، ٢٩٥

۲۲ ، ۲۱ ، ۱۹ ، ۱۸ ، ۱۷
 ۱۳۵ ، ۱۳۳ ، ۱۳۱ ، ۲۹
 ۱۹۸ ، ۱۷۳ ، ۱۶۹ ، ۱۶۶
 ۲۹۶ ، ۲۴۷ ، ۲۰۳
 ۲۹۶ ، ۱۶۵ Jérôme جیروم

ح

حنه شو بهور Johanna ۲۱-۲۳

خ

۱۱۰ Chronos خرونوس
 الحیام ۲۶۱ — ۲۷۰

د

۱۶۸ ، ۲۷ Dante داتنه
 ۳۰۳ Von Dors دورز
 ۲۶۵ — ۲۶۲ De Vigny دفنی
 ۲۷۰ ، ۲۶۸
 ۹۷ Duns Scot دنس اسکوت
 ۲۰۶
 ۱۶۵ Domenico دومنیکو
 ۱۶۵ Donatello دوناتلو
 ۲۰۶ ، ۷۲ ، ۶۹ Deussen دوینسن
 ۳۰۳
 ۴۹ ، ۴۷ Descartes دیکارت
 ۲۰۹ ، ۲۰۶ ، ۲۰۴ ، ۷۲ ، ۹۶

Baudelaire ۲۳ بودایر
 ۱۱۲ ، ۳۶ Buddha بوذا
 ۸۹ Büchner بوشنر
 ۱۷۷ Beethoven بیتهوفن
 ۱۵۷ Burke بیرک
 ۲۵۷ ، ۲۴ Byron بیرن
 ۲۶۷ — ۲۶۰

Pico della ۱۰۱۱ بیکودلامیرندولا
 Mirandola
 ۲۰۱ ، ۱۶۸ F. Bacon بیکون
 ۲۳۰ ، ۱۰۹ J. Böhme بیمه

ت

۲۹۳ Trosiener تروزنیر
 ۲۴ Terese تریزا
 ۲۹۴ Tischbein تشبین
 ۲۷۲ Tonelli تونلی
 ۱۱۴ Titans التیتان
 ۱۱۱ ، ۱۰۷ Tieck تیک
 ۱۴۲ ، ۱۲۶

جبریل ۲۵۷

۱۷۲ Gretchen جراتشن
 ۲۳ Gerstenberg جرستنبیرح
 ۳۰۲ Grisebach جرینباخ
 ۱۶ ، ۱۵ ، ۱ Goethe جیتنه

- شالر Schiller ۱۷۲ ، ۱۴۰
 شامل لا کور Challemeil-Lacour
 ۱۳۵
 شانج Schlleng ۱۰۸ ، ۱۰۲ ، ۶۰
 ۲۰۸ ، ۲۰۷ ، ۱۸۱ ، ۱۲۵
 ۲۱۵
 شولتسه Schulze ۱۲۰ ، ۶۴ ، ۶۱
 ۲۹۵
 شینیه Chaignet ۱۳۹
 ف
- فا کنرو Wackenroder ۱۱۱
 فاوست Faust ۱۷۲ ، ۳۴ ، ۳۲
 ۲۰۳
 فراونشتیت Frauenstädt
 ۳۰ ، ۳۰۰ ، ۲۹۹
 فرجیل Virgilius ۱۶۷
 فریدرش الکبر Friedrich ۱۲
 فریدر اندر Friedländer ۳۰۲
 فشته Fichte ۶۰ ، ۵۷ ، ۱۱
 ۸۶ ، ۸۹ ، ۱۰۶ ، ۱۲۵
 ۲۰۷ ، ۲۰۸ ، ۲۰
 وشر (فریدرش تیودور)
 ۱۲۱ T. Fischer
 فلورانس Flourens ۲۶
 فنکلمن Winckelmann ۱۶۴
 ۱۶۶
 فوجت Vogt ۸۹
 فوننارج Vauvenargues ۱۰۰

ر

- رانسیه Rancé ۸
 روسو Rousseau ۲۹
 روینن Reussen ۹۸ ، ۸۸
 ریکاردا هوخ Ricarda Huch
 ۱۱۱ ، ۱۴۴ ، ۱۴۸
 ریمارس Simarus ۲۹۴
 ریتان Renan ۱۳۵ ، ۱۲
 رینهولد Reinhold ۸۰ ، ۴۷

ز

- زمل G. Simmel ۱۴۶ ، ۱۴۵
 ۲۱۵ ، ۲۱۴ ، ۱۶۰
 زیدلتس Seidlitz ۴۰
 زیوس Zeus ۱۱۵

س

- سرفنتس Cervantes ۱۰۴
 سقراط Socrates ۱۱۷ ، ۱۴
 ۲۰۳
 سوفوکلیس Sophocles ۲۶

ش

- شافتسبری Shaftesbury ۱۳۹
 شکسپیر Shakespeare ۷۷ ،
 ۲۵۲ ، ۱۷۲ ، ۱۶۸

۳۰۲ R. Von Koeber کیر
 ۳۵ Kierkegaard کیرکجور
 ۱۸۳ ، ۱۸۲ ، ۱۳۰

ل

۴۶ ، ۲ Laocoon لآوکون
 ۱۶۷ ، ۱۶۶

۲۱۱ Laromiguière لارومجیر
 ۱۶۶ ، ۱۴۰ Lessing لسنج

۲۹۹ Lindner لندنر

۲۰۲ Laura لورا

۱۴۳ Love لوفل

۷۴ ، ۵۰ Locke لوك

۱۶۸ Lucretius لوکرتیوس

۴۱ Lombroso لومبروزو

۲۰۴ ، ۱۸۳ ، ۶ Leibniz لیبنتس

۲۲۸ ، ۲۱۱

، ۱۱۰ Leopardi لیوپردی

۲۷۲ ، ۲۷۱

م

۲۵۳ Aleman مآلمان

۲۱۶ ، ۸۹ Marx مارکس

۲۰۴ Malebranche مآبرانٹس

۲۰۵

۲۹۶ : Mayer مآبر

۲۶۴ ، ۱۳۷ المسیح

۱۹۸ Voltaire فولتیر

۹۰ ، ۷۷ ، ۸۶ Volkelt فولکلٹ

۲۱۴ ، ۱۵۸ ، ۱۴۵

۸۹ Feuerbach فویرباخ

۳۰۳ Weiss فیس

۱۹۸ Wieland ویلند

ق

۲۶۲ ، ۲۵۹ ، ۲۵۸ قایل

ك

۲۴ Kari August کارل اوجست

۱۱۱ Caroline کارولینہ

۱۷۲ ، ۷۷ Calderon کلدرون

۲۵۷

۱۹۴ Klopstock کلوبستواک

۲۰۶ Clemens کلیماتس

۵۲ ، ۳۲ ، ۱۲ ، ۶ Kant کنٹ

۹۳ ، ۸۳ - ۸۱ ، ۷۵ ، ۶۶ -

۱۵۷ ، ۱۴۲ ، ۱۲۱ - ۱۱۹

۳۰۱ ، ۲۴۶ ، ۱۸۴

۱۹۸ Knebel کنیبل

۷۳ Kopernicus کوپرنیکوس

۱۶۹ Cornelle کورنی

۲ ، ۱ ، ۱۲ Cousin کوزان

۱۲ Cuvier کوفیہ

۳ Kuno Fischer کونوفشر

۱۷۲ Hamlet شمات
 ۲۶۷ Hobbes هوبز
 ۱۶۸ Horatius هوراس
 ۱۷۳ Homerus هومیروس
 ۱۰۶ G. W. F. Hegel هیگل
 ۰۱ ، ۹۲ ، ۸۹ ، ۶۰ ، ۱۲
 ۲۹۷ ، ۲۰۶ ، ۱۰۲
 ۱۸۴ Heidegger هیدجر
 ۷۴ ، ۵۲ ، ۵۱ Hume هیوم

و

۱۹۸ Wordsworth وردزورث
 Walter Scott ولتر سکوت
 ۱۹۸
 Wiliam James ولیم جیمس
 ۱۹۶

ی

۲۴ Iagemann یاجن
 ۱۲۷ ، ۱۲۵ Iacobi یا کوبی
 ۲۹۴ Ienisch ینش
 ۲۹۶ Young یوج

المعری (أبو العلاء) ۲۵۹ ، ۲۳۸ -
 ۲۶۹
 ۱۸۳ Mendelssohn مندلزون
 ۸۹ Moleschott مولیشوت
 Solomon Maimon (سلیمان) میمون
 ۸۰
 Maine de Biran مین دی بیران
 ۲۱۱ ، ۲۱ ، ۲۰۹ ، ۲۰۷

ن

۴۱ Nordau نورداو
 ۱۴۴ ، ۱۱ Novalis نوفالس
 ۱۳ ، ۹ ، ۸ Nietzsche نیتشه
 ، ۱۳۶ ، ۱۱۶ ، ۳۵ ، ۳۲
 ۲۵۴ ، ۲۱۷
 ۲۹۶ ، ۵۱ ، ۱۷ Newton نوتن

ه

۲۵۷ هایل
 ۱۱۶ Aloys Hirt هرت
 ۱۴۶ ، ۱۳۱ Herder هردر
 ۲۹۶ Helmholtz هلمهولتز

توزيع
دار القلم
بيروت - لبنان

To: www.al-mostafa.com